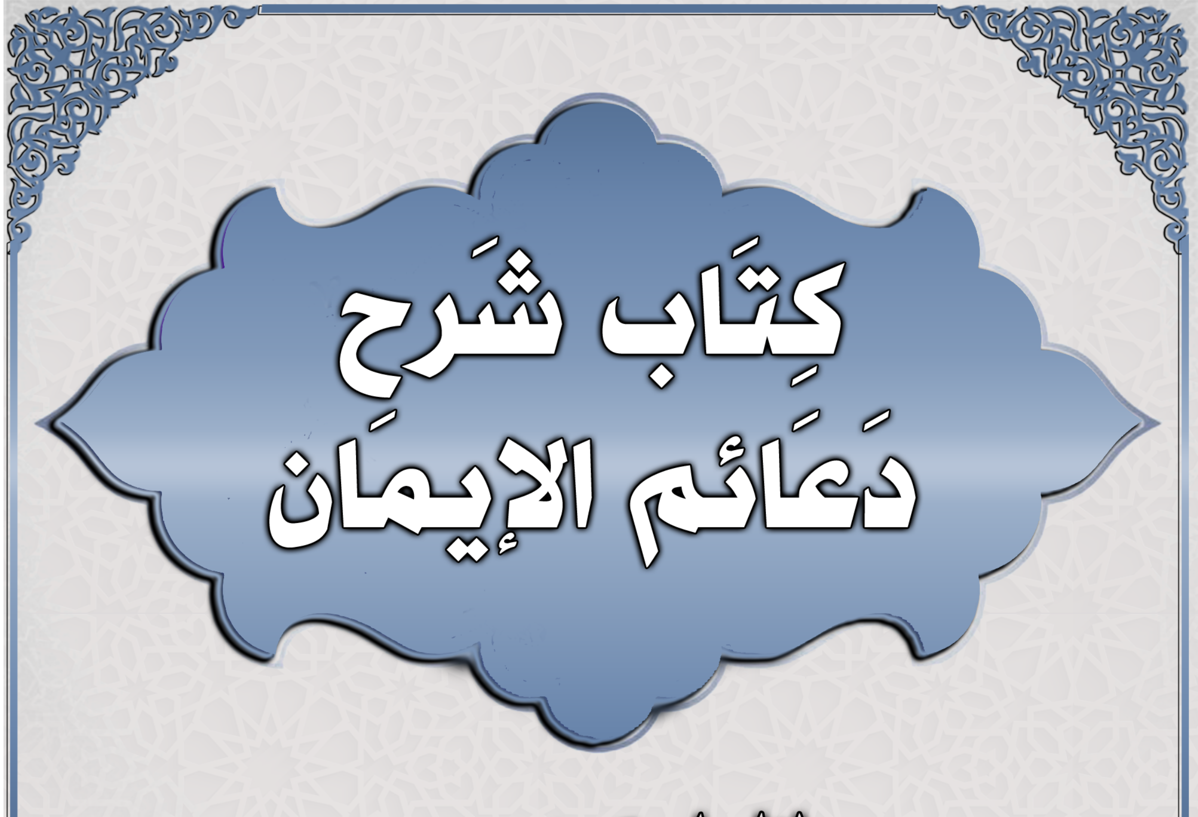


كتاب شرح دعائم الإيمان

للإمام محمد بن

القاسم بن إبراهيم عليه السلام

مُنتزع من مَجْموع كتبه ورسَائِله

تحقِيق :عبد الكريم أحمد جدبان

منشورات مكتبة التراث الإسلامي تاريخ النشر: ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م

كتاب

شرح دعائم الإيمان



كتاب شرح دعائم الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وأهل بيته المطهرين.

قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وتفسير ذلك ومخرجه من طريق الباطن ، وهو شرح باطن الايمان ، وكمال أدب أهل المعرفة بالله وهم الفرقة الناجية ، وذكر خصوص الله لهم وَمَنِّه عليهم ، بما ابتدأهم من كثير رحمته وفضل ذخره لهم من مزيده ، والحجة البالغة لله على أهل المعرفة والعبودية ، القائمين له بالقسط في عبيده ، والذائدين عن حريم دينه ، والمعتبرين بما أغناهم به من فوائد مزيده ، وألهم قلوبهم من نور حكمته ، فهم يعبدون بضياء شرح قلوبهم المحكم من كتابه ، وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنن الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ، بما جعل في قلوبهم من الإلهام والفطن ، كمثل علي بن أبي طالب عليه السلام وعلى آله الطاهرين وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك جميع المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله الطاهرين ، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

حدثنا سويد بن سعيد الحدثاني عن عتبة بن أبي معاذ ، أن رجلا سأل علي بن أبي طالب صلوات الله عليه عن الأيمان؟

فقال: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد.

والصبر من ذلك على أربع شعب: على الشوق والإشفاق والزهادة والترقب.

فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ، ومن ترقّب الموت سارع إلى الخيرات.

واليقين على أربع شعب: على تبصرة الفطنة ، وتأويل الحكمة ، وموعظة العبرة ، وسنة الأولين.

فمن أبصر الفطنة تأول الحكمة ، ومن تأول الحكمة عرف العبرة ، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين.

والعدل من ذلك على العبرة ، غائص الفهم ، وزهرة العلم ، وشرائع الحكمة ، وروضة الحلم.

فمن فَهِمَ فسر العلم ، ومن علم عرف شرائع الحلم ، ومن حلم لم يفرط في أمره ، وعاش في الناس حميدا.

والجهاد على أربع شعب: على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصدق في المواطن ، وشنأن الفاسقين.

فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه ، ومن شنئ الفاسقين غضب لله ، ومن غضب لله غضب الله له.

باب الإيمـــان

الإيمان على أربع دعائم ظاهرة وباطنة:

فظاهرة الإيمان قول وعمل ونية وسنة ، فهذه الأربع هي ظاهرة الإيمان ، قول باللسان ، وعمل بالجوارح ، ونية بالقلب ، وسنة وهي إصابة الحق.

والأربع التي وصفها علي بن أبي طالب صلوات الله عليه في باطن الأمر وهي: الصبر واليقين والعدل والجهاد. ومخرجها من هذه الأربع الظـاهرة القـول والعمل والنية والسنة ، فمخرج الصبر من النية ، وهو صبر القلب ، فظـاهره نية وباطنه صبر ، ومخرج اليقين من السنة ، هو صواب الحق ، فظاهره سـنة وباطنه يقين ، ومخرج العدل من القول ، فظاهره القول وباطنه العدل ، ومخرج الجهاد من العمل ، فظاهره العمل بالجوارح وباطنه الجهاد. فهذه الأربع الـتي ظاهرها ما وصفنا من علم الظاهر ، وباطنها من علم الباطن.

فمعنى الإيمان على أربع دعائم ، يعني: على أربع أساطين [١] ، وإنما أراد بـه عليه السلام الإيمان قول وعمل ونية وسنة التي وصفنا ، فإذا كملـت هـذه الأربع بشرائطها من باطنها وظاهرها فهو كمال الإيمان ، وذلك روي عـن علي رضي الله عنه ، وعبد الله بن مسعود ، أنهما قالا: « لا ينفع قـول إلا بعمل ، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية ، ولا ينفع قول وعمل ونية إلا ما وافق السنة »[٢].

---

(١) الأساطين: جمع إسطوانة.

(٢) الكافي ١/٧٠ ، ووسائل الشيعة ١/٤٧ ، وأمالي الطوسي /٣٣٧.

باب موافقة السنة

وموافقة السنة إصابة الحق ، وهو النور في القلوب الذي خص الله به أهل الحق ، وهم أهل المعرفة الذين خصهم الله بنور اليقين في قلوبهم ، فأصل المعرفة من اليقين هو النور الذي تصح فيه الأعمال ، وتكمل به الطاعات ، ويترقى به أهل المعرفة في الدرجات ، وقد ذكر الله ذلك في كتابه فقال جل ثناؤه: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٢٢] ، وقال جل ثناؤه: ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ ﴾ [النور:٣٥] ، وقال جل ثناؤه: ثناؤه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ...﴾ [الأنعام:١٢٢] الآية.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أخباره: « إن النور إذا سكن في القلب انفتح له القلب ، وانشرح له الصدر »[١].

وقال النبي صلى الله عليه وآله في حديث حارثة: « من سره أن ينظر إلى رجل قد نوَّر الله قلبه بالإيمان فلينظر إلى حارثة »[٢].

وقال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يقول في دعائه: « اللهم

---

(١) بحار الأنوار ١٢٢/٧٠.

وعن أبي جعفر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الايمان إذا دخل القلب انفسح له القلب وانشرح وذكر هذه الآية ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام:١٢٥]. قالوا: يا رسول الله وهل لذلك من آية يعرف بها؟ قال: نعم ، الانابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت)). أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧٦/٧(٣٤٣١٤).

(٢) الكافي ٥٣/٢.

اجعل لي نورا في قلبي ، ونورا في بصري ، وزدني نـــورا إلى نـــوري »[١].
والأخبار في ذلك تكثر.

فهذا النور الذي يُصاب به الحق ، وتصح به الأعمال ، وتزكو بـــه عنـــد الله لأهلها ، ويستوجبون بها الثواب عند الله ، وهي خصوص من الله لمن يشاء من عباده ، عندما يكون من قبول هدايته التي عمهم بها بقوله: ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان:٢] ، أو بقوله: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ [الشـــورى:١٤] ، وبقولـــه: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧] ، فمن قَبِلَ عن الله وعمل بطاعته ، كان من حكم الله تأييده ، والزيادة له من توفيقه. وكذلك أوجبه تعالى على نفســه بقولـــه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمـــد:١٧]، وبقولـــه: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغـابن:١١]، وبقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]. فمن قَبِلَ عن الله ما ابتدأه به زاده شرحا لصدره، وتنويرا لقلبه، وهم الذين شاء الله أن يمن عليهم بذلك بعد قبولهم.

وكذلك قـــال في كتابـــه: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم:١١] ، وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله في حديث أبي بريدة عن أبيه قال: « القضاة ثلاثة ، فقاضيان في النار ، وقاض في الجنة ، فأما الذي في الجنة فرجل حكم بكتاب ربه وسنة نبيه فأصاب الحق فهو في الجنة ... »[٢] ، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام:

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة ١٠٧/٥ ، وبحار الأنوار ٣٢٠/٨٤.

(٢) أخرجـــه النســـائي في ســـننه الكـــبرى ج ٣/ص ٤٦١/ح ٥٩٢٢ ، وابـــن حبـــان في صحيحه١٠/ص٥١٠/ح٤٦٥٣ ، والترمذي في سننه ج٣/ص٦١٣/ح١٣٢٢ ، وابن ماجـــه في

« القضاة ثلاثة ، فقاضيان في النار ، وقاض في الجنة ، فأما الذي في الجنة فرجل قضى بكتاب ربه وسنة نبيه فأصاب الحق فهو في الجنة ، ورجل جَارَ في الحكم متعمدا فهو في النار ، ورجل حكم بغير علم فهو في النار. فقيل: ما بال هذا الذي اجتهد فأخطأ فهو في النار؟! قال: إذا لم يكن عالما لا يكن قاضيا »[1].

وقال حذيفة بن اليمان في حديث أبي موسى حين سأله رجل فقال: « أرأيت إن جاهدت بنفسي ومالي فقتلت في سبيل الله أين أنا؟ فقال له أبو موسى: في الجنة. قال له حذيفة: أفهِم صاحبك واستفهمه ، فأعادها عليه ثلاثا ، كل ذلك يقول أبو موسى في الجنة. فقال حذيفة: إن جاهدت في سبيل الله بنفسك ومالك فأصبت الحق فقتلت عليه ، فأنت في الجنة ، ومن لم يوافق الحق لم يوفق للصواب. فقال أبو موسى: صدق صدق »[2].



سننه ج٢/ص٧٧٦/ح٢٣١٥ ، وأبي داود في سننه ج٣/ص٢٩٩/ح٣٥٧٣ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص١٠٢/ح٧٠١٢ ، ج٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص٢٠/ح١١٥٤ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٢١٠/ح٣١٧ ، وابن حنبل في فضائل الصحابة ج١/ص١٨١/ح١٨٥ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص١١٧/ح٢٠١٤١ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص١٥٥/ح٩٨٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٤/ص٥٤٠/ح٢٢٩٦٣.

(١) مستدرك وسائل الشيعة ٢٤٥/١٧ ، وبحار الأنوار ٢٧٠/١٠١.

(٢) لم أقف عليه.

باب الصبر

وهو أول الدعائم ، فالصبر منه على أربع شعب: على الشوق ، والشـــفق ، والزهادة ، والترقب. فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشـــفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ، ومن ترقب الموت سارع إلى الخيرات.

فالصبر من ذلك على ثلاثة وجوه:

فصبر عن المعصية وهو أول الوجوه.

والوجه الثاني: صبر على الطاعة.

والوجه الثالث: صبر على المحن.

باب الصبر عن المعصية

وهو أول الوجوه ، والصبر عن المعصية أن يكون العبد يهم بمواقعة المعصـــية فيذكر عقوبة الله له عليها فيدعها خوفا من العقوبة ، ويخالف هواه ويصـــبر على مخالفة الهوى عند وقوع الشهوة ، فينظر الله إليه عند ذلك مجاهدا لنفسه ، مخالفا لهواه ، تاركا لشهوته ، عند القدرة عليها والتمكّن منها ، فيرحمـــه الله عند ذلك فيصرفها عنه بفضله وعصمته ورحمته.

ويستعان على مثل هذا الوقف بالحياء من الله والمراقبة لله ، ومن ذلك ما روى مجاهد أنه قال في قوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦] ، فقال: هو العبد يهم بمعصية فإذا أراد أن يواقعها ذكر مقام الله عليه ، فيدعها خوفا من الله فله الجنتان.

وقال تبارك وتعالى في قصة يوسف يخبر عن قـــول النســـوة: ﴿ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا

عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف:٥١] [(١)] ، وقال في صرف المعصية عنه قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف:٢٨] ، فكان ذلك منًّا من الله عليه حين ذكر وخاف مقامه ، وتمكن الحياء منه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف:٣٣] ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، وقال جل وعز: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤]. وهكذا ضمن الله سبحانه لمن اعتصم بحبله ، وراقبه وخاف مقامه ، واستحيا منه ، بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٦-٦٨]. فضمن تبارك وتعالى العصمة والهداية لمن تمسك بطاعته ، وخاف مقامه ، وعظّم أمره ، ولم يستخف بعذابه ، والله منجز وعده ، وغير مخلف وعيده.

وكان يوسف عليه السلام ممن استحق ذلك لتمسكه بالطاعة ، وكان بذلك من أهل العصمة والتوفيق.

وقال ابن عمر: عن النبي صلى الله عليه أنه « كان رجل في بني إسرائيل يقال له: كفل ، لا يترع لله عن محرم ، فراود امرأة على نفسها وأعطاها ستين دينارا ، فلما قعد منها مقعد الرجل من أهله ، ارتعدت ، فقال لها كفل: ما لك أكرهتك على شيء؟! قالت: لا ، ولكن هذا عمل ما عملته قط ، وإنما عملته من الحاجة ، فقام كفل عنها وقال: يعطي الله عهدا لا يعصي الله بعده

(١) في المخطوطتين: ﴿ تالله ما علمنا ... ﴾.

أبدا ، فمات في ليلته فأصبح مكتوبا على بابه: إن الله قد غفر للكفل »[1].

فذلك معنى قول علي بن أبي طالب عليه السلام: « من أشفق من النار رجع عن المحرمات » ، يعني: من خاف عقوبة ربه على المعصية صبر على تركها ، ورجع إلى التوبة ، فإذا كان كذلك فهو راجع عن المحرمات.

باب الصبر على الطاعة

وهو الوجه الثاني ، والصبر على الطاعة أن يكون العبد [شغوفا] بالطاعة ويرغب فيها وبها ، ويعلم أن الله وعد عليها الثواب ، وكل عامل إنما يعمل في ثواب قد أُعِدَّ له ، وتقدر معرفته بالثواب بصبر[ه] على الطاعة ، ويرغب في ثوابها ، فإذا كان كثير المعرفة بالثواب دامت طاعته ، واجتهد في الازدياد فيها ، ومالت عنه الفترة والملالة ، وصبر على المشقة والشدة في طول المجاهدة ، حتى يصير إلى درجة الطمأنينة وخفة المكابدة ، والتنعم بالطاعة بعد شدة المجاهدة ، فإذا وصل إلى ذلك شاهد الثواب بقلبه كأنه رأي عين ، فعند ذلك ينعم بالطاعة ويتلذذ بمشقتها [2] على بدنه ، وأورثه حب التنعم بالطاعة الاجتهاد في دونها ، وصارت له عادة حتى كأنه لا مجاهدة عليه لما سهل عليه من مجاهدتها ، فصارت العادة كأنها خلق من أخلاقه لا يملها ولا يفتر عنها ، ويرى النقصان في الغفلة ، وذلك أن العادة تقوم مقام الطبيعة لدوام العادة وخفة المكابدة ، فذلت النفس وأجابت إلى دوام الطاعة بعد الصعوبة ، وانقادت بعد عصيان ، وتلكئ وشدة المحنة [3] فعتقوا من رِقِّ النفوس ومن

---

(١) أخرجه أبي يعلى في مسنده ج ١٠/ص ٩٠/ح ٥٧٢٦ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٣/ح٤٧٤٧ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٢٨٤/ح٧٦٥١ ، وأبو يعلى في مسنده ج١٠/ص٩٣/ح٥٧٢٦ ، وابن الشهاب في مسنده ١/ص٢٢٦/ح٣٤٨.

(٢) في (أ) و(ب): لمشقتها.

(٣) في (ب): العصيان وتلكئ.

أسر الهوى ، وذلك كله بالصبر على المكاره الذي عرَّفهم بثواب الصبر ، وهو ميراث الأعمال ، فصدَّق ذلك ما روي عن ثابت البناني أنه قال: « كابدت العبادة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة »[١].

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات »[٢] ، يعني: حفت الجنة بالصبر على المكاره ، وحفت النار باتباع الشهوات.

وقال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه أنه قال: « يا علي إن استطعت أن تعمل في الرضا باليقين فافعل ، وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير »[٣].



(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢٣٨٠/ح٦١٢٢ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢١٧٤/ح٢٨٢٢ ، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص٤٩٣/ح٧١٦٢ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٩٣/ح٢٥٥٩ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٦٠/ح٧٥٢١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٣٣٢/ح٥٦٧ ، وأبو يعلى في مسنده ج٦/ص٣٤/ح٣٢٧٥ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٩١/ح١٣١١ ، والدارمي في سننه ج٢/ص ٤٣٧/ح ٢٨٤٣.

(٣)ورد بلفظ: عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن العباس: ((احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بشيء ، لم يكتبه الله عليك لم يقدروا ، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضاء باليقين فاعمل ، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا)). أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال ج٠/ص٠/ح٤٤١٦٥.

وقال عمر بن عبيد العزيز: الرضا ليل ، والصبر مُعوَّل المؤمن ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان:٧٥].

وقال في قصة علي بن أبي طالب عليه السلام وفاطمة ابنة النبي رضي الله عنها: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان:٨ – ٩] ، فأخبر أهم إنما أطعموا لوجهه خالصا ، وذلك لكثرة معرفتهم بثواب رهم ، وإيثارهم لمحبته وطاعته ، وبما يعلمون[١] من واجب حقه على عظيم نعمته ، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإنسان:١٢] ، وقال: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المؤمنون:١١١] ، ونحو هذا في القرءان كثير ، لما[٢] كثرت معرفتهم بواجب حق الله وعظم ثوابه أخلصوا له العمل ، فأورثهم إخلاص العمل دوام الطاعة والتلذذ بها.

فمن ذلك قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حديث كميل بن زياد: « فاستلانوا ما استوعره المترفون »[٣].

ومن ذلك قول عيسى عليه السلام: « خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ، ويباعدان من زهرة الدنيا »[٤].

ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب « حين دخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو نائم على سرير مزمل بشريط ليس بين جنب النبي وبينه شيء ،

---

(١) في المخطوطات: يعملون. والصواب ما أثبت.

(٢) في (ب) و(ج): مما.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم /٤٩٥.

(٤) من أقف عليه.

فلما استوى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جالسا ، ورأى عمر أثر الشريط في جنبه عليه السلام فبكى عمر ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: يا رسول الله كسرى وقيصر يتقلبون في الحرير والديباج وأنت يا رسول الله أكرم الخلق على الله لا تجد ثوبا نطرحه تحتك!! فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا عمر أفي شك أنت؟! فقال له: لا والله. فقال له النبي عليه السلام: ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا »[(١)].

ومن ذلك حديث عائشة قالت: « سترت السهوة بقرا ، فرءاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخل مغضبا وهتكها ، وقال لي: يا عائشة إن الله لم يوح إلي أن أكسو اللبن والطين »[(٢)].

---

(١) ورد بلفظ: عن جندب قال: ((أصابت إصبع النبي صلى الله عليه وسلم شجرة فدميت ، فقال: هل هي إلا إصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت ، فحمل فوضع على سرير مرمول بخوص أو شريط ، ووضع تحت رأسه مرفقه من أدم حشوها ليف ، فأثر الشريط في جنبه ، فجاء عمر بن الخطاب فبكى فقال: ما يبكيك. فقال: يا رسول الله كسرى وقيصر يجلسون على سرير الذهب ويلبسون الديباج والإستبرق. قال: أما ترضون أن لهم الدنيا ولكم الآخرة)). أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١٠٣١/ح٢٦٤٨ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٤٢١/ح١٧٩٦ ، وابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٥٣٩/ح٦٥٧٧ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٤٤٢/ح٣٣٤٥ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٣١٢/ح١٨٨١٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص١٧٥/ح ١٧١٩ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٢٦/ح٩٣٧ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٤٢/ح٧٧٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص١٤٤/ح١٠٣٩٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٤٤/ح١٣٠٧٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص١٠٢/ح١٥٣٣.

(٢)ورد بلفظ: عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، أنه سمع عائشة تقول: ((دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه وتلون وجهه ، وقال:

ومن ذلك حديث أم سلمة رحمة الله عليها قالت: « لبست ذهبــة في أذني – تعني سفالها – قالت: فنظر إليها النبي عليه السلام فأعرض عني!! فقلت: يـــا رسول الله ألا تنظر إلى ذهبتي؟! فقال: عنها أعرض »[1].

يا عائشة أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله. قالت عائشـــة: فقطعنـــاه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١١٧٩/ح٣٠٥٣ ، ومسلم في صـــحيحه ج ٣/ص ١٦٦٨/ح ٢١٠٧ ، والنسائي في سننه ج١/ص١٤٢/ح٢٦١ ، وابن حبان في صحيحه ج٤/ص٧/ح١٢٠٥ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٢/ص٢٩/ح٨٤٤ ، والترمذي في ســـنته ج٥/ص١١٥/ح٢٨٠٤ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٢٠٣/ح٣٦٤٩ ، وأبي داود في سننه ج١/ص٥٨/ح٢٢٧ ، وابـــن حنبل في مسنده ج١/ص٨٣/ح٦٣٢ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٩٦٦/ح١٧٣٤ ، والحـــاكم في مستدركه ج١/ص٢٧٨/ح٦١١ ، والطحاوي في شـــرح معـــاني الآثـــار ج٤/ص٢٥٥/ح٠ ، والطيالسي في مســـنده ج١/ص١٧/ح١١٠ ، والحميـــدي في مســـنده ج١/ص٢٠٦/ح٤٣١ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٤/ص١٢٢/ح٣٨٦٠ ، والنســـائي في ســـننه الكـــبرى ج١/ص١٢١/ح٢٥٧ ، والطبراني في مسند الشاميين ج٢/ص١٥١/ح١٠٨٦ ، وابن راهويـــه في مسنده ج٢/ص٣٧٥/ح٩١٩ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٣/ص٤٤٦/ح١٨٩٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص٢٦٦/ح٣١٣ ، وابن الجعد في مســـنده ج١/ص٣٥٥/ح٢٤٥٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص١٩٨/ح٢٥١٩٢ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٧٠/ح٢٦٦٣ ، الطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٩٠/ح١٣٤٤.

(١)ورد بلفظ: عن أم سلمة قالت: ((لبست قلادة فيها شعرات من ذهب فرآني النبي صلى الله عليه وسلم فكرهها فأعرض عني فنزعتها ، فقال: ما يؤمنك أن يقلدك الله مكانها يوم القيامة شـــعرات من نار)).

أخرجـــه الطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٢٣/ص ٤٠٣/ح ٩٦٧ ، وابـــن حنبـــل في مســـنده ٦/ص٣٢٢/ح٢٦٧٧٨.

وكذلك أمر الله نبيه عليه السلام أن يعرض عنها بقوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النجم:٢٩] ، وقال: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه:١٣١] ، أي: نمتحنهم ، فمباحها فتنة وحرامها نقمة ، قال تعالى: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الشورى:٣٦] [(١)] ، أي: ثواب ربك.

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٨ - ٢٩]. وذكر عن علي في خبر ذكر عنده الطعام ، فقال: لنا دار غير هذه الدار ، وكان لنا جل متاع فقدمناه إلى تلك الدار ، التي نريد المقام بها ، وكذلك من أحب متاعا أحب اللحوق به ، ثم قال علي بن أبي طالب عليه السلام: إني سمعت الله ذم أقواما فقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف:٢٠].

وقال أبو بكر حين استشفى فَأُتي بغسل وماء فانتحب ثلاثا ومسح بوجهه ، فقال زيد بن أرقم: فقيل له: « ما يهيجك على البكاء؟! فقال: إني كنت مع رسول الله صلى الله عليه فرأيته يقول: إليك عني ، ولا أرى شيئا ، فقلت: يا رسول الله إنك تقول: بيدك إليك عني ولا أرى شيئا!! فقال عليه السلام: نعم يا أبا بكر ، هذه الدنيا تمثّلت لي في زينتها وزهرقما فقلت: إليك عني ، وهي

(١) في المخطوطتين: ﴿ ورحمة الله خير وأبقى ﴾.

تقول: والله يا محمد لئن سَلِمْتَ عني فلم تسلم أمتك من بعدك ، وأخاف أن تكون قد لحقتني ، فذلك الذي هيجني على البكاء »[١].

والأخبار في هذا كثير ، فهذا قول علي بن أبي طالب عليه السـلام: « مـن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات » ، لسهولة المكايدة وخفة المشقة عليه ، لكثرة معرفته بما وُعِد من ثواب ربه.

باب الصبر على الامتحان

وهو الوجه الثالث ، وهو أشرف الوجوه وأغلاها والصب علـى الامتحـان بالصدف في مواطن الامتحان.

ومنها: الامتحان بالأمراض والمصايب.

ومنها: الامتحان بالضيق والشدة.

ومنها: الامتحان بالاختلاف والتحير ، فيحتاج أهل المعرفة بالله إلى الصبر في كل موطن في هذه المواطن ، وأن يستعملوا العلم في تلك المواطن ، ويصبروا على ما امتحنوا ، ولا يستخفنهم الجزع فيخرجهم إلى موضـع السـخط ، فيزول عنهم الصبر بإشهاب[٢] عن الجزع ، وذلك ميراث من الصبر على المحن ، الخروج بالسلامة والقيام لله بقسطه على النحو الذي يرضيه ، مع صـواب الحق فيه ، والخروج من مواضع المحن ، فالجزع السـخط والتفـريط وزوال الثواب ، وأهل المعرفة بالله يعرفون بأنوار قلوبهم موقع كل محنة ، فيستعملون لكل موضع آلته [٣] من العلم فبذلك صاروا أهل المعرفة بالله.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (أ): باسهان. وفي (ب) و(ج): باستهان. غير أن الحرف الأخير مهمل ، فلم يتضح لي معناها.

(٣) في (أ) و(ب): إليه. مصحفة.

باب الامتحان بالصدق في مواضع المحن

إن المؤمنين لما علموا أن الله جل ذكره لا يُنال ما عنده إلا بالصدق والقيام بأمره ، وأنه لا يملك معه أحد ضرا ولا نفعا فيما يريد أن يتولاه منه بالامتحان للبلوى ، فيثقوا بالله في أحوال الصدق ، ويؤثرونه على الكذب ، إذ علموا أن الله وحده لا شريك له هو المالك لضر الدنيا والآخرة ، وأنه لا يملك أحد معه من ذلك شيئا ، إذ كان يصرف بها ذلك مما لا يدخل قدرة عباده ، وما مكّنهم من فعله ، لأنهم إنما مُكّنوا من فعل ما أمروا به ونهوا عنه ، وإذا استعملوا هذا العلم مع علمهم أن لله لطائف عنهم كيد أعدائهم ، انقطعوا إليه في صرف ذلك دون من سواه ، فزال عنهم الجزع بالانقطاع إليه ، وآثروا القيام لله بقسطه على جميع خلقه ، فزالت عنهم المداهنة ، وكانوا كمن وصفه الله من المؤمنين الذين وصفهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٧٣ - ١٧٤]، وهذا عاقبة التوكل على الله.

باب الامتحان بالمصائب والأمراض

ومنه: الامتحان بالمصائب والأمراض ، فيصبروا على ذلك ويعرفوا أبواب ما عرفوا من نعمة ربهم عليهم فيما ابتلاهم وامتحنهم نظرا منه لهم واختيارا لهم ، فعليهم الصبر على ذلك والتسليم لما اختار ربهم لهم ، حتى أورثهم ذلك الرضا عن ربهم ، وترك الاختيار عليه ، لما هو أهل لقولهم وأقرب إلى ربهم ، إذ علموا أنه أنظر لهم منهم لأنفسهم ، وأنه أعلم بما يصلحهم ويصلح شأنهم ، فيما هو أصلح لقلوبهم ، وأقرب إلى ربهم منهم بأنفسهم ، فإذا استعملوا هذا العلم في هذا الموضع طابت أنفسهم بربهم بالصبر على ما امتحنوا به ، وأوثق في محبته ، وأعطاهم جزيل الثواب في عاجل دنياهم وآجل آخرتهم.

باب الامتحان بالصبر والشدة

فعليهم الصبر على ما امتحنهم من ذلك ، والرضا بما اختار لهم على الرضا منهم ، والسرور بما خصوا به من فضله ، والدرجة التي أعطاهم من كراماته ، أن منَّ عليهم بدرجة الأنبياء والصديقين قبلهم ، فنظر لهم فأباد عنهم الكثرة [١] التي هي امتحان وفتنة ، ودرجة الأسفلين من خلقه الذين خلى بينهم وبين ما اختاروا من سعة الدنيا اختيارا وبلوى ليفتنهم فيه ، أي: يمتحنهم فيه ، كما قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:١٣١] ، وهذا المعنى بعينيه روى عن بعض سلفنا أنه قال: « نعمة الله علي فيما زوى عني من الدنيا ، أعظم عندي مما أعطاني منها » [٢].

فيجب على أهل المعرفة والعبودية له أن يعرفوا فضل ما أنعم به عليهم فيما زواه عنهم من فضول الدنيا ، فيشكرونه على نعمه ، ويتبذلون له بحسن التواضع إليه في طلب المزيد من ذلك ، فأكرمهم ورفع أقدارهم عن رجس الدنيا وفضولها ، وأعناهم بفضله وإحسانه ، فهم أحرار كرام بررة أعزاء في الدنيا والآخرة ، فإذا استعمل أهل المعرفة بالله هذا العلم في هذه المواطن أورثهم ذلك الحب لله ، واستجلاب الزيادة من الصبر بالحنين إلى الله ، في تمام النعمة عليهم ، وأن لا يسلبهم ما مَنَّ به عليهم ، فحينئذ عرفوا شكر النعم فطابت لهم الحيوة الدنيا والنعيم بالعبادة ، إذا رفضوا كل قاطع دونها من مباح الدنيا وغيره ، فأولئك حزب الله في الدنيا والآخرة ، وحزب الله هم المفلحون.

---

(١) في (أ) و(ب): الكبرة.

(٢) لم أقف عليه.

وفي ذلك ما روي عن جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام أنه قال: « إن الله أكرم الفقراء بخمسة أشياء:

أولها: فراغ القلب.

والثاني: راحة البدن.

والثالث: سرعة الحساب.

والرابع: خدمة العزيز الجبار.

والخامس: درجات العلى في الثواب »[١].

باب الامتحان بالاختلاف والتحير

ومنه: الامتحان عند الاختلاف والتحيُّر في أمر الدنيا خاصة بأهل المعرفة بالله والقبول عنه ، هم الذين يقفون عند التشبهة إذا عرضت أو حيَّرت فتنة ، لأن المؤمن وقَافٌ عند الشبهات ، فإذا همَّ بأمر نظر فإن كان طاعة لله أمضاه ، وإن كان معصية وقف ، فلما كانت هذه صفتهم صاروا أعلام هدى بما جعل الله في قلوبهم من نور الحكمة ونور التقوى ، فيتخذون الحق سُلَّماً يرقون إليه مع نفاذ البصيرة ، إذا ارتاب المبطلون وتحيَّر الجاهلون ، ويعضون على الصبر على الحق بالنواجذ ، ويلزمون محكم القران والسنة فيما لا يُدرك علمه إلا من قِبَلهما ، ولا يتبعون متشابه القران ابتغاء الفتنة ، عرفوا ربهم بما أقام لهم من الدلائل في سماواته وأرضه ، وما بث بينهما من دابة ، فلا يحدث عند ذلك من رأيهم بدعة ، ولا يتكلفون ما لم يكلفوا علمه ، يتنكبون سبل أهل البدعة ، وينتخيبون طريق أهل الحيرة ، لمعرفتهم لله بنفي شبه الخليقة عنه ، ووصفهم له بالعدل والإحسان إلى جميع خلقه ، وتبرئتهم له عن ظلم عبيده ، وتكليفهم إلا اليسير من طاعته ، وتثبيتهم له الصدق في وعده ووعيده ، والقيام له بما

---

(١) لم أقف عليه.

يوجب الحكم عن جميع عبيده ، والصبر منهم على ذلك ، وبذل النفوس فيما يرضاه سيدهم بنية صادقاة ، حتى يأتيهم اليقين.

فهم عند ذلك أمناء الله الذين استودعهم علمه واختصهم بهداية خلقه ، فهم يتناصحون به بينهم بحسن العشرة ، والدعاء إلى سبيل الله بالموعظة الحسنة ، والحجة البالغة ، وهم أهل المعرفة الذين وصفهم في كتابه فقال جل ثناؤه: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، وقال الحسن: « إلا أهل الجنة فإنهم لا يختلفون ولذلك خلقهـــم » [(١)].

فهؤلاء لا صفوة الله من خلقه ، وأهل الرسوخ في علمه ، فإذا كانوا كذلك جعلهم أئمة يقتدى بهم ، فَسَاسَهُم بصنعه ولطفه ، فبذلك فليقتد أهل العلـــم بالله ، والله الموفق. فهذه الأربع الخصال التي قد امتحن الله بها أهل المعرفة قد فسرناها ، والحجة في ذلك مِن مَنِّ الله وفضله علينا وعلى الناس ولكن أكثـــر الناس لا يشكرون.

فمن ذلك ما جاء عن الله في كتابه ، وعن الرسول عليه السلام في أخبـــاره ، وما مدح به الصابرين من أوليائه ، مع ما ذكر لهم من جزيل الثواب ، قال الله جل ثنـــاؤه: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝ ﴾ [البقـرة:١٧٧]، مدحهم بذلك، وقـــال في ذكر أيوب عليه السلام وما مدحه به من الصبر، فقال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ ﴾ [ص:٤٤] ، وقال: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ

(١) أخرج ابن المنذر قال: كان يقول الحسن: ((فريقا في الجنة ، وفريقا في السعير)). الدر المنثـــور ٤٩٢/٤.

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحسن أيضا في الآية ((الناس مختلفون علـــى أديان شتى ، إلا من رحم ربك غير مختلف)). الدر المنثور ٤٩١/٤.

إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، فهذا ما أعد الله لهم من جزيل الثواب

وقال تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل:١٢٦]، ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الرعد:٢٢]، ونحو هذا في القران كثير ، ما روى أنس بن مالك عن النبي عليه السلام قال: « جاءت الأنصار إلى النبي حين أصابتهم الحمى ، فقال لهم النبي عليه السلام: هذه الحمى جاءتني فبعثت بها إلى أحب الخلق إلي وهم الأنصار. فقالوا: يا رسول الله ادعُ الله أن يذهبها عنا. فقال لهم النبي: تحبون أن أدعو الله أن يذهب بها عنكم ، أو تصبروا وتكون لكم طهورا. قالوا: بل نصبر »[1].

وقال أبو سعيد الخدري: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه جاءه سائل يسأله ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: « من استعفف أعفه الله ، ومن

---

(١) ورد بلفظ: عن جابر قال: أتت الحمى النبي صلى الله عليه وسلم فاستأذنت عليه فقال: ((من أنت؟ قالت: أنا أم ملدم. فقال: أتهدين إلى أهل قباء. قالت: نعم. قال: فأتيهم ، فحموا ولقوا منها شدة ، فاشتكوا إليه فقالوا: يا رسول الله ما لقينا من الحمى. قال: إن شئتم دعوت الله فكشفها عنكم ، وإن شئتم كانت لكم طهورا)).

أخرجه الحاكم في مستدركه ١/ص ٤٩٧/ح ١٢٨٠ ، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات ١/ص١٩١/ح٢٤٥ ، وابن حبان في صحيحه ج٧/ص١٩٨/ح٢٩٣٥ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص٤٩٧/ح١٢٨٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٣٧٥/ح٦٣٤٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص٤٠٩/ح١٨٩٢.

استغنى أغناه الله ، ومن تصبَّر صبَّره الله ، وما أعطي أحد عطاء خير له من الصبر »[١].

وروي عن ابن عباس قال: « جاءت امرأة بها لَمَمٌ إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يذهب ما بي. فقال لها: أتصبرين ولك الجنة . فقالت: بل أصبر ، ثم قالت: يا رسول الله فادع الله ألا أنكشف فدعا لها »[٢].

---

(١) ورد بلفظ: عن أبي سعيد الخدري قال: أصابه مرة جهد شديد فقال لي بعض أهلي: لو سألت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: فانطلقت محنقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أول ما واجهني به قوله: إنه قال: ((من استعف أعفه الله ، ومن استغنى أغناه الله ، ومن سألنا لم ندخر عنه شيئا وجدناه. قال: فرجعت إلى نفسي أخير إليها ، ألا استعف فيعفني الله ، ألا استغني فيغنيني الله. قال: فما مشيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أسأله شيئا من فاقة حتى أقبلت علينا الدنيا فغرقتنا ، إلا ما عصم الله)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٣/ص٩/ح١١٠٧٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٢/ص٥٣/ح٢٣٧٦ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص ٤٥٥/ح ١٢٦٧ ، والدارقطني في سننه ج٢/ص١١٨/ح١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٢٤/ح١٢٩٨٩.

(٢) ورد بلفظ: عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة. قلت: بلى ، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إني أصرع وإني أنكشف فادع الله لي. فقال: ((إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. فقالت: أصبر. فقالت: إني أنكشف فادع الله أن لا أنكشف فدعا لها)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢١٤٠/ح٥٣٢٨ ، وأيضا في الأدب المفرد ١/ص١٧٨/ح٥٠٥ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص١٩٩٤/ح٢٥٧٦ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١١/ص ١٥٧/ح ١١٣٥٢ ، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات ١/ص١٨٥/ح٢٣٧ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٤٧/ح٣٢٤٠ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١١/ص١٥٧/ح١١٣٥٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٣٥٣/ح٧٤٩٠.

وقال أنس وغيره: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « قال الله تبارك وتعالى: من أذهبت كريمتيه فصبر واحتسب ، لم أرض له بثواب دون الجنة »[١].

وقال أبو موسى: عن النبي صلى الله عليه وآله: « إذا مات ولد العبد قال الله للملائكة: ما قال عبدي؟ وهو أعلم به!! قالوا: يا رب حمدك وشكرك فصبر واحتسب ، فيقول الله لهم: ابنوا له بيتا في الجنة وسمُّوه بيت الحمد »[٢].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « فاصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر »[٣]. والأخبار في هذا كثير ، والله نسأل العون على ذلك.

---

(١) ورد بلفظ: عن ابن عباس ، ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما من مسلم قبض يتيما بين مسلمين إلى طعامه وشرابه إلا دخل الجنة البتة ، إلا أن يعمل ذنبا لا يغفر له ، ومن أخذت كريمته فصبر واحتسب ، لم يكن له عندي ثواب إلا الجنة. قيل: وما كريمتيه؟ قال: عيناه. قال: ومن عال ثلاث بنات فأنفق عليهن ، وأحسن أدبهن ، أدخله الله الجنة. فقال رجل من الأعراب: أو اثنتين. قال: أو اثنتين)).

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ج١١/ص٢١٦/ح ١١٥٤٢ ، والترمذي في سننه ٤/ص٣٢١/ح١٩١٧ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٨٥١/ح٩٠٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج٤/ص٣٤٣/ح٢٤٥٧ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٠٩/ح٦١٥.

(٢) ورد بلفظ: عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا قبض الله عز وجل ابنا لعبد ، قال ملائكة ما قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع. قال: ابنوا له بيتا ، وسموه بيت الحمد)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٧/ص٢١٢/ح٢٩٤٨ ، والترمذي في سننه ج٣/ص٣٤٢/ح١٠٢١ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٤١٥/ح١٩٧٤٠ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٦٩/ح٥٠٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٤/ص٦٨/ح٦٩٣٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص١٩٥/ح٥٥١.

(٣) ورد بلفظ: ((ستكون بعدي فتنة الراقد ، فيها خير من اليقظان ، والمضطجع فيها خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي. ويهلك فيها كل

باب الشوق وهو أول شعب الصبر

والشوق على وجهين:

شوق طاعة الله.

وشوق إلى ثواب الله.

وشوق إلى التخبيت إلى الله بطاعته ، من طريق الحب لما أحب الله ، وأنه ليستحق أن يحبه العباد ويحبوا طاعته ، وإكراما وتبجيلا وتعظيما له ، وإيجاب ذلك على النفس ولو لم يكن الثواب ولا مخافة من العقاب ، لكان [أهلا لذلك] لما يستحق الموسر [١] لعظيم النعم التي لا تحصى ، وإن أعطاه الثواب أحب ذلك وعَبَدَه ، ولو لم يكن ذلك لكان أهلا للحمد والشكر والعبادة.

ومتى أحب العبدُ الله على الحقيقة أحبَّ ما أحب الله ما بقي أو فني ، أو غير ذلك من الشدة والرخاء ، لعمله بأن الخيرة فيما يختار من جميع ذلك ، فإن اختار له البقاء في الدنيا أحب ذلك ، وإن اختار له الفناء أحب ذلك.

وكذلك في ساير الأشياء بتقديمه وحسن نظره لعباده ، ويقينا بقوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ [القصص:٦٨]، وهو عند ذلك مسلّمٌ راض لكل ما اختاره الله ورضيه من شدة أو رخاء ، أو عافية أو بلاء ، فالمحب لله المؤثر لمحبته قائم لله على نفسه في سره وجهره ، لئلا يطلع الله منه على غير ما يحب أيام حياته ، فيكون كما روي في حديث ابن عمر وأبي هريرة عن حبريل عليه السلام سأل النبي صلى الله عليه وآله فقال: « يا

راكب موضع - أي المسرع فيها - وكل خطيب مصقع ، فإن أدركتها فألصق بطنك بالأرض ، حتى تستريح برا أو تستراح من فاجر)). أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٣١٠٨٧.

(١) في (أ) و(ب) و(ج): الموسر. ولم يتضح لي معناها.

رسول الله ما الإحسان؟ قال: تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تراه فإنه يراك. فقال: صدقت »[1].

ومن عَبَدَ الله كذلك كانت مراتبته لله وشدة حيائه منه وإجلاله لمقامه على قدر ذلك ، والمؤمنون يعبدون ربهم ويجلون مقامه حتى كأنهم يرونه ، لعلمهم

---

(١) ورد بلفظ: عن يحيى بن يعمر قال : أول من تكلم في القدر معبد الجهني ، قال: فخرجت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حتى أتينا المدينة فقلنا: لو لقينا رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألناه عما أحدث هؤلاء القوم. قال: فلقيناه – يعني عبد الله بن عمر – وهو خارج من المسجد ، قال: فاكتنفته أنا وصاحبي. قال: فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي. فقلت: يا أبا عبد الرحمن ، إن قوما يقرؤون القرآن ، ويتقفرون العلم ، ويزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريئ ، وأنهم مني براء ، والذي يحلف به عبد الله لو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهبا ما قبل ذلك منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره. قال: ثم أنشأ يحدث ، فقال قال عمر بن الخطاب: ((كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فألزق ركبته بركبته ، ثم قال: يا محمد ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره. قال: فما الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان. قال: فما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: في كل ذلك يقول له: صدقت. قال: فتعجبنا منه يسأله ويصدقه. قال: فمتى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فما أمارتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة أصحاب الشاء يتطاولون في البنيان. قال عمر: فلقيني النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بثلاث فقال: يا عمر هل تدري من السائل ، ذاك جبريل أتاكم يعلمكم معالم دينكم)).

أخرجه الترمذي في سننه ج ٥/ص ٦/ح ٢٦١٠ ، وابن حبان في صحيحه ج١/ص٣٩٢/ح١٦٨ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٨/ح٢٦١٠ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٢٤/ح٤٦٩٥ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٧/ح١٨٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٢٠٣/ح٢٠٦٦٠.

أنه لا يخفى عليه سرهم وجهرهم ، فهم مرعون[1] له قلوبهم عن خطرات الوسواس من عدوه وعدوهم ، فإذا رءاهم الله كذلك أمدهم بمعونته ، وأيدهم بنصره ، وسلمهم من حبائله ، وصيرهم إلى رحمته ، وبذلك وعدهم في كتابه ، فقال عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩ ﴾ [العنكبوت:٦٩] ، فوعدهم الهداية والرحمة ، والله منجز ما وعد.

فمن أحب لله وأحب طاعته أورثه ذلك الإشتياق إلى جنته ، وما أعد في دار كرامته ، وجدَّ به ذلك الإشتياق إلى ثواب الله ، والشوق إلى الله فهو الشوق إلى الجنة ، فمن عمل للشوق إلى الجنة أعطي الثواب الذي ذكر الله في كتابه ، فقال عز وجل: ﴿ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ ﴾ [يس:٥٥]، وقوله: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝٢٩ ﴾ [الواقعة:٢٧-٢٩].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث أبي هريرة: « أعد الله لأهل الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، اقرءاوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٧ ﴾ [السجدة:١٧] »[2].

---

(١) في المخطوطات: مرعون. ولم يظر لي معناها.

(٢) ورد بلفظ: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٦/ص ٢٧٢٣/ح ٧٠٥٩ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢١٧٤/ح٢٨٢٤ ، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص٩٢/ح٣٦٩ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٧١/ح٢٥٢٤ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤٤٨/ح٤٣٢٨ ، وأبو داود في سننه

وحديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « أعطيت الكوثر ، ماؤه أحلى من العسل ، وأشد بياضا من اللبن ، حصاه الدر والياقوت ، وترابه المسك الأذفر ، من شرب منه لم يضمأ أبدا »[١].

وحديث أنس وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين قال: « دخلت الجنة فرأيت فيها حورا يغنين ويَقُلْن: نحن الراضيات فلا نسخط ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الخالدات فلا نموت ، طوبى لمن كُنا له وكان لنا »[٢].

ج٢/ص٣٥/ح١٣٢١ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٥٧/ح٧٤٨٩ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص٢٧١/ح٢٩٧٥ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٣٢/ح٢٥٤٧ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٤٨٠/ح١١٣٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٦/ص١٢٢/ح٥٧٠٦ ، وأيضا في معجمه الصغير ج١/ص٥٣/ح٥١ ، وفي معجمه الأوسط ج ١/ص٧٢/ح٢٠٠ ، وأيضا في مسند الشاميين ج١/ص٩٣/ح١٣٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٣١٨/ح١١٠٨٥ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٤٤٨/ح٥١٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج١١/ص١٦٠/ح٦٢٧٦ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص١٧٠/ح٤٦٣ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص١٧٨/ح١١٤٤ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج١/ص٢٩/ح٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٣٣/ح٣٣٩٩٥ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٤٣٢/ح٢٨٢٨.

(١) ورد بلفظ: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الكوثر نهر في الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج)).

أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ص٢٤٠٥/ح٦٢٠٧ ، وابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٣٩٠/ح٦٤٧١ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٤٤٩/ح ٣٣٦١ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤٥٠/ح٤٣٣٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٦٧/ح٥٣٥٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٣٤٧/ح١٣٣٠٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٦/ص٣٠٦/ح٣١٦٦٢.

(٢) ورد بلفظ: عن علي قال: قال رسول الله: ((إن في الجنة سوقا ما فيه بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ، فإذا اشتهى الرجل صورة دخلها. قال: وفيها مجمع للحور العين ، قال: يرفعن

وقول الله عز وجـــل: ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف:٧١]، وما ذكر الله من صفة أهل الجنة ، وما أعـــد لأوليائه من جزيل الثواب أكثر من أن نأتي عليه ، وهذا معنى قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: « من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات » ، أي: مـــن عرف قدر ما وعده الله وقدر ما يجب لله عليه ، لم يقطعه إيثار شهوته ، ولا ميل إلى محبوب من الأشياء ، لعلمه بتفاوت [1] ما بين الأمرين من التفاضل ، وأنه لا عوض مما أعد الله لأوليائه ، ولا حظر لما ندب الله له إليه أحباءه.

فمن عَبَدَ الله رغبة في ثواب الله أعطاه الله ما أمَّل وما ظن به ، وذلك مثـــل حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « قـــال الله تبـــارك وتعالى: إنما أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء » [2].

أصواتا لم تسمع الخلائق بمثلها. قال: يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبـــأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له)).

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص٦٨٧/ح٢٥٥٠ ، ٤/ص٦٩٦/ح٢٥٦٤ ، وابن حنبـــل في مســـنده ج١/ص١٥٦/ح١٣٤٢ ، وأبو يعلى في مســـنده ج١/ص ٣٣٨/ح ٤٢٩ ، وعبـــد الـــرزاق في مصنفه ج٧/ص٢٩/ح٣٣٩٦٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٦/ص١٨/ح٠.

(١) في المخطوطات: لتفاوت. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) أخرجـــه البخـــاري في صـــحيحه ٦/ص٢٧٢٥/ح٧٠٦٦ ، وابـــن حبـــان في صـــحيحه ج٢/ص٤٠٢/ح٦٣٣ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٣٩١/ح٩٠٦٥ ، والحاكم في مســـتدركه ج٤/ص٢٦٩/ح٧٦٠٣ ، والطبراني في معجمه الكـــبير ج١٩/ص٤١٧/ح١٠٠٥ ، وأيضـــا في معجمه الأوسط ج ٩/ص٨٢/ح٩١٩٠ ، وفي مسند الشاميين أيضـــا ج٢/ص٢٢٧/ح١٢٣٥ ، والنســـائي في ســـننه الكـــبرى ج٤/ص٤١٢/ح٧٧٣٠ ، والقضـــاعي في مســـند الشـــهاب ج٢/ص٣٢٢/ح١٤٤٨ ، وأبو يعلى في مســـنده ج٦/ص١٣/ح٣٢٣٢ ، الـــدارمي في ســـننه ج٢/ص٣٩٥/ح٢٧٣١.

باب الشفق

وهو الشعبة الثانية من الصبر ، والشفق على ثلاثة أوجه:

شفق من طريق خوف الفوت.

وشفق من طريق خوف العقوبة.

وشفق من طريق انحباط الأعمال ألا تكون أُديت على حد ما افترض.

والشفق الذي من طريق خوف الفوت هو الإشفاق الذي ينتظم الأعمال كلها ، وبه تصح الأعمال مبادرا لأجله بالمنافسة والمسارعة إلى طاعة ربه ، خوفا أن يفتر ساعة من عمره فيكون فيه مشتغلا بغير ما خلق له من طاعة ربه ، أو بما يوصله إلى طاعته ، مما [1] لا يمكن الطاعة إلا به ، من إصلاح من يكون فيه عون [2] له على معاده ، ووصلة إلى ربه.

والوجه الثاني من الشفق وهو أعلا درجة عند الله من الأول ، وهو أن يكون من العبد العمل فيخاف أن لا يقبل منه لتقصير كان فيه ، وإن قُبل خاف أن يأتي بعده بما يحبطه ، فهو لذلك خائف ومنه مشفق ، مراع لنفسه مراقب لخواطره ودواعي نفسه ، حافظ لله عزايمه ، إلا أن مع خوفه رجا لتفضل ربه ، وكذلك صفة المؤمن يخاف على نفسه لسالف جرمه ولخاتمة أمره ، وهو مثل قول أبي بكر: « ينبغي للمؤمن أن يكون كَذي قلبين يرغب بأحدهما ويرهب بالآخر »[3] ، وقال رواحة بن عبد الله: « الأنصار لووزن الخوف والرجا مني لأعتدرلا »[4].

---

(١) في المخطوطات: ما. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في المخطوطات: عونا. ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

فهذا الإشفاق الذي هو من طريق خوف الذنوب ، وذلك أن أهل المعرفة بالله عرفوا الله بالعظمة والقدرة وسوغ النعمة ، وأعظموا حقه ، وما يجب له على قدر ذلك ، إذ كان أهل الدنيا تحب لهم ذلك على قدر إقتارهم وقدر أياديهم عند أهل صنعائعهم ، فعبدوه على جهة التعظيم ، وعلموا أنه أمرهم ونهاهم وافترض عليهم ، وأنه لا يقبل منهم ولا يرضى إلا بكمال ما أمرهم به ، إلا ما تفضل به على من أناب منهم من معصيته ، وراجع إلى طاعته ، وعرفوا أنفسهم بالتقصير في كل ما أمر هم به وأوجبه ، ورجعوا عليها باللائمة ، وعلموا أنهم لم يُؤتوا في ذلك إلا من قِبَل أنفسهم الأمارة بالسوء ، وكادت عند ذلك تسيل أنفسهم إذا ذكروا تقصيرهم وإن كانوا تائبين منه ، شدة إعظام لله وحياء منه ، وأسفا على التفريط في طاعته ، وما ضيعوا من واجب حقه ، وإشفاقا ألا يكونوا [١] أتوا من التوبة كُنْهَ ما استحقه وما حدَّه لهم ، فإذا ذكروا نعمة الله عليهم ، وإعذاره إليهم وكثرة تواتر النعم لديهم ، كادت قلوبهم تذوب لكثرة الحجج عليهم ، فهم بين نعمة من الله سابغة ، وبين تقصير من أنفسهم ، فعرفوا أنفسهم بحقائق المعرفة فلم يُؤمِّنوها لخير مقدم ولا متأخر ، فكانت أنفسهم الأمارة بالسوء تستأهل عندهم الهتك والعقوبة لكثرة صدفها ونأيها عن المصير فيما خلقت له ، وقطعها لهم بذلك عن الله وعن زيادات كراماته وفوائده المعجِّلة لثواب أعمالهم ، ورأوا مع ذلك سبوع ستره عليهم عند كل تقصير كان منهم في كنه ما يجب من تأدية حق الله والتقرب إليه بمرضاته ، فخافوا أن يكونوا عند الله من أهل الاستدراج ، فهاج الخوف من قلوبهم وهو الإشفاق أن يكون عناؤهم وتعبهم باطلا ، إن لم يكن أدوا إليه من التوبة والندامة كنه ما يستحقه ، و لم يُعملوا أنفسهم بعد ذلك في التقرب إليه بالنوافل كما يحب ، وعلموا أنه إن لم يتفضل عليهم بقبوله إياهم

---

(١) في المخطوطات: ألا أن يكونوا. ولعل الصواب ما أثبت.

على تقصيرهم خسروا الدنيا والآخرة ، فسالت دموعهوعهم عند ذلك خوفا وحذرا من سخط خالقهم ، وأجهدوا له أنفسهم ، واستقلوا له استفراغ كل جهدهم طمعا في قبوله لهم ، فهم بين خوف ورجاء ، خوفا من أنفسهم وذنوبهم ، ورجاء لتفضل خالقهم.

فهذه صفة أهل الخوف والإشفاق والحذر مع دوام الطاعة ، ومن كان كذلك منهم لم يكد يفتر عن طاعة الله ، و لم يدخله العجب في عمله ، و لم يستكثر لله عناية اجتهاد ، والدليل على خوف الإشفاق على الأعمال أنه حق واجب ، وأنه أعلى الخوف درجة ، قول الله تبارك وتعالى حين ذكر أهل الجنة فقال: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور:٢٥-٢٧] ، أي: من الذنوب تاركين لها ، مجدين بالأعمال الصالحات ، مشفقين ألا يقبل منا ، فمنَّ الله علينا فنعم أجر العاملين ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، وقوله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الإنسان:٧]، وقوله كذلك: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون:٦٠] ، قال الحسن: يعملون ما عملوا من أعمال وجوه ، البر وهم يخافون أن لن ينجيهم ذلك من عذاب الله.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لجبريل عليه السلام: « إني أخاف ، قال له جبريل: وأنا أخاف »[١] ، وقول أبي بكر: « بين يدي عقبة كؤود ، فإن أنا قطعتها لم يضرك ما قلت »[٢] ، وقول عمر لحذيفة: « أنشدك

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

بالله أنا من المنافقين الذين عدَّ لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! فقال حذيفه: اللهم لا ، و لم يبرئ أحدا منها بعدي »[١] ، وقول عمر لابنه حـــين طعن بضع خدي: « لا أم لك ، الويل لي والويل لأمي إن لم يرحمني ربي »[٢]

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد بلفظ: عن ابن عمر قال : لما طعن أبو لؤلؤة عمر طعنه طعنتين فظن عمر أن له ذنبا في الناس لا يعلمه فدعا بن عباس وكان يحبه ويدنيه ويستمع منه فقال له أحب أن نعلم عن ملأ من النـــاس كان هذا فخرج بن عباس فجعل لا يمر بملأ من الناس إلا وهم يبكون فرجع إليه فقال يــا أمــير المؤمنين ما أتيت على ملأ من المسلمين إلا وهم يبكون كأنما فقدوا اليوم أبكار أولادهم فقال من قتلني قال أبو لؤلؤة المجوسي عبد المغيرة بن شعبة قال بن عباس فرأيت البشر في وجهه فقال الحمد لله الذي لم يبتلني بقول أحد يحاجني بقول لا إله إلا الله أما إني كنت قد نهيتكم أن تجلبوا إلينا من العلوج أحدا فعصيتموني ثم قال ادعوا لي إخواني قالوا ومن قال عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص فأرسل إليهم ثم وضع رأسه في حجري فلما جاءوا قلـــت هؤلاء قد حضروا فقال نعم نظرت في أمر المسلمين فوجدتكم أيها الستة رؤوس الناس وقـــادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ما استقمتم يستقيم أمر الناس وإن يكن اختلاف يكن فيكم فلمـــا سمعت ذكر الاختلاف والشقاق ظننت أنه كائن لأنه قل ما قال شيئا إلا رأيتـــه ثم نـــزف الـــدم فهمسوا بينهم حتى خشيت أن يبايعوا رجلا منهم فقلت إن أمير المؤمنين حي بعـــد ولا يكـــون خليفتان ينظر أحدهما إلى الأخر فقال احملوني فحملناه فقال تشاوروا ثلاثا ويصلي بالناس صهيب قال من نشاور يا أمير المؤمنين فقال شاوروا المهاجرين والأنصار وسراة من هنا من الأجناد ثم دعا بشربة من لبن فشرب فخرج بياض اللبن من الجرحين فعرف أنه الموت فقال الآن لو أن لي الدنيا كلها لافتديت بها من هول المطلع وما ذاك والحمد لله إن أكون رأيت إلا خيرا فقال بن عباس وأن قلت ذلك فجزاك الله خيرا أليس قد دعا رسول الله أن يعز الله بك الدين والمســـلمين إذ يخـــافون بمكة فلما أسلمت كان إسلامك عزا وظهر بك الإسلام ورسول الله وأصـــحابه وهـــاجرت إلى المدينة فكانت هجرتك فتحا ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول الله من قتال المشركين من يـــوم كذا ويوم كذا ثم قبض رسول الله وهو عنك راض فوازرت الخليفة بعده على منهاج رســـول الله فضربت من أدبر بمن أقبل حتى دخل الناس في الإسلام طوعا أو كرها ثم قبض الخليفة وهو عنك

، وقال عمر: « ليتني كنت كبشا لأهلي وذبحوني وتمشمشوا عظامي »[١] ، وقال: « ليتني كنت تبنة في لبنة »[٢].

وقد أخبر الله فقال لنبيه عليه السلام: إنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وكان أعظم الخلق خوفا لله وإجلالا لمقامه ، وأدوبهم في طاعة الله ، وكذلك كان الفضلاء من أصحابه ، وكذلك صفة الأبرار بعدهم ، لأنه كلما كثرت معرفة العبد بربه كان أشد له تعظيما ، ولمقامه إجلالا ، وعلى أعماله أشد خوفا ، ومن الدنيا أشد إجتنابا ، لأن العلم قائد العمل والخوف سائقه ، وإنما هذا الخوف رأس الخشية وهو العلم بالله ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا

راض ثم وليت بخير ما ولي الناس مصر الله بك الأنصار وجبى بك الأموال ونفى بك العدو وأدخل الله بك على كل أهل بيت من توسعهم في دينهم وتوسعهم في أرزاقهم ثم ختم لك بالشهادة فهنيئا لك فقال والله إن المغرور من تغررونه ثم قال أتشهد لي يا عبد الله عند الله يوم القيامة فقال نعم فقال اللهم لك الحمد ألصق خدي بالأرض يا عبد الله بن عمر فوضعته من فخذي على ساقي فقال الصق خدي بالأرض فترك لحيته وخده حتى وقع بالأرض فقال ويلك وويل أمك يا عمر إن لم يغفر الله لك ثم قبض فلما قبض أرسلوا إلى عبد الله بن عمر فقال لا آتيكم إن لم تفعلوا ما آمركم به من مشاورة المهاجرين والأنصار وسراة من ههنا من الأجناد قال الحسن وذكر له فعل عمر عند موته وخشيته من ربه فقال هكذا المؤمن جمع إحسانا وشفقة والمنافق جمع إساءة وغرة والله ما وجدت فيما مضى ولا فيما بقي عبدا ازداد إحسانا إلا ازداد مخافة وشفقة منه ولا وجدت فيما مضى ولا فيما بقي عبدا إزداد إساءة إلا ازداد غرة)).

أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط ج١/ص ١٨١/ح ٥٧٩ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج١/ص١٠٩/ح٩٣.

(١) لم أقف عليه.

(٢) عن عامر بن ربيعة قال: رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنة من الأرض فقال: ((يا ليتني كنت هذه التبنة ، ليتني لم أخلق ، ليتني لم أك شيئا ، ليت أمي لم تلدني ، ليتني كنت نسيا منسيا)). أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال ج٠/ص٠/ح٣٥٩١٤.

يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨] ، وقال ابن مسعود: « رأس الخشية خشية الله »[1] ، وقال مسروق: « كفى المرء العلم أن يخشى الله »[2] ، وإنما العلم هو العلم بالله ، والعلم بالله هو رأس العلم ، وهو خشية الله ومراقبته ، والإجلال لمقامه ، وشدة الحياء منه ، ولذلك قال الله:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨].

والوجه الثالث من الخوف: هو خوف النار وما أوعد الله به أهل المعصية والمتعدين لحدوده ، لقوله: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة:٨١] ، والنجاة لمن أحاط به هذا الوعيد الشديد المسارعة إلى التوبة على من ندب الله إليه وحدَّه من قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء:١٧]، ثم قال: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ [النساء:١٨] ، فأخبر سبحانه أنه لا يقبل توبة عند الموت لكافر ، ولا لفاجر من أهل الصلاة ، فإذا لم يقبل التوبة التي بها يكون الغفران ، فقد حق وعيد الله عليهم ، وكذلك قال النبي صلى الله عيه وآله وسلم: « التوبة

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد بلفظ: عن مسروق قال: ((بحسب الرجل من العلم أن يخشى الله عز وجل ، وبحسب الرجل من الجهل أن يعجب بعلمه)).

أخرجه أبو خيثمة في العلم ج١/ص ٩/ح ١٥ ، وعبد بن حميد في مسنده ١/ص٤٢٧/ح١٤٦٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص١٠٣/ح٣٤٥١٨.

للعبد مبسوطة ما لم تغرغر نفسه »[1] ، وقال الله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [آل عمران:١٣٥ - ١٣٦] ، فأوجب تعالى المغفرة على شريطة ترك الإصرار وتعجيل الإنابة ، فهذا معنى قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: « من أشفق من النار رجع عن المحرمات ».

باب الزهادة

وهي الشعبة الثالثة من الصبر ، والزهادة أن يكون العبد متهاونا بالدنيا بقلبه ، ويقنع بما أعطاه الله منها من غير حرص ولا طمع ، ولا استشراف إلى ما تطلّع إليه الأنعش.

وأول باب الزهد في الدنيا القناعة ، فإذا دخل العبد في القناعة دخل درجة الزهد ، وذلك أن القانع لا يريد أكثر مما أعطي لرضاه عمن أعطاه ، ولعلمه بأن ما أعطاه هو الخير له دون ما سواه ، فهو غير متمن للزيادة ، وهو صارف

---

(١) عن عبد الرحمن بن البيلماني قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم فقال الثاني آنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم فقال الثالث آنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضحوة قال الرابع آنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه)). ورد بلفظ: أخرجه أحمد في المسند ج٣/ص٤٢٥/ح١٥٥٣٨.

[1] للقلب عن الدنيا وما فيها ، فبغض لأهل الطلب لها لا يريدها ، ولا يحبها إذ[2] لم يحبها مولاه له ولا خلقه لها ، وإنما يحب غيرها التي خلق لها ، فهو لا يأكل الأطعمة للذتها ، ولا يلبس إلا الفضل من زينتها ، ولا يريد إلا الكفاف منها والبلغة إلى الآخرة ، فإن تطلعت نفسه إلى غير ذلك عده نقصا ، ورجع عليها باللوم والتوبيخ لها ، وقد اتخذها وأقامها عند نفسه كالدواء للمـــريض الذي إذا أخذ منه فوق قدر حاجته قتله ، فقد أنزل الدنيا بمترلة السم الذي إذا أكله من لم يعرفه قتله ، فهو لا يأخذ منه إلا ما يقيم رمقه ويـــدفع عاديـــة مرضية ، ولو برئ المريض بغير دواء لكان أحب إليه ، كما قال أبو الـــدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى »[3] ، وكذلك القانع إن اكتفى بقليل الغداء كان أحب إليه ، كما روى عن النبي أبو الدرداء الحديث ، فجعل النبي صلى الله عليه وآله الكفاية مع القلة والزهد في الدنيا كله هو التهاون بها ، وعزوف النفس عن تمكينها[4] ، فإذا وصـــل العبد إلى التهاون بالدنيا أورثه ذلك الدرجة العليا والمترلة الكـــبرى ، وهـــو

---

(١) في المخطوطات: عاف. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في المخطوط: إذا. ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) ورد بلفظ: عن أبي الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما طلعت شمـــس قـــط إلا بجنبتيها ملكان يناديان ، يسمعان من على الأرض غير الثقلين: أيها الناس هلموا إلى ربكم ، ما قل وكفى ، خير مما كثر وألهى ، ولا غربت إلا بجنبتيها ملكان يناديان: اللهم أعط منفقـــا خلفـــا ، وأعط ممسكا تلفا)).

أخرجـــه ابـــن حبـــان في صـــحيحه ج ٨/ص ١٢١/ح ٣٣٢٩ ، وابـــن حنبـــل في مســـنده ج٥/ص١٩٧/ح٢١٧٦٩ ، والحاكم في مســـتدركه ج٢/ص٤٨٣/ح٣٦٦٢ ، والطيالســـي في مسنده ج١/ص١٣٢/ح٩٧٩ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٢٥/ح٨١٠ ، وعبد بـــن حميد في مسنده ج١/ص١٠٠/ح٢٠٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٣/ص١٨٩/ح٢٨٩١.

(٤) في (ج): النفس وتمكينها.

موافقة الله سبحانه في محبته ، لقوله: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى:١٦-١٧] ، ولقوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم:٧٦]، ، فآثروا حب ما أحب الله من الآخرة ، وتهاونوا بما هان على الله وهي الدنيا ، فأنزلوها من قلوبهم حيث أنزلها الله لبغض الله لها ، وتهاونوا بطلبها لهوان من آثرها.

والذي زهد له الزاهدون أربع خصال:

فمنهم: [من] زهد لخلة.

ومنهم: من زهد لخلتين.

ومنهم: من زهد لثلاث.

ومنهم: من زهد لأربع خلال.

فأعلاها عند الله موافقة الله عند محبته وهو التهاون بالدنيا وأهلها ، والترك لما في أيديهم إذ هان ذلك كله على الله ولم يرضه لأوليائه وأحبائه ، فمن ذلك قوله في قصة يوسف عليه السلام: : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف:٢٠]، قال بعضهم: « لم يعرفوا كرامته على الله فهان عليهم »[١] ، فسمى الله التهاون: زهدا.

وقال في قصة قارون: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص:٧٩-٨٠]، فجعل الله أهل العلم هاهنا

---

(١) أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الضحاك ، في قوله تعالى: ﴿ وكان فيهم الزاهدين ﴾ ، قال: ((إخوته زهدوا فيه ، لم يعلموا بنبوته ، ولا بمنزلته من الله ومكانه)). الدر المنثور ٥١٧/٤.

أهل الزهد والتهاون بالدنيا، ثم قال بشارة لهم ولمن سلك سبيلهم: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣].

وروى ابن حزام عن سهل بن سعيد الساعدي « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بشاة ميتة قد نتنت ، فقال النبي لأصحابه: لما ألقى هذه الشاه أهلها من كرامتها؟ قالوا: يا رسول الله إنما ألقوها من هوانها عليهم. قال: فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: والله للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها »[1].

وروى أيضا سهل بن سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « لو عدلت الدنيا عند الله عدل بعوضة ما سقى كافرا منها قطرة ماء أبدا »[2].

(١) ورد بلفظ: عن أبي هريرة ((أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بسخلة جرباء قد أخرجها أهلها ، قال: ترون هذه هينة على أهلها. قالوا: نعم. قال: والله للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها)).

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص٥٦١/ح٢٣٢١ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٧٧/ح٤١١٠ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٣٣٨/ح٨٤٤٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٠/ص٣٠٤/ح٧٢٣ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٩٧/ح٢٧٣٧.

(٢) ورد بلفظ: عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافرا منها شربة ماء)).

أخرجه الترمذي في سننه ج ٤/ص ٥٦٠/ح ٢٣٢٠ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٣٤٢/ح٧٨٤٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٦/ص١٥٨/ح٥٨٤٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٣١٧/ح١٤٣٩.

باب الخلة الثانية

والخلة الثانية لما رفع الله من قدر الزاهدين ، وجعل لهم الوسيلة والمنزلة عنده ، فمن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝ ﴾ [الواقعة:١٠-١٤]، قال الحسن: « أما السابقون فهم أصحاب محمد صلى الله عليه قد مضوا فهيئا لهم ، ولكن جعلنا الله وإياكم من أصحاب اليمين »[(١)].

وقال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ۝ ﴾ [الأحزاب:٢٣]، وقال: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ... ﴾ [الحشر:٨] الآية. فاختار لهم الفقر والهجرة والإخراج من ديارهم وأموالهم ، كل ذلك يمتحنهم به لما جعل لهم عنده من الفوز والوسيلة.

وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « جاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله أرسل إليك ملكا ما نزل إلى الأرض منذ خلقه الله ، أرسله إليك ، قال: فأتاني الملك فقال: يا محمد إن الله أرسلني إليك ، فقال لك: يا محمد يجعلك ربك ملكا أم عبدا رسولا؟ فقال لي جبريل: بيده هكذا نحو الأرض تواضع لربك يا محمد ، وعلمت أنه ناصح ، فقلت: بل عبدا رسولا »[(٢)].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد بلفظ: عن محمد بن عبد الله بن عباس قال: كان ابن عباس يحدث ((أن الله تبارك وتعالى أرسل إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ملكا من الملائكة ومعه جبريل ، فقال الملك: إن الله يخيرك بين أن تكون عبدا نبيا ، وبين أن تكون ملكا. فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل

وروى أبو موهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « كنت مع النبي في بقيع الغرقد فقال لي: يا موهبة علمت أن الله خيَّرني بين أن يعطيني مفــاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها إلى يوم القيامة من غير أن ينقصني ما عند الله ، أو لقاء ربي والجنة ، فقلت: يا رسول الله ، لو اخترت المقام في الدنيا مع أمتــك والخلد فيها من غير أمارني والجنة فيها من غير أن ينتقص لك مما عنــد الله ، فقبض [1] يده من يدي ، ثم قال: كلا إني اخترت لقاء ربي والجنة »[2]. فبدأه مرضه الذي مات فيه صلى الله عليه وآله.

كالمستشير ، فأشار جبريل بيده أن تواضع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أكون عبدا نبيا. قال: فما أكل بعد تلك الكلمة طعاما متكئا)).

أخرجه الطــبراني في معجمــه الكــبير ١٢/ص٣٤٨/ح١٣٣٠٩ ، والنســائي في ســننه الكــبرى ج٤/ص١٧١/ح٦٧٤٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٤٨/ح١٣٠٩٩ ، وأبــو يعلــى في مسنده ج٨/ص٣١٩/ح٤٩٢٠.

(١) في (أ) و(ب): غير تنقص لك مما عند الله شيئا فنفض.

(٢) ورد بلفظ: عن أبي مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي على أهل البقيع فصلى عليهم في ليلته ثلاث مرات ، فلما كانت الثالثة قــال يا أبا مويهبة: أسرج لي دابتي فأسرجت ، فركب فسار إلى أهل البقيع ، ثم نزل فأمسكت دابتــه فوقف عليهم فقال: ليهنكم ما أنتم فيه مما في الناس ، أتت فتن كقطع الليل المظلم يركب بعضها بعضا ، الأخرى أشد من الأولى ، فليهنكم ما أنتم فيه ، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وســلم فقال: يا أبا مويهبة إني أعطيت - أو قال: - خيرت مفاتيح ما يفتح الله على أمتي مــن بعــدي والجنة أو لقاء ربي. قلت: بأبي وأمي يا رسول الله اخترنا ، قال: اخترت لقاء ربي ، فما مكــث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سبع أو ثمان حتى قبض صلى الله عليه وسلم)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٣/ص٤٨٩/ح١٦٠٣٩ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٥٨/ح٤٣٨٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٢/ص٣٤٧/ح٨٧١ ، وابن عمرو الشيباني في الآحــاد والمثــاني ج١/ص٣٤٥/ح٤٦٧ ، والدارمي في سننه ج١/ص٥١/ح٧٨.

وقال قتادة الأسدي: عن النبي صلى الله عليه وآله حين بعثه إلى رجل يمنحه ناقة ، فقال النبي صلى الله عليه وآله: « اللهم من أحبني وأطاع أمري فأَقِلَّ ماله وولده ، ومن أبغضني وعصى أمري فأكثِر ماله وولده »[1].

وروى أبو ذر وسهل بن سعيد الساعدي أن النبي صلى الله عليه وآله: « مر به رجل من أشراف الناس فقال: ما رأيك في هذا؟ فقال أبو ذر: قلت: يا رسول الله هذا أحرى إن قال أن ينصت[2] لمقالته ، وإن خطب النساء أن ينكح ، وإن شفع ، فقال لي: طأط أسك ، وانظر هل ترى أحدا ، فنظرت فإذا رجل من فقراء المسلمين ، فقلت: يا رسول الله ، هذا رجل فقير ، فقال: ما رأيك في هذا؟ قلت: يا رسول الله هذا أحرى إن قال لا يسمع من قوله ، وإن خطب النساء ألا يزوج ، وإن شفع ألا يشفع. فقال النبي صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده لهذا خير من ملء الأرض ذهبا ومثل هذا »[3].

---

(١) ورد بلفظ: عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اللهم من آمن بي وصدقني وشهد أن ما جئت به هو الحق ، فأقل ماله وولده وعجل قبضه إليك ، ومن لم يؤمن بي ويصدقني ويعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك ، فأكثر ماله وولده وأطل عمره)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ص١٣٨٥/ح٤١٣٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص٣١/ح٥٦ ، وأيضا في مسند الشاميين ج٢/ص٣١٣/ح١٤٠٦ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٣/ص٢٤٧/ح١٦٠٧.

(٢) في (ج): إن قال يغضب.

(٣) ورد بلفظ: عن سهل بن سعد قال: مر بالنبي صلى الله عليه وسلم رجل فنظر إليه ثم قال: ((ما رأيك في هذا؟ فقلت: هذا رجل من أشراف الناس ، هذا حري إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يسمع لقوله ، ثم مر رجل فقال: ما رأيك في هذا؟ قلت: هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حري إن قال لا يسمع لقوله ، وإن خطب أن لا ينكح ، وإن شفع أن لا يشفع. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لهذا خير من ملء الأرض مثل هذا)).

والأخبار في هذا تكثر ، فالنبي عليه السلام وأصحابه الذين اختار الله لهم الزهد والقلة أرفع الخلق درجة عند الله ، وأقربهم منه درجة ووسيلة ، وكذلك كل من تشبَّه بهم وسلك طريقهم ، واختار ما اختار الله لهم.

باب الخلة الثالثة

مخافة الحساب والحبس في المقام

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وقال عز وجل: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف:٤٩]، وقال تعالى: ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ﴾ [التكاثر:٨].

وقال النبي صلى الله عليه وآله: « يدخل فقراء المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بأربعين عاما »[1].

وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه: « نفر يدخلون الجنة من أمتي سبعون ألفا لا حساب عليهم ، وجوههم مثل القمر ليلة البدر ، يمرون على الصراط

أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ص١٩٥٨/ح٤٨٠٣ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٨٠/ح٤١٢٠ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٦/ص١٦٩/ح٥٨٨٣.

(١) ورد بلفظ: عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((تدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٢/ص٤٥٢/ح٦٧٦ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٥٧٨/ح٢٣٥٣ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٨١/ح٤١٢٢ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٩٦/ح٧٩٣٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٣١٦/ح١٣٢٢٣ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٤١٢/ح١١٣٤٨ ، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص٣٧٤/ح٦٤٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج١٠/ص٤١٢/ح٦٠١٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٣٦/ح١١١٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٨٦/ح٣٤٣٩٢ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٣٤/ح٨٤.

مثل البرق ، والزمزة الثانية كأشد كوكب في السماء إضاءة ، ثم هم بعد ذلك منازل »[١].

وقالت عائشة: قال النبي عليه السلام في مرضه الذي مات منه: « ما فعلت الذهبة التي عندك؟ فقلت: يا رسول الله هذه هي ، قال: أخرجيها ، وكانت خمسة مثاقيل ، فقال: تصدقي بها ، قال النبي – صلى الله عليه وعلى آله – ما كان محمد لو لقي ربه وهذه عنده »[٢].

---

(١) ورد بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أول زمرة تدخل الجنة يوم القيامة صور وجوههم مثل صورة القمر ليلة البدر ، والزمرة الثانية على لون أحسن كوكب في السماء ، لكل رجل منهم زوجتان ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ سوقهن دون لحومهن ودمائهما وحللهما)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١١٨٦/ح٣٠٧٣ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢١٧٩/ح٢٨٣٤ ، وابن حبان في صحيحه ج١٦/ص٤٣٨/ح٧٤٢٠ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٧١/ح٢٥٢٢ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤٤٩/ح٤٣٣٣ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٤٧/ح٧٣٦٩ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٢٥٣/ح٥٠١٠ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٤٨٤/ح١١٤٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٩/ص١٧٥/ح٨٨٦٤ ، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص٩٢/ح١٣٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج١١/ص٣٢٤/ح٦٤٣٧ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٢٩٥/ح٢٠٠٥ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج١/ص٥١/ح٨٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٣٧/ح٣٤٠١٧ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٤٣٣/ح٢٨٣٢ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٢٨١/ح٩١٥.

(٢) ورد بلفظ: عن عائشة أنها قالت: اشتد وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده سبعة دنانير أو تسعة ، فقال: يا عائشة ما فعلت تلك الذهب. فقلت: هي عندي. قال: تصدقي بها. قالت: فشغلت به ، ثم قال: يا عائشة ما فعلت تلك الذهب. فقلت: هي عندي. فقال: ائتني بها. قالت: فجئت بها فوضعها في كفه ثم قال: ما ظن محمد أن لو لقي الله وهذه عنده ، ما ظن محمد أن لو لقي الله وهذه عنده)).

وقال أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « إنه ما يســـرني أن لي مثل أُحد ذهبا يأتي على ثلاث وعندي منه شيء ، إلا شيء أرصده لدين إن كان عليٍّ ، لأن الأكثرين هم الأخسرون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا عنه يمينه وشماله وبين يديه وخلفه »[1].

وقال مسروق: عن عائشة قالت: « قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ومـــا خلف بيضاء ولا صفراء ولا شاة ولا بعيرا ، ولا أوصى بشيء »[2].

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٢/ص٤٩٢/ح٧١٥ ، وابن حنبل في مسنده ج٦/ص٨٦/ح٢٤٦٠٤ ، والحميدي في مسنده ج١/ص١٣٦/ح٢٨٣.

(١) ورد بلفظ: عن عمرو بن مرة ، سمع سويد بن الحارث ، سمع أبا ذر يقول: قـــال لي رســـول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما يسرني أن لي أحدا ذهبا تأتي علي ثالثة وعندي منه دينار ، أو قـــال: منه مثقال ، إلا أن أرصده لغريم)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٢/ص٨٤٢/ح٢٢٥٩ ، ومسلم في صحيحه ج٢/ص٦٨٧/ح٩٩١ ، وابن حبان في صحيحه ج٨/ص١٠/ح٣٢١٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٣١٦/ح٨١٨٠ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٦٣/ح٤٦٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٧/ص٢٦٣/ح٧٠٧٤ ، وابـــن راهويـــه في مســـنده ج١/ص١٥٤/ح٩٣ ، والبيهقـــي في ســـننه الكـــبرى ج٥/ص٣٥٤/ح١٠٧٣٨ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج١/ص٥٠/ح٨٢.

(٢) ورد بلفظ: عن زر بن حبيش قال: سألت عائشة عن ميراث رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم فقالت: ((أعن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأل! ما ترك رسول الله صلى الله عليـــه وسلم صفراء ولا بيضاء ، ولا شاة ولا بعيرا ، ولا عبدا ولا أمة ، ولا ذهبا ولا فضة)).

أخرجـــه البخـــاري في صـــحيحه ج٣/ص١٠٥٤/ح٢٧١٨ ، ومســـلم في صـــحيحه ج٣/ص١٢٥٧/ح١٦٣٥ ، والنسائي في سننه ج٦/ص٢٢٩/ح٣٥٩٤ ، وابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٢٨٤/ح٦٣٦٨ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٤/ص١٢٠/ح٢٤٨٩ ، وابـــن ماجـــه في سننه ج٢/ص٩٠٠/ح٢٦٩٥ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص١١٢/ح٢٨٦٣،

وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٢٠/ح١٩٠٩ ، والحاكم في مســـتدركه ج١/ص٥٨٠/ح١٥٢٨ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢١٩/ح١٥٦٥ ، والحميدي في مســـنده ج١/ص١٣٢/ح٢٧١ ،

وقال أبو ذر: عن النبي صلى الله عليه وآله « في الإبل صدقتها ، وفي البقر صدقتها ، فمن رفع دينارا أو درهما لم يعده لغريم ولا ينفقه في سبيل الله ، فهو كير يكوى به في نار جهنم »[1].

وقال صلى الله عليه وآله في حديث أبي هريرة وأبي سعيد: « فقيل: يا محمد أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأول ، فهم شركاء الناس في أبواب الأجر »[2].

والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص٤٤/ح٩٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٩٢/ح٦٤٢١ ، والدارقطني في سننه ج٤/ص١٨٥/ح٢ ، وابن راهويه في مسنده ج٣/ص٧٨٩/ح١٤١٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص١٦٠/ح١١٦٧٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج٨/ص٣٦/ح٤٥٤٢ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٣٦٩/ح٢٥٣٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص١٦٣/ح٥١١.

(١) ورد بلفظ: عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أو حبيبي يقول في الإبل صدقتها من جمع دينارا أو درهما أو تبرا أو فضة ، ولا يعده لغريم ، ولا ينفقه في سبيل الله ، فهو كي يكوى به يوم القيامة)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ص١٧٩/ح٢١٥٩٧ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ص ٤٢٨/ح ١٠٧٠٠ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص٥٤٥/ح١٤٣١ ، والدارقطني في سننه ج٢/ص١٠٢/ح٢٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٤/ص١٤٧/ح٧٣٨٩.

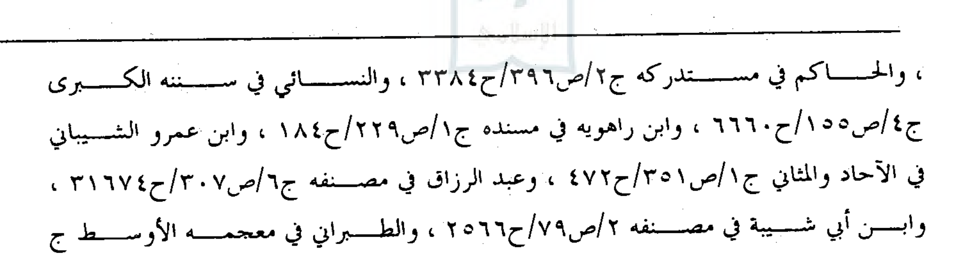
(٢) ورد بلفظ: عن أبي هريرة قال: ((أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع فأكله وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون لم ذاك يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس منهم ، فبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض: ألا ترون ما قد بلغكم؟! ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟! فيقول الناس بعضهم لبعض: عليكم بآدم ، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ، فيقول لهم آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه

قد نهاني عن الشجرة فعصيت نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نـــوح ، فيـــأتون نوحا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا. فيقول لهم نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كان لي دعوة دعوتها على قـــومي نفســـي نفسي نفسي ، أذهبوا إلى غيري أذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد كذبت ثلاث كذبات ، فذكرهن أبو حيان في الحديث نفسي نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى ، فيـــأتون موســـى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله ، فضلك الله برسالته وبكلامه على البشر ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولـــن يغضـــب بعده مثله ، وإني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبـــوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وكلمت الناس في المهد ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول عيسى: إن ربي قـــد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله ، و لم يذكر ذنبا نفسي نفسي نفســـي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ، قال: فيأتون محمدا فيقولون: يا محمد أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيـــه ، فانطلق فأتي تحت العرش فأخر ساجدا لربي ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ، ثم يقال: يا محمد أرفع رأسك سل تعطه ، وأشفع تشفع ، فأرفع راســـي فأقول: يا رب أمتي ، يا رب أمتي ، يا رب أمتي ، فيقول: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال: والذي نفسي بيده ما بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر ، وكما بـــين مكـــة وبصرى)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١٢١٦/ح٣١٦٢ ، ومسلم في صحيحه ج١/ص١٨٦/ح١٩٤ ، وابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٣٨٤/ح٦٤٦٥ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٢٧٧/ح١٨٣٧ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٠٩٩/ح٣٣٠٧ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٣٦/ح٩٦٢١

وروي عنه أنه قال: « لن تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ، شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين أكتسبه وفيما أنفقه ، وعلمه ماذا صنع فيه »[(١)].

وحساب كل أمرئ على قدر ما حمل من هذه الأربع ، والذين زهدوا في هذه الدنيا كانوا أهل كيس وفطنة ، خافوا شدة الحساب وطول الحبس في المقام ، والذين آثروا الدنيا وطلبوها هم أهل غبن واترار ، كما قال أبو الصياصلة بن أشعم: « طلبت هذا المال من مضان حلاله فأعياني ، إلا قوت يوم بيوم ، فقلت لنفسي: ارجعي فسكنت وكادت لا تفعل ، وأيم الله ما من عبد قدر



، والحاكم في مستدركه ج٢/ص٣٩٦/ح٣٣٨٤ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص١٥٥/ح٦٦٦٠ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٢٢٩/ح١٨٤ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج١/ص٣٥١/ح٤٧٢ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٦/ص٣٠٧/ح٣١٦٧٤ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ص٧٩/ح٢٥٦٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٩/ح١٠٥٨.

(١)عن معاذ قال: ((لا تزول قدم بن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ، عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وعن علمه ما عمل فيه)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٢/ص٢٩٩/ح٥٤١ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦١٢/ح٢٤١٦ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٠/ص٨/ح٩٧٧٢ ، والطبراني في معجمه الصغير ج٢/ص٥٠/ح٧٦٠ ، وأبو يعلى في مسنده ج٩/ص١٧٩/ح٥٢٧١ ، وأبو خيثمة في العلم ١/ص٢٣/ح٨٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص١٢٥/ح٣٤٦٩٤ ، والدارمي في سننه ج١/ص١٤٥/ح٥٣٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٩/ص١٥٥/ح٩٤٠٦.

الله رزقه قوت يوم بيوم ، فلم يعلم أن الله قد جاز له في ذلك إلا عاجز أو غبي الرأي » [١].

وقال: حدثني أصحابي عن النبي أنه قال: « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمس مائة عام » ، والذي نفس أبي الصهباء بيده ما يسرني أني تخلفت عن الزمرة الأولى طرفة عين وأن لي ما طلعت عليه الشمس.

وقال جعفر بن سليمان الضبعي: عن مالك بن دينار قال: « بلغني أنه يوقف رجلان يوم القيامة أحدهما غني ، والآخر فقير ، كانا متواخيين في الله ، فيؤمر بالفقير إلى الجنة ، ويوقف الغني للحساب ، ثم ثم قال: نحو بعد دهر طويل ، ثم يؤمر به إلى الجنة فيستقبله أخوه الفقير ، فإذا قدم عليه قال: يا أخي ما بطأ بك؟! قال: من أنت يرحمك الله؟ قال: وما تعرفني؟! قال: لا ، قال: أنا أخوك فلان الفقير. فقال: ما أشد ما غيّرتك نعمة ربي يأُخي ، لقد مر بي بعدك من شدة الحساب ما لو وردت على عَرَقِي مائة من الإبل أكملت خمصها لصدرت [٢] رواء من عرقي ، فهذا حين أقلتُّ من الحساب » ، والأخبار في هذا تكثر [٣].

والخلة الرابعة: فراغ القلب للفكرة والإكباب على الطاعة ، قال الله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور:٣٧

---

(١) ورد بلفظ: قال أبو الصهباء: ((طلبت المال من حلة فأعياني إلا رزق يوم بيوم ، فعلمت أنه قد خير لي ، وأيم الله ما من عبد أوتي رزق يوم بيوم فلم يظن أنه خير له ، إلا كان عاجزا أو غبي الرأي)). أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ج٧/ص٢١٩/ح٣٥٤٩٠.

(٢) في (أ) و(ب): وصدرت.

(٣) سقط من (أ) و(ب): في هذا تكثر.

- ٣٨]، وقال عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٤]، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان:٧٤]، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون:٦١]، وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:١٦]، وقال: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

وقال ابن عمر: عن النبي عليه السلام أنه قال: « من جعل الهم هما واحدا ، جعل الله غناه في قلبه ، ومن تشعبت عليه الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك » (١).

وقال زيد بن ثابت: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « من كان نيته الدنيا جعل الله فقره بين عينيه ، وعسَّر عليه حاجته من الدنيا ، وأتاه فيها ما قدر له فيها ، وحرم منها على أرغب ما يكون فيها ، ومن كانت نيته الآخرة جعل الله غناه في قلبه ، وكفاه حاجته من الدنيا ، وأتاه منها ما قدر له فيها ، وحرم منها على أزهد ما يكون فيها » (٢).

---

(١) ورد بلفظ: عن الأسود بن يزيد قال: قال عبد الله: سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: ((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد ، كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا ، لم يبال الله في أي أوديته هلك)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ص١٣٧٦/ح٤١٠٦ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص٤٨١/ح٣٦٥٨.

(٢) ورد بلفظ: عن عمر بن سليمان قال: سمعت عبد الرحمن بن أبان يحدث عن أبيه قال: خرج زيد بن ثابت من عند مروان نصف النهار قال: قلت: ما بعث إليه هذه الساعة إلا لشيء سأله عنه فسألته ، فقال: سألنا عن أشياء سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت رسول الله

وبلغنا أن رجلا مر على أصحاب النبي صلى الله عليه فقال لهم: « علموني مما علمكم الله ، فقالوا له: اعمل كذا افعل كذا ، وإلى قرب القوم معاذ بن جبل فقال: يا هذا لقد أكثر عليك القوم حتى أنساك آخر حديثهم أوله ، وإني أصف لك خليتن إن حفظتهما حفظت جميع ما قالوا لك ، وإن نسيتهما نسيت جميع ما قالوا لك ، وذلك أنك إن طلبت الدنيا فأتتك الآخرة ، وإن طلبت الآخرة أخذت من الدنيا ما قسم لك ، وأدرك خطك في الآخرة ، فيدونك والإختيار لنفسك ، واعلم أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والسلام. فقال الرجل: تالله ما رأيت كاليوم في الفضل »[1].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « أفضل الناس عند الله عبد ترك ما يحب وآثر ما يحب الله ، فأجهد نفسه في طاعة الله ، ولم يشغل نفسه

صلى الله عليه وسلم يقول: ((نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم الجماعة ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ، ومن كانت الدنيا نيته ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته ، جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١/ص٢٧١/ح٦٧ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٣٤/ح٢٦٥٦ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص٨٥/ح٢٣٠ ، والدارمي في سننه ج١/ص٨٧/ح٢٢٩ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٧/ص٢٠١/ح٧٢٧١.

(١) ورد بلفظ: عن محمد بن سيرين قال: أتى رجل معاذ بن جبل ومعه أصحابه يسلمون عليه ويودعونه فقال: ((إني موصيك بأمرين ، إن حفظتهما حفظت ، إنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، حتى تنتظمه لك انتظاما ، فتزول به معك أينما زلت)). أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج٢٠/ص٣٥/ح٤٩ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج٧/ص١٢٥/ح٣٤٦٩٥.

بشيء من الدنيا عن أمر الله ، وما ترك عبد شيئا من أمر الدنيا إلا عوضه الله خيرا منه » [١].

وقال عمر بن الخطاب: عن أبي الدرداء قال: « كنت في الجاهلية امرأ تاجرا فلما صار الإسلام داولت بين العبادة والتجارة ، فلم يجتمعا فاخترت الآخرة على الدنيا ، ثم ، فارضوا بالفاني منها » [٢].

وقال عمر: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « الأعمال بالنية وإنما لكل أمر ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله وإلى رسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » [٣].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) وردت الرواية عن أبي الدراء بلفظ: ((كنت تاجرا قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث زاولت التجارة والعبادة فلم يجتمعا ، فأخذت العبادة وتركت التجارة ، والذي نفس أبي الدرداء بيده ما أحب أن لي اليوم حانوتا على باب المسجد لا تخطئني فيه صلاة أربح فيه كل يوم أربعين دينارا أتصدق في سبيل الله. قيل له: لم يا أبا الدرداء ، وما تكره من ذلك؟ قال: شدة الحساب)). أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٨٥٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص٤/ح١ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٥١٦/ح١٩٠٧ ، والنسائي في سننه ج١/ص٦٠/ح٧٥ ، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص١١٥/ح٣٨٨ ، وابن خزيمة في صحيحه ج١/ص٧٤/ح١٤٢ ، والترمذي في سننه ج٤/ص١٨٠/ح١٦٤٧ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤١٣/ح٤٢٢٧ ، وأبو داود في سننه ج٢/ص٢٦٢/ح٢٢٠١ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٥/ح١٦٨ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٩/ح٣٧ ، والحميدي في مسنده ج١/ص١٧/ح٢٨ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٨٠/ح٧٨ ، والدارقطني في سننه ج١/ص٥١/ح١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٣٦/ح١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١/ص٤١/ح١٨١ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢٨/ح٦٤ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص١٨/ح٤٠.

وقال مالك بن دينار: قال لي عبد الله الرازي: يا مالك كان أهل العلم بـــالله والقبول عنه يقولون: « الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن ، والسبع يقسي القلب ويفتر البدن ، فأعونُ الأخلاق على الزهد في الدنيا قصر الأمل ومراقبة الأجل »[1].

فقد فسرنا الزهادة في الدنيا والأربع الخلال التي زهد الزاهدون من أجلـــها ، وهو معنى قول علي بن أبي طالب عليه السلام: « من زهد في الدنيا هانـــت عليه المصيبات » ، وكذلك هو وبالله نستعين.

باب الترقب

وهو الشعبة الرابعة من الصبر ، والمراقبة لله على وجهين:

مراقبة لله في السر والعلانية وهو رأس الخشية من الله ، فهو أعلـــى الجهـــتين وأشرفهما عند الله مترلة.

ومراقبة الموت وهو الوجه الثاني الذي ذكره علي بن أبي طالب عليه الســـلام فقال: « من ترقب الموت سارع في الخيرات » ، وهو قصر الأمل ومراقبـــة الأجل.

باب المراقبة لله عز وجل

وهو الوجه الأول ، فمن راقب الله في السر والعلانية استوت سريرته وعلانيته ، ومن كان مراقبا لله بقلبه عند كل خطرة يحبها الله وعند كل خطرة يكرهها

---

(١) ورد بلفظ: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الزهد في الـــدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن ، والبطالة تقسي القلـــب)). أخرجـــه القضاعي في مســـند الشـــهاب ج١/ص١٨٨/ح٢٧٨ ، والمتقـــي الهنـــدي في كـــتر العمـــال ج٠/ص٠/ح٦٠٦١.

الله ، فإذا وصل العبد إلى مراقبة الله عند خطرات القلوب أورثه ذلك الحياء من الله ، وذلك أن خطرات القلوب على جهتين:

خطرة من الله منبهة تخطر القلب وهي الداعية إلى الطاعة.

والخطرة الثانية خطرة الوسوسة وهي إلقاء من الشيطان امتحان من الله وبلوى ، وأهل المراقبة لله في خطرات قلوبهم تستحي قلوبهم وأنفسهم من الله عند خطرة الطاعة أن يراهم الله غافلين عن قبول ما خطر بقلوبهم ، أو نقصوا عن اعتقاد ذلك ، إذا كان ذلك منًّا من الله منَّ به عليهم ، فأوصل ذلك إلى قلوبهم ، فهم يستحيون من الله أن يكون عرض عليهم شيئا يحبه لهم ووهبه إياهم فتأباه قلوبهم ، فيزول بذلك عنهم مراقبة ربهم في كل ما أحبه لهم وخصهم به من فوائده ، وأهدى إليهم من ألطاف كرامته ، فهم يقبلون ذلك بالمحبة له والرضا في أسرع من الطرف ، حياء من الله وحباً له وإعظاما لما أهداه إليهم ، وتعظيما لهديته وخوفا من المقت على ردها ، فهم ولهون إليها ، مراعون لأنفسهم في قبولها ، مع ما ذكر لهم هنا من جزيل الثواب عاجلا وآجلا ، كما قال ابن مسعود لمة من الملك ولمة ولمه من الشيطان ، فأصل المراقبة لا يتركون لمة الشيطان تنبت في قلوبهم ، يزيلونها بالخشية والإعظام لله تعالى وشده [1] ، الحياء منه ، فلا يكون منهم عند ذلك تعمد لمعصية ، وإنما تكون منهم على غير جهة العمد منهم ، ثم يتوبون من قريب كما وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف:٢٠١] ، فرجعوا إلى الله بالاستغفار وتقربوا إليه بالإقلاع ، شدة إعظام له وحياء منه ، وتذكُّر [من] العظيم أياديه ، وكثره منته وتواتر نعمه عاجلا وآجلا وقديما وحديثا.

---

(١) في (أ) و(ب): لله وسورة.

وقال الزبير بن العوام ، وأبو موسى الأشعري: « كان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله إذا فقدوا الوسواس من قلوبهم عدوها نقصا »[(١)] ، وقال أبو هريرة وغيره: عن النبي قال: « جاء قوم من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فشكوا ما يلقون من الوسواس ، فقالوا: يا رسول الله إنا لنجد في قلوبنا مـــا نتعاظم أن نتكلم به ، وأن لنا ما طلعت عليه الشمس. قال النبي صلى الله عليه وعلى آله: وقد وجدتموه؟! قالوا: نعم ، يا رسول الله. قال عليه الســلام: أبى عدو الله إلا الوسواس وذلك صرح الإيمان »[(٢)] ، يعني كراهيتهم لما ألقى الله إليهم ، فأهل المعرفة بالله إذا فقدوا الوسواس التي هي دليل الحرب والعـــداوة بينهم وبين عدوا الله ، خافوا أن يكون قد ظفر بهم ، وهم لا يأمنون عداوته لهم على كل حال ، أرأيتك ولو كان لك عدو ذاهل تراه وتشاهده وقد برز لك للحرب عداوة لك ، كيف كان يكون حالك عنده لو غفلــت عنـــه؟! فكيف يكون حالك مع عدو قد غاب عنك إذا غفلت عنه وهو غير غافـــل عنك عن إزالتك عن دينك.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد بلفظ: عن عمارة بن أبي حسن المازني ، عن عمه ، أن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة التي يجدها أحدهم ، لأن يسقط من عند الثريا أحب إليه من أن يتكلم بـــه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ذاك صريح الإيمان ، إن الشيطان يأتي العبد فيمـــا دون ذلك ، فإذا عصم منه وقع فيما هنالك)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١/ص٣٦٠/ح١٤٦ ، وأبو داود في ســـنته ج٤/ص٣٢٩/ح٥١١١ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٤٠/ح٣١٦١ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٥٢/ح٢٧٠٤ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج١٠/ص٣٣٨/ح١٠٨٣٨ ، والنســـائي في ســـننه الكـــبرى ج٦/ص١٧١/ح١٠٥٠٣ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٤٢٦/ح٤٨٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج٧/ص١٥٧/ح٤١٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٣٢/ح٧٠١.

فاتق الله واعلم أن الله لم يأمرك بعداوته إلا وقد نظر لك رحمة منه بك وشفقة عليك ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر:٦] ، وقال في ذم قوم تولوا : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف:٥٠] ، فذلك قول الزبير وأبي موسى: « كانوا إذا فقدوا الوسواس من قلوبهم عدوها نقصا ».

وقال عمار بن ياسر رحمة الله عليه في حديث أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وحديث بن غنيمة حين صلى بهم عمار صلاة الفجر فقرأ سورة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١] ، فقيل له: « يأبا اليقظان لقد خففت الصلوة!! فقال: بادرت الوسواس ، هل رأيتني نقصت من حدودها شيئا؟! سمعت رسول اله صلى الله عليه وعلى آله يقول: إن المصلي ليصلي الصلاة لا يرفع له فيها نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا سدسها ولا سبعها ولا ثمنها ولا تسعها ولا عشرها »[1] ، وكذلك على أجزاء. فكان القوم إذا صلى أحدهم الصلاة القصيرة بتمام ركوعها وسجودها وقيام القلب فيها كما روى

---

(١) ورد بلفظ: عن عمارة بن أبي حسن المازني ، عن عمه ، أن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة التي يجدها أحدهم ، لأن يسقط من عند الثريا أحب إليه من أن يتكلم به؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ذاك صريح الإيمان ، إن الشيطان يأتي العبد فيما دون ذلك ، فإذا عصم منه وقع فيما هنالك)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١/ص٣٦٠/ح١٤٦ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٣٢٩/ح٥١١١ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٤٠/ح٣١٦١ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٥٢/ح٢٧٠٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٠/ص٣٣٨/ح١٠٨٣٨ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص١٧١/ح١٠٥٠٣ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٤٢٦/ح٤٨٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج٧/ص١٥٧/ح٤١٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٣٢/ح٧٠١.

أبو هريرة وأنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « أنه كان أخف الناس صلاة في تمام »[١] ، وقال ابن عباس: « ركعتان بتفكر واعتبـــار واعتقاد خير من إحياء ليلة والقلب ساهي »[٢] ، وقال كعب بن أبي كعب: « صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسقط آية من القرءان فلما انفتل مـــن صلاته قال للقوم: هل أسقطت من صلاتي شيئا؟ فقالوا: لا ندري ، فقـــال: أفيكم علي بن أبي طالب؟ قالوا: نعم ، قال: يا علي هل أسقطت من القرءان شيئا. قال: نعم يا رسول الله ، آية كذا وكذا. فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا بحضور الذكر بأبدانهم وقلوبهم غائبة عنه ، إن الله لا يقبل صلاة عبد لا يُحضر فيها عقله مع بدنه »[٣].

(١) عن أنس بن مالك قال: ((كان النبي صلى الله عليه وسلم أخف الناس صلاة في إتمام)).
أخرجه مسلم في صحيحه ج١/ص٣٤٢/ح٤٦٩ ، والنسائي في ســـنه ج٢/ص٩٥/ح٨٢٤ ، وابـــن حبان في صحيحه ج٥/ص١٦٦/ح١٨٥٦ ، وابن خزيمة في صـــحيحه ج٣/ص٤٨/ح١٦٠٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص١٧٠/ح١٢٧٥٧ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص٣٣٧/ح٧٨٤ ، والطيالســـي في مســـنده ج١/ص٢٦٧/ح١٩٩٧ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج١/ص٢٥٢/ح٧٢٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٢١١/ح٦٠٩ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٣/ص٢٢/ح١٣٠٦ ، والبيهقي في سننه الكـــبرى ج٢/ص١٨٢/ح٢٨٢٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص٣١/ح١٤٤٢ ، وعبد الرزاق في مصـــنفه ج١/ص٤٠٥/ح٤٦٦٢ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ص٢٤٦/ح٣٢٣١ ، والدارمي في ســـنه ج١/ص٣٢٢/ح١٢٦٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص١٦/ح١٠٧٨.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ورد بلفظ: عن أبي كعب قال: ((صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة فقرأ سورة فأسقط منها آية ، فلما فرغ قلت: يا رسول الله آية كذا وكذا أنسخت. قـــال: لا ، قلـــت: فإنـــك لم تقرأها. قال: أفلا لقنتنيها)). أخرجه الدارقطني في سننه ج١/ص٤٠٠/ح٥.

قال عثمان بن عفان ، وعقبة بن عامر: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « من صلى ركعتين لا يحدث نفسه فيهما بشيء من أمر الدنيا ، خرج من ذنوبه كما ولدته أمه »[1] ، يعني به: الصغائر مع اجتنابه الكبائر ، والأخبار في هذا تكثر ، فرحم الله من وعى وانتفع.

فيجب على العاقل إذا قام للصلاة أن يعلم من يناجي إنما يناجي رب العزة ، فيجب عليه أن يجمع قلبه كأنه قائم على الصراط وعن يمينه الجنة وعن يساره النار وخلفه الموت وقدامه الموقف ، ويستيقن أنه مسئول عن جميع حركاته وسكونه ، وأن يعلم أن ربه قد أمره بذلك ، فيجب عليه أن يكون خاضعا ذليلا بين يديه ، محبة منه لرضاء الله وتعظيما له وهيبة لجلال عظمته ، فاعمل وانتفع بما سمعت ولا تغير ، أعاننا الله وإياك على طاعته.

باب ما يعرف به المؤمن والخاطر

والذي يعرف به المؤمن ويفصل به بين الخاطر من الله والخاطر من الشيطان ، أن ما كان من الله دعاء إلى الطاعة وتحرك عليها ، وما كان من الشيطان فصارف عن ذلك وداع إلى ترك الطاعة ، والتهاون بما يجب فيها ، فأهل المراقبة لله إذا أحسوا ذلك أزالوه بالخشية والخوف من الله ، وأمدهم الله بالمعونة وأجزل لهم من التأييد ، فسهل بذلك عليهم محاربة عدوهم ، وتضعيف كيده في قلوبهم ، ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٧٦]، و ﴿ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]، وأما أهل

وأخرجه أيضا المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٢٢٩٨٧ بلفظ: ((صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر فقرأ سورة فأسقط آية منها ، فلما انصرف قلت: يا رسول الله نسخت هذه الآية أو أنسيتها. قال: لا ، بل أنسيتها)).

(١) لم أقف عليه.

الغفلة فإذا خطر خاطر الطاعة بقلوبهم تغافلوا عن قبوله ، لأنهم آثروا عليه ما يضرهم عاجلا وآجلا ، فإذا جاء خاطر الشيطان استقبلوه بالقبول والموافقة والشهوة ، فهم أبدا أسرى في يدي عدوهم ، وفاقدون لعصمة عون خالقهم ، وهم كما قال الله: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٢]، فلله الحجة البالغة عليهم إذ بذل لهم كرامته ، وابتدأهم بها كما ابتدأ أوليائه القابلين عنه ، فاستقبلوها بالرد والكفران والتهاون ، فوجب في حكمه جل ثناؤه تغيير نعمه عليهم ، ولتخليته بينهم وبين عدوهم ، وهم مع ذلك قد مُكِّنوا من قبول ما ابتدأهم به من النعم المتواترة ، وابقائه عليهم ليتخلصوا من كيد عدوهم ، فإن فعلوا ذلك واستعانوا بنعمته على طاعته ، وقبول هدايته ، فأنابوا إليه وراجعوه ، فرحمهم و لم تتعاظمه كثرة ذنوبهم ، وبدل سيئاتهم حسنات ، لأنه تعالى ذو فضل عظيم ، تواب حكيم ، وإن أبوا إلا تماديا في غيهم ، واتباعا لأهوائهم ، منعهم زيادته وكرامته ، التي يعطيها العابدين العاقلين بقبولهم ، وأبقى لهم وعليهم ما يمكنهم بدونه الرجوع إلى طاعته ، فإن لم يفعلوا و لم يقبلوا الكرامة عاجلا وآجلا ، ووافوه مصرين على ذنوبهم ، عاقبهم بما كسبت أيديهم وما الله بظلام العبيد.

فوفق الله عبدا قَبِلَ نِعَم ربه ، واستقبلها بالقبول ، واستتمها بالمواظبة على شكرها ، و لم يزيلها عن نفسه سوى غبة بها ، فقد وصف الله أهل المراقبة له ووصف قلوبهم ، فقال: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٣٥]، فهذا مثلٌ ضرب به قلوب أهل المعرفة ، وهو مثل نور أهل العلم الذي قد عرَّفه الله قلوبهم وأينت به ، فيضيء

لذلك سائر بدنه ، فتظهر الطاعة والخشية لربه على سائر جوارحه ، فمثله كمثل السراج في البيت في مشكاة في زجاجة فمثله وهو القنديل المعلق بالسلسلة كما قال مجاهد: « المشكاة: حدايد القناديل التي تعلق بها »[(١)] ، وقال ابن عباس: « المشكاة: الكوة التي يوضع فيها القنديل بالخشبة »[(٢)] ، ومثل الدهن في صفائه الذي لا تقوم النار إلا به ، ولكثرته وجودته وصفائه ، ولا يبين لها ضوء إلا باجتماع ذلك ، مثل النية التي لا تصح جميع الأعمال إلا فيها ، ونورها عند الله على قدر شدة العزم وضعفه.

فهذا مثل ، نور الإرادة مثل نور المصباح ، ومثل نور الهمة مثل الزجاجة لصفائها ، ومثل نور النية وهو مدى العلم الذي يكون به الاعتقاد مثل نور الزيت ومدده في صفائه ، قال الله جل ثناؤه: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ، فهذا ذكر ثلاثة الأبواب[(٣)] التي ضربها الله لعباده في كتابه ، لقلوب المؤمنين في صفائها ، ثم جعل قلوب أعدائه والمعرضين عنه على خلاف ذلك ، فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور:٤٠] ، فهكذا صفه قلوب العاصين من عباده ، قد صارت في الظُّلَم لرين الذنوب على القلوب ، وتراكم القسوة عليها ، لاستسلامهم إلى قبول ما يلقي إليهم عدوهم ، وإيثارهم الانقطاع إليه بالقبول

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في (ج): أبواب.

عنه دون خالقهم ، فنسأل الله حسن معونته ، وأن يكفينا عداوته ، إنه منان كريم.

باب خطر الطاعة كيف عرفها الشيطان فعارضها

روي عن حذيفة أنه قال: « مثل القلب مثل الكف والأصابع ، إذا خطرت له خطرة الطاعة انفتحت إصبع ، وإذا خطرت له خطرة المعصية انقبضت إصبع »[١] ، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، فقد جعل الله للملك سببا إلى علم ذلك ، وأمره أن يكتب ما يُحدث فيه من الطاعة ، وجعل له عليه عَلَما يستدل عليه ، وخلى الشيطان وعلم ذلك ، ونهى أن ندعو إلى ضده ، بل أمر أن ندعو إلى مثله ، ومكّن من فعله ، لتكون الحجة لله إن أبوا خلاف ما أمر به ، ومكّنهم من فعله ، وكذلك سبيل العبد في تمكينه من القبول عن عدوه ، والرد عليه ما ألقاه إليه ، وإن آثر طاعة ربه هان عليه كيد عدوه ، وإنما فعل الله تعالى ما فعل من ذلك لتتم محبة خلقه ويستوجبوا ما أعد لهم من جزيل ثوابه ، لمخالفة عدوهم وإيثارهم لطاعة ربهم ، وكيف قال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات:٣٧-٤١]، إنما يكون بتحمل المشقة ومخالفة الهوى وترك اتباع الشهوة.

وكذلك روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « حفت الجنة بالمكاره - في حديث أبي هريرة - وحفت النار بالشهوات »[٢] ، والشيطان

(١) لم أقف عليه.

(٢) سبق تخريجه.

قد مُكِّن من معرفة ما يهوى العبد ، وإن قبل منه كان دعاؤه له على قدر ما يعرف من هواه ، وإن قبل عن ربه انصرف عنه وخلاه ، كما قال الله جل ذكره: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر:٤٢]، ولذلك نهى الله العبد عن اتباع الهوى، فقال لداود عليه السلام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص:١٧].

قال أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: « أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل »[(١)].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه ينسي الآخرة »[(٢)] ، نعوذ بالله من الشيطان واتباع الهوى إنه لطيف رحيم.

ثم رجع الكلام إلى المراقبة في السر والعلانية عند خطرات القلوب ، فعبدوا الله كأنهم يرونه بحقائق الإيمان واليقين ، بأنه يراهم ولا يخفى عليه سرهم وجهرهم وحركاتهم وسكونهم ، ولا تخفى عليه أمكنتهم حتى كأنهم يعاينون ثوابه وعقابه ، كما قال حارثة: « وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لفظ الرواية هكذا: عن علي قال: ((إن أخوف ما أتخوف عليكم اثنتين ، طول الأمل وأتباع الهوى ، فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما أتباع الهوى فيصد عن الحق ، ألا وأن الدنيا وقد ولت مدبرة والآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل)).

أخرجه ابن حنبل في فضائل الصحابة ١/ص ٥٣٠/ح ٨٨١ ، والطبراني في معجمه الكبير ٧/ص٢٨٨/ح٧١٥٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٢١٦/ح٥٥٩٨ ، والشافعي في مسنده ١/ص٦٧/ح٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص١٤٣/ح٣٤٨٣٣.

، وأهل النار في النار يتعاوون ، فقال له النبي عليه السلام: أصبتَ فـــالزم »(١).

وكما روي عن الحسن أنه قال: « إن لله عبادا هم في الجنة كمن قد دخلها ، فهم فيها متكئون ، وهم في النار كمن قد دخلها فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وحوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، نظـــروا فأبصروا ، وخاصموا فغلحوا ، تجارة يسرها لهم ربهم رب رحـــيم. فمنـــهم للخير أهل ، أرادهم الدنيا فلم يريدوها ، وطلبتهم فأعجزوها ، ونحن نريدها أجمعين ، قالوا: حلهم لنا يا أبا سعيد — يعنون: صفهم لنا — قال: أما الليـــل فقيام على أطراف أقدامهم ، مفترشوا جباههم ، وأما النهار فعلماء حلمـــاء أبرار أتقياء ، براهم الخوف حتى صاروا كالقداح ، حصُل الناظرون إلـــيهم فقالوا مرضى ، وما بالقوم من مرضى بل خُولطوا ، ولقد خالط القوم أمـــر عظيم أعداء لمن سالم الناس الدنيا ، وسلم لمن عادوا منها ، ثم قال: إن أقواما تقووا بنعم الله على معاصيه ، أعطاهم أموالا فقووا بها على غير طاعة ، وجعل

---

(١) ورد الحديث بلفظ: عن الحارث بن مالك الأنصاري ، أنه مر برسول الله صلى الله عليه وســـلم فقال له: كيف أصبحت يا حارث. قال: أصبحت مؤمنا حقا. فقال: أنظر ما تقول ، فإن لكـــل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا ، وأســـهرت لـــذلك ليلـــي ، واطمأن نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيهـــا ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: يا حارث عرفت فألزم ثلاثا)).
أخرجه الطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ٣/ص٢٦٧/ح٣٣٦٧ ، والقضـــاعي في مســـند الشـــهاب ج٢/ص١٢٧/ح١٠٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص١٦٥/ح٤٤٥ ، وعبـــد الـــرزاق في مصنفه ج٦/ص١٧٠/ح٣٠٤٢٣.

لهم سلطانا فقهروا به عباده ، فيا ويلهم غدا لو عاينوا الجزاء ، لكل ساع ما سعى »[١].

فلما عبده أهل المعرفة على درجة المراقبة ، وعلموا كيد عدوهم ، وعرفوا ما امتحنوا به منه ، وأنه غير غافل عنهم[٢] ، ولا تارك لدعائهم من كل وجه طمع فيه من قبلهم ، كان حذرهم ومراقبتهم على قدر علمهم وشدة إعظامهم لخالقهم ، ما ورثهم ذلك الحياء منه عند خطرات القلوب ، فصاروا لذلك أوفر الخلق عنده نصيبا ، وأخشعه في العمل لله قلوبا ، والدؤب في طاعته ، وذلك أنهم إذا ذكروا نظره إليهم ، وعلمه بخفياتهم إذ كانوا في طاعته ، إزدادوا خشعا ، وبالخلق تهاونا ، وعن تضييع أمره تباعدا ، ولم تأخذهم في الله لومة لائم ، في أنفسهم ولا في أموالهم ، وقاموا لله بواجب حقه عليهم ولهم ، بما يستحقه خالقهم من المحبة لما أحب ، والعمل به والدعاء إليه ، والسخط لما سخطه وتركه ، والنهي عنه وإن سخط الخلق منهم ذلك لم يؤثروا إلا رضا الله على رضا مَن سواه.

وكذلك قال لقمان لابنه: « يا بني إنك لن تنال ولاية الله إلا بعداوة كثير من الناس ، ولن تنال رضا الله إلا بسخط كثير من الناس ، وذلك كله قليل فيما تطلبه من الله »[٣].

---

(١) ورد بلفظ: عن الفرات بن سليمان ، أن الحسن بن أبي الحسن كان يقول: ((إن لله عبادا هم والجنة كمن رآها ، فهم فيها متكئون ، وهم والنار كمن رآها ، فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، أما الليل فصافة أقدامهم ، مفترشو جباههم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم ، وأما النهار فحلماء علماء ، أبرار أتقياء ، براهم الخوف فهم أمثال القداح ، ينظر الناظر فيقول: مرضى وما بهم من مرض ، ويقول: قد خولطوا أو قد خالط القوم أمر عظيم)). أخرجه في الهم والحزن ج١/ص٦٩/ح٩١.

(٢) في المخطوط: منهم. ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) لم أقف عليه.

وقال أبو ذر رحمة الله عليه: عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سأله عن أوثق عرى الإيمان قال له: « تحب في الله وتبغض في الله »[(١)].

فإذا وصل العبد إلى درجة الحياء من الله كان كما جاء الخبر: « إذا استوت سريرة عبدي وعلانيته فذلك عبدي حقا »[(٢)]. وقد أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بحقيقة الحياء من الله في حديث ابن مسعود.

أخبرنا أبو عمرو العبدي، قال: أخبرنا مروان بن أبي معاوية الفزاري، عن ابن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن قراة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما لأصحابه: « بينوا آجالكم دون آمالكم، واستحيوا من الله حق الحياء، قالوا: يا رسول الله إنا بحمد الله نستحيي من الله، قال: ليس ذلك حقيقة الحياء من الله، ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فإذا فعل العبد ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء »[(٣)].

---

(١) ورد بلفظ: عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: ((أي عرى الإيمان، أظنه قال: أوثق. قال: الله ورسوله أعلم. قال: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله)).

أخرجه الطيالسي في مسنده ج ١/ص٥٠/ح٣٧٨، والطبراني في معجمه الكبير ج١٠/ص١٧٢/ح١٠٣٥٧، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٣٧٤/ح٦٢٤، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٢٣٣/ح٢٠٨٥٨، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٤/ص٣٧٦/ح٤٤٧٩.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ورد بلفظ: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((استحوا من الله حق الحياء. قالوا: يا رسول الله إنا لنستحيي والحمد لله. قال: ليس ذلك، ولكن من استحيى من الله

وقال النعمان بن بشير: عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: « تدع زينة الحياة الدنيا ، وتؤثر ما يبقى على ما يفنى ، ثم قال: هنالك استحيا العبد من الله ، وهنالك أصاب العبد ولاية ربه »[(١)].

فقد فسر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن حقيقة الحياء من الله حفظ الرأس وما حوى ، يريد بذلك ما فيه من السمع والبصر واللسان والشم ، ألا يجعل ذلك كله إلا في موضعه وما خلق له. فلا يسمع إلا ما يعنيه ، ولا ينظر إلا بما يزينه عند الله ، ولا ينظر إلا معتبرا ، ولا يشم إلا مباحا ، وأراد بذلك البطن وما وعى ، يريد بذلك العقل ، وذلك أن العقل مسكنه القلب ، فلا يستعمل عقله إلا فيما يرجع عليه نفعه في معاده ، وقال: « والبطن وما وعى » ، يريد بذلك كلما أضمر عليه القلب من معرفة الله ، والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، ويريد بـ« البطن - أيضا - وما وعى » ، كلما أدخل جوفه لا يكون[(٢)] إلا حلالا طيبا ، ويريد بذلك الفرج لأنه من الجوف كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « أخوف ما أخاف عليكم شهوته ،

حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء)).

أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ج١/ص٣٩/ح٩٠ ، وأيضا في الورع ج ١/ص٦٢/ح٥٩ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٣٨/ح٢٤٥٨ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٨٧/ح٣٦٧١ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٣٥٩/ح٧٩١٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٣/ص٢١٩/ح٣١٩٢ ، وأيضا في معجمه الصغير ج١/ص٢٩٨/ح٤٩٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج٨/ص٤٦٢/ح٥٠٤٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٧٧/ح٣٤٣٢٠.

(١) مستدرك وسائل الشيعة ١٠١/٢.

(٢) في (أ) و(ب): لا يكن. مصحفة.

ما في بطونكم وفروجكم ، فمن حفظ ذلك - كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم - فقد استحيى من الله حق الحياء » [١].

وقد بيَّن لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف يستحيون مـــن الله حـــق الحياء.

وروى سعيد بن زيد الأسدي قال: « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أوصني. فقال: تستحيي من الله كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك » [٢] ، وذلك أن الرجل الصالح تستحيي منه لما ظهر لك منه أن يراك على المعصية ، أو يراك في درجة التقصير فيزدري عقلك ، وهو لا يعلم الباطن منك ، فلو علم الباطن كما يعلم الرب منك. والله عز وجل وإن كانت العيون لا تراه ولا يجوز ذلك في صفته ، فإن اتفاق القلوب به كاتفاق العيون بما أدركته من ذلك ، لعيظم برهانه وتواتر حجته ، وكثرة أدلته وسبوغ نعمته ، فأقل ما يجب على أهل المعرفة بـــالله جـــل ثنـــاؤه أن يستحيوا من الله كما يُستحيى من الرجل الصالح من قومه فيما ظهر له ، فمن حافظ على ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء ، على أن تفاضل الحياء من المؤمنين على قدر علومهم بالله ، وبكنه ما يجب له من تعظيمه على من سواه من خلقه ، ولكثرة أياديه عندهم ، ولسبوع نعمه عليهم ، وقد قـــال بعـــض الحكماء الحب للمخلوقين على أقدارهم في منازل الدين والدنيا ، والله تعـــالى

---

(١) ورد بلفظ: عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن ممـــا أخـــاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ، ومضلات الهوى)).

أخرجـــه ابـــن حنبـــل في مســـنده ٤/ص٤٢٠/ح١٩٧٨٧ ، والطـــبراني في معجمـــه الصـــغير ج١/ص٣٠٩/ح٥١١.

(٢) ورد بلفظ: عن سعيد بن يزيد الأزدي أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصـــني ، قـــال: ((أوصيك أن تستحيي من الله عز وجل كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك)).

أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج٦/ص٦٩/ح٥٥٣٩.

وعز أولى مَن أُجلّ مقامه وروقب في أمره ونهيه. ويروى عن وهب بن منبه أنه قال: قال عيسى بن مريم: « يا بني إسرائيل استحيوا من الله كما تستحيون من الناس في علانيتكم »(١).

فإذا وصل العبد إلى حقيقة الحياء من الله أورثه الدرجة العليا، والمنزلة الكبرى، ومن الحياء أنهم يستحيون من الله في تقلبهم وقيامهم وقعودهم وحركاتهم وسكونهم، مما أبيح لهم حياء أشد حياؤهم من الله فيما لا بد لهم منه.

فمن ذلك ما روى الزبير بن العوام قال: خطب أبو بكر الناس فقال: « أيها الناس استحيوا من الله فوالله ما دخلت الخلا منذ أسلمت إلا مقنعا الرأس حياء من ربي »(٢)، وقال ابن عمر: « إنه رأى رجلا أسود بفلاة من الأرض يلتفت يمينا وشمالا فلم ير أحدا ثم دخل إلى خراب وستر فوقه بثوب، قال ابن عمر: تستتر على نفسك وليس أحد يراك؟! قال: أولا أستحيي من الله »(٣)، وقال عثمان بن عفان: « إني لأتعرى في الفضاء من الأرض فأحني صلبي على عورتي حياء من ربي »(٤).

وأخبرنا علي بن الجعد، قال: حدثنا محبوب البصري، قال: سمعت الحسن يقول: « لقد أدركت أقواما ما طوي لأحد منهم ثوب قط، ولا اشتهى أحد منهم شهوة على أهله قط، ولا أمرهم بصنعة طعام قط، ولا قاسم أخاه ميراثا قط، وإن كان أحدهم ليرث الميراث مع أخيه فيقول له: لك كله، كي

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد عن أبي موسى قال: ((إني لاغتسل في البيت المظلم فأحني ظهري إذا أخذت ثوبي حياء من ربي)). أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ج١/ص١٠٠/ح١١٢٨.

وفي لفظ آخر لأبي موسى: ((ما أقمت صلبي في غسلي منذ أسلمت)). أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ج١/ص١٠١/ح١١٤٠.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

لا يشغل نفسه بشيء من الدنيا ، وإن كان أحدهم ليأكل الأكلة فيتمنى أنها تبقى في جوفه كما تبقى الآجرة في الماء حتى تكون زاده من الدنيا ، كل ذلك كراهة منهم أن يشتغلوا بشيء من الأمور عن ذكر الله ، وإن كان لا بد لهم منه فهم متكرهون له لما يعلمون في غيره من القربة إلى الله والزلفة لديه » [١].

وقال هشام بن عروة قال: « أي يا بني لا تهدين من البدن شيئا تستحيي أن تهديه إلى كريم من المخلوقين ، فإن الله أكرم الكرماء وأحق من اختير له » [٢].

ذكر عن عمر أنه قال: « الحياء والإيمان قرنا جميعا فإذا ارتفع أحدهما ارتفع الآخر » [٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « الحياء حياءآن : الحياء طرف من الإيمان ، وحياء عجز » [٤].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: « خلتان يحبهما الله السماحة والحياء » [٥] ، وقال: « إن الله اختار الإسلام لنفسه دينا ، فأحسنوا صحبته بالحياء والسخاء

---

(١) ورد عن الحسن بلفظ: ((أدركتهم والله إن كان أحدهم ليعيش عمره ما طوي له ثوب قط ، ولا أمر أهله بصنعة طعام له قط ، ولا حال بينه وبين الأرض شيء قط)). أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ج٧/ص١٩٠/ح٣٥٢٢٦.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) ورد عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأشج العصري: ((إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والحياء)).

أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ص٢٠٥/ح٥٨٤ ، وابن حبان في صحيحه ج١٦/ص١٨٢/ح٧٢٠٤ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٣٦٧/ح٢٠١١ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤٠١/ح٤١٨٨ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٢٠٦/ح١٧٨٦٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٢٣٠/ح١٢٩٦٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٤١٦/ح٧٧٤٦ ،

، فإنه لا يصلح إلا بهما » [١] ، وقال: « الحياء والإيمان يجريان طلوعا فإذا خرج أحدهما اتبعه الآخر » [٢].

وكذلك يجب في كل ما عمل لله أن يكون أعلا الأمور وأرفعها قدرا في قيمتها وثمنها ، ويكون له خالصا لابتغاء مرضاته دون من سواه ، فإنه قد قال بعض الحكماء: « ينبغي للعبد أن ينظر ما هو أي: أليس هو عبد ذليل يتعبد » [٣]. وعلى ما هو أي: على ما هو مقيم علي ما خُلق له وأُمر به ، أم على ما لم يُخلق له و لم يُؤمر به ، وقد نُهي عنه ورُغّب في غيره ، وفيم هو أي فيم هو من الأعمال التي يعملها ، لم يعملها لله مخلصا لا يريد بها غيره ، ولا يطلب المنزلة بها إلا عنده جل ثناؤه ، أم ليقال: ما أورعه وأكفه وأقبله على شأنه!!!

وكذلك ينظر لمن تكلم لله أم لغير الله ، فيما وجب عليه الكلام فيه ، أو فيما لا يعنيه ، أو فيما قد نهي عنه ، وعلام لا يتكلم عن أن يتقرب إلى الله بكلامه ، ويقضي به ما يجب من حقه ، فيما أوجب عليه من النهي عن معصيته ، أو ليقال [٤]: ما أشد غضبه لله!! وأقومه بواجب حق الله [٥]!!

وكذلك ينظر لمن يصمت لأنه لا يحل له الكلام ، أم ليقال: ما أطول صمته! وأكفه عن دخوله فيما لا يعني!! .وعلام يصمت أعلى ما قد وجب عليه الصمت فيه؟ أم فيما قد وجب عليه الكلام فيه؟ أم ليقال: ما أطول صمته

والطبراني في معجمه الصغير ج٢/ص٦٧/ح٧٩٢ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٣/ص٢٦٦/ح١٦٤٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج١٢/ص٢٤٣/ح٦٨٤٨ ، والبخاري في خلق أفعال العباد ج١/ص٦٠/ح٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٢١٢/ح٢٥٣٤٢.

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في المخطوطات: أوفى ليقال. ولعل الصواب ما أثبت.

(٥) سقط من (أ) و(ب): وأقومه بواجب حق الله.

وأكثر احتماله!! وعلام يصمت أعلى أن يسلم دينه ولا يخرجه القول إلى ما لا يحل له؟! وعلى علم هو مكتفي به ، لا علم طلب به الرئاســة ، والرئاســة بالحلم والكظم للغيظ والإحتمال والصبر.

وكذلك يجب على العبد في كل أحواله من أخذه وعطائه ، وحبه وبغضــه ، وقبضه وبسطه ، أن [١] يرى نفسه لله بالمراقبة وشدة الحياء منه ، إلا أن تكون [٢] منزلة عنده من ذكر أقل من منزلة مخلوق مثله ، فإن المخلوق أقــل مــا يوجب لبعض عظماء الدنيا إذا علم منه أنه يعلم موارد أموره ومصــادرها ، ويتفقد ذلك عليه ، وهو ممن يحب أن يتقرب إليه ببعض عمله ، ويعلم منه أن لا يقبل منه شيئا من تقربه إلا ما كان له خالصا ، فإنه لا يقصر عند ذلك في غاية النصيحة والتفقيه لما يكون منه في ظاهره وباطنه ، فيجب علــى أهــل المعرفة بالله أن يكون الله عندهم بأعلى منزلة وأشد هيبــة وأكثــر إجــلالا وأخلص محبة عند جميع خلقه ، إذ كان هو المستحق لذلك دون من ســواه ، وأقل ما يجب على من علم أن الله بأمره عالم وعلى عقوبته قادر أن يكون منه على حذر ، ويقوده علمه إلى الزهد فيما يفنى ، والرغبة فيما يبقى.

وخلة أخرى من الحياء من الله لأن لا يرى قلوبهم ترجو غيره ، أو تخاف غيره ، كما قال عامر بن قيس بن عبد الله العنبري ، وعمر بن عتبة بن قرقد كلاهما قالا: « إنا لنستحيي من الله أن نخاف شيئا سواه » [٣]. والأخبــار في ذلــك تكثر.

فلما هاج الحياء منهم استحيوا من الله فيما أطلق من الطعام والشراب واللباس وغير ذلك ، أن يشتغلوا بشيء منه إلا ما أوصلهم إلى طاعته ، وكان عونا لهم

---

(١) في (ج): وأن.

(٢) في (أ) و(ب): إن لا يكون.

(٣) لم أقف عليه.

عليها ، فما ظنك بحيائهم منه فيما لم يطلق لهم؟! أو يكونوا على نقصان في حدود الحياء من أجل [(١)] ارتكابه ، فقد فسرنا أوجه الحياء من الله ، فبذلك فليقتد أهل العلم بالله والمراقبة له وأهل الإجلال لمقامه.

والوجه الثاني من المراقبة هو مراقبة الموت ومخافة أن يفوهم ما أملوه من ثواب الله ربهم ، فهم يعاملونه بالجد والاجتهاد مبادرة الفوت ، لأهم فهموا عن ربهم ما ندهم إليه ، فقال جل ثناؤه: و﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١]، يقول: وجلت قلوهم لما يخوفون من سالف أعمالهم الدنية ، ولعلمهم بالمرجع إلى الله ، فيبادرون آجالهم بالإستكثار من طاعتهم ، لأهم يعلمون أن كل ساعة تمضي هم كان اشتغالهم فيها بغير ما خلقوا له فهم قد خسروها ، وأنه لو كانت لهم الدنيا بحذاريفها [(٢)] لبذلوها لترد [(٣)] الساعة الماضية عنهم ، ليعملوا فيها لم يجابوا إليه ، ولم يقدروا عليه ، فإشفاقهم من الخسران على قدر عملهم بما فاقم من ثواب عملهم في مقدار ساعاقم التي عينوها، وأنه لا شيء من أمور الدنيا منذ مبتدائها [(٤)] إلى تصرمها يوازن ما فاقم من نعيم ثواها.

وقال الله عز وجل: ﴿ ٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ ﴾ [الواقعة:١٠ - ١١]، الحسن في قوله: و﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾، قال: يعملون ما يعملون من أعمال البر وهم يخافون ألا تنجيهم من عذاب الله،

---

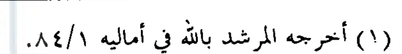
(١) في (ج): في حدوده ، والحياء من أجلّ.

(٢) وظنن فوقها بـ: بحذافيرها.

(٣) في (ج): ليردوا.

(٤) في (أ) و(ب): مبتدائه.

وقـــال تعـــالى: ﴿ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠]، فهم صفوة خلقه والمختارون المطيعون من عباده ، وقـال ابـن مسعود: عن النبي صلى الله عليه وآله: « لا تحاسدوا إلا في اثنتين رجل آتـاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس ، ورجل آتاه الله مالا سلّطه علـى هلكته في الحق » [1]. فإذا كانوا في درجة المنافسة أورثم ذلك قصر الأمـل ، ومراقبة الموت مخافة الموت ، فتسابقوا وبادروا كما قال أبو هريرة عن الـنبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « بادروا أربعا قبل أربع ، اعمل لصحتك



(١) أخرجه المرشد بالله في أماليه ٨٤/١.

وعن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها أو يعلمها)).

أخرجه المرشد بالله في أماليه٨٤/١ ، والبخاري في صحيحه ج١/ص٤٠/ح٧٣ ، ومسلم في صحيحه ج١/ص٥٥٩/ح٨١٥ ، وابن حبان في صـحيحه ج١/ص٢٩٣/ح٩٠ ، والترمـذي في سـننه ج٤/ص٣٣٠/ح١٩٣٦ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤٠٨/ح٤٢٠٨ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٨٥/ح٣٦٥١ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٤٩/ح٣٦٩ ، والحميدي في مسـنده ج ١/ص ٥٥/ح ٩٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٢٩٦/ح١٣١٦٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٤٢٦/ح٥٨٤٠ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٩٤/ح١٢٥ ، وأيضـا في مسند الشاميين ج٢/ص٢١٥/ح١٢١٢ ، والبيهقي في سننه الكـبرى ج٤/ص١٨٩/ح٧٦١٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٣٤١/ح١٠٨٥ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٣٩/ح٧٢٩ ، والبخاري في خلـق أفعـال العبـاد ١/ص١١٩/ح٠ ، والطـبراني في معجمـه الأوسـط ج ١/ص٨١/ح٢٣١.

قبل سقمك ، ولفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، ولحياتك قبل موتك » [١].

وأخبرنا أبو مصعب المدني قال: أخبرنا محمود بن هارون الأعرج ، عن النبي صلى الله عليه ، رواه ابو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « بادروا بالأعمال ما تنتظرون هل [تنتظرون] إلا غنى مطغيا ، أو فقرا منسيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرماً مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو المسيح الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » [٢].

وأخبرنا محمد بن معاوية النيسابوري ، قال: أخبرنا كثير بن مروان ، عن عبد الله بن زيد ، عن أبي أمامة ، وأبي الدرداء ، وواثلة بن الأسقع ، وأنس بن مالك ، أن النبي صلى الله عليه وأله وسلم قال: « بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود

---

(١) عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه: ((اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك)).

أخرجه الحاكم في مستدركه ٤/ص٣٤١/ح٧٨٤٦ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٤٢٥/ح٧٢٩ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٢١٩/ح١٤٥١ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٧٧/ح٣٤٣١٩.

(٢) عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا ، أو فقرا منسيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال ، فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر)).

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص٥٥٣/ح٢٣٠٦ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٣٥٧/ح٧٩٠٦ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٣٢/ح٨٢٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج١١/ص٤٢٢/ح٦٥٤٢.

غريبا كما بدأ فطوبى غرباء الذين يصلحون عند فساد الناس »[١] ، وقـــال رجل: يا رسول الله أوصني؟! قال: « إذا صليت فصل صلاة مودع »[٢].

وقال سلمان رحمة الله عليه ، وعائشة ، وغيرهما: « عهد إلينا النبي صـــلى الله عليه وآله وسلم أن يكون زاد أحدكم كزاد الراكب »[٣] ، وإنما أراد بذلك صلى الله عليه وآله وسلم أن من لم يكن له في الدنيا ما يأسف عليه على فراقه ، لم يكن شيء أحب إليه من الإنتقال منها إلى دار عمرانه ، التي قـــدَّم زاده إليها ، وإنما جزع أهل الدنيا لفراقها ، لأنهم عمروها بخراب غيرهـــا ، فهـــم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج١/ص١٣١/ح١٤٥ ، والترمذي في ســـنه ج٥/ص١٨/ح٢٦٢٩ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٢٠/ح٣٩٨٦ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص١٨٤/ح١٦٠٤ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٦/ص١٦٤/ح٥٨٦٧ ، والطـــبراني في معجمـــه الصـــغير ج١/ص١٨٣/ح٢٩٠ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٣٨٢/ح٤٠٨ ، والقضـــاعي في مســـند الشهاب ج٢/ص١٣٨/ح١٠٥١ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص١٠٠/ح٧٥٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٨٣/ح٣٤٣٦٦ ، والدارمي في ســـنه ج٢/ص٤٠٢/ح٢٧٥٥ ، والطـــبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٢٦١/ح١٩٢٥.

(٢) عن أبي أيوب قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رســـول الله علمـــني وأوجز. قال: ((إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع ، ولا تكلم بكلام تعتذر منه ، واجمـــع اليأس مما في أيدي الناس)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ص١٣٩٦/ح٤١٧١ ، وابن حنبل في مسنده ج٥/ص٤١٢/ح٢٣٥٤٥ ، والحـــاكم في مســـتدركه ج٤/ص٣٦٣/ح٧٩٢٨ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٤/ص١٥٥/ح٣٩٨٧.

(٣) عن عائشة قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلعي ثوبا حتى ترقعيه)).

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص٢٤٦/ح١٧٨٠ ، والحاكم في مســـتدركه ج٤/ص٣٤٧/ح٧٨٦٧ ، وأبـــو يعلـــى في مســـنده ج٨/ص٨٠/ح٤٦١٠ ، والطـــبراني في معجمـــه الأوســـط ج ٥/ص٢١٧/ح٥١٢٨.

يكرهون أن ينتقلوا من العمران إلى الخراب ، فعلى قدر عمارة الآخرة يعمل العاملون في خراب الدنيا.

قال رجل لعلي بن أبي طالب عليه السلام وقد دخل مترله: يا أمير المؤمنين ما أرى في مترلك شيئا ، قال: « يا أعرابي إن لنا دارا غير هذه قد حولنا جل متاعنا إليه » [١].

وذكر أن سلمان رحمة الله عليه بكى عند الموت ، قيل له: ما يبكيك؟ قال: ما ترون هذه الأشياء ودخولي فيها ، وقد عهد إلينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أن يكون زاد أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب » [٢]. فالعاملون لله يرون أن كلما خلفوه في دار الخراب فقد خسروه ، وكلما قدموه فقد ربحوه ، فلما قصرت آمالهم راقبوا الموت وبادروا بالجد والاجتهاد ، فكانوا من الذين قال الله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١].

وقيل لعامر بن عبد الله وكان مجتهدا: إن الجنة تنال بدون هذا ، فقال: « والله لأجتهدن ثم لأجتهدن فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن لا يكن الأخرى لم أرجع إلا على نفسي فأقول: ردني أعمل غير الذي كنت أعمل » [٣].

وقال إبراهيم التيمي: « لو فارق ذكر الموت قلبي لفسد على قلبي » [٤].

وقال سميط بن عجلان: « لو نزل عذاب الله من السماء ما قدرت أن أزيد في عملي مثقال ذرة » [٥] ، وإنما قال ذلك من غاية إجتهاده ، فمن قصَّر أمله

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

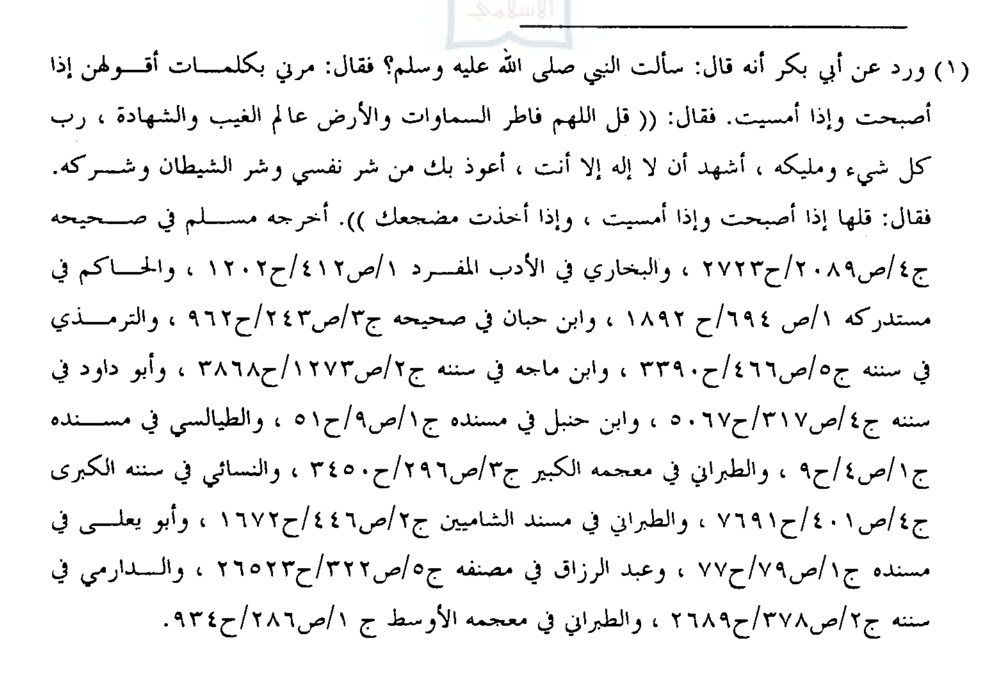
(٥) لم أقف عليه.

حسن عمله ، وطابت له الحياة ، ومن راقب الموت بقلبه سار إلى الخيرات ، فهذا معنى قول علي بن أبي طالب عليه السلام: « ومن يرقب الموت سارع في الخيرات ».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « يا أبا ذر إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح » [(١)].

باب اليقين

وهو الدعامة الثانية ، واليقين على أربع شعب على: تبصرة بالفطنة ، وتأويل الحكمة ، وموعظة العبرة ، وسنة الأولين. فمن أبصر الفطنة تأول الحكمـــة ، ومن تأول الحكمة عرف العبرة ، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين.



(١) ورد عن أبي بكر أنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال: مرني بكلمـــات أقـــولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال: ((قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشـــركه. فقال: قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك)). أخرجه مســـلم في صـــحيحه ج٤/ص٢٠٨٩/ح٢٧٢٣ ، والبخاري في الأدب المفـــرد ١/ص٤١٢/ح١٢٠٢ ، والحـــاكم في مستدركه ١/ص ٦٩٤/ح ١٨٩٢ ، وابن حبان في صحيحه ج٣/ص٢٤٣/ح٩٦٢ ، والترمـــذي في سننه ج٥/ص٤٦٦/ح٣٣٩٠ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٢٧٣/ح٣٨٦٨ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٣١٧/ح٥٠٦٧ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٩/ح٥١ ، والطيالسي في مســـنده ج١/ص٤/ح٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٣/ص٢٩٦/ح٣٤٥٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٤٠١/ح٧٦٩١ ، والطبراني في مسند الشاميين ج٢/ص٤٤٦/ح١٦٧٢ ، وأبو يعلـــى في مسنده ج١/ص٧٩/ح٧٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٣٢٢/ح٢٦٥٢٣ ، والـــدارمي في سننه ج٢/ص٣٧٨/ح٢٦٨٩ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٢٨٦/ح٩٣٤.

باب شرح اليقين

واليقين هو معرفة الله بما نوَّر لعباده من أدلته ، وأقام لهم من أعلامه في سماواته وأرضه ، وفي أنفسهم وما يرون من عجائب صنعه ، ولطيف تدبيره ، وذلك [أن] المؤمنين على قدر منازلهم من العلم والاستدلال على الله ، وكذلك مترلة الأنبياء عليهم السلام ، فإذا عرفوه بهذه المعرفة أخلصوا العبادة له ، لما يعلمون من شدة استحقاقه لها ، وقد قال الله تعالى: فا ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]، وقال عز وجل: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر:٣]، أي: العبادة الخالصة ، وما يدان له به ، وما كان غير ذلك مما يشوبه بشيء فليس بدين له.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إن النور إذا سكن في القلب انفتح له القلب وانشرح »[١] ، وهذا هو نور المعرفة واليقين بالله والإخلاص له دون خلقه ، فبهذا النور والعلم الذي ميَّز المؤمنون به بين الحق والباطل ، وبه علوا كل مبطل ، وبه قوي حجة كل محق ، وبه دعو إلى الله من أدبر عنه ، أو ألحد في صفته ، فإذا أقاموا أنفسهم لله هذا المقام في تخلص أنفسهم واستنقاذ عباده من حيرتهم وضلالهم ، أمدهم بمعرفته ، وعصمهم بطاعته ، وأيدهم بتأييده ، وحاطهم بكلاتيه ، فأزادوا عند ذلك يقينا إلى يقينهم ، وتفاضلت أعمالهم ، على قدر تفاضلهم في معرفة ربهم واجتهادهم ، وكذلك الأنبياء ومن اتبعهم في زمنهم.

ومثل ذلك ما روي أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصرة تِبرٍ فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « أنفق هذه عليك وعلى عيالك »[٢].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) لم أقف عليه.

وقال سعد بن أُبي ، وعمر بن ثعلب ، وغيرهما: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال عليه السلام: « إني أعطي أقواما الدنيا وأمنع آخرين ليس معهم من الدنيا شيء ، لما جعل الله فيهم من الصبر واليقين » [١].

وقال النبي صلى الله عليه وآله: « أُكِلُ كل قوم إلى إيمانهم » [٢].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: « ما منكم إلا ولو شيئت أن أجد أحد عليه في خلقه ما خلا عمار بن ياسر » [٣] ، وإنما أراد بذلك عليه السلام زيادة لزداد اليقين ، لأن زيادة اليقين خطرات ، كما قال عليه السلام: « الإيمان ثابت ، واليقين خطرات » [٤]. وقد قال بعض أهل المعرفة: « مثقال ذرة من يقين تملأ القلب نورا » [٥] ، وإنما أراد زيادة اليقين.

وقال الله جل ثناؤه يحكي قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة:٢٦٠]، قال مجاهد وغيره: « ليزداد يقينا » [٦] ، وقال غيرهم: « إنما سأل المعاينة لأن قومه سألوه هل رأيت كيف يحيي ربك الموتى؟ فقال: لا ، إلا أني قد علمت ذلك وتيقنته وتأولته » [٧] ، فسأل الله ذلك ليكون إذا راجعهم في الدعاء إلى ربه ، فسألوا عن رؤية ذلك أن يقول: نعم ، ليقطع شغبهم.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال ج٠/ص٠/ح٧٣٣٩.

(٦) لم أقف عليه.

(٧) لم أقف عليه.

وذكر عن ابن أبي طالب عليه السلام أنه ذكر الجنة والنار فوصفهما ثم قال: « نعم من حال بينه وبين هذا الثواب والخوف من العقاب تعبد المرء لمن رجا الدنيا في يديه[١] ، فيستحرى في الأمور سرته ، ويسرع إلى محبته ، ويتعب بدنه لمرضاته ، ويدنس عرضه ، ويجرح دينه ، ويضع شرفه حتى تذهب مروءته ، وحتى يحول هذا العبد بينه و بين ما يوقعه في عقابه ، وهو يدعي بزعمه أنه يرجو الله فيما أتاه ، لا يسيء[٢] من دعواه ، في عمله[٣] وفعله ، يرجو الله في الكبير ويرجو العباد في الصغير ، ويعطي العبد ما لا يعطي الرب ، وكل من رجا عرف عمله في رجائه[٤] ، فما بال الله يقصر به عما يعمل لعبده.

إني أخاف أن يكون في رجائك كاذبا ، أو يكون رجاؤك مخالفا مدخولا ، وكذلك إن خاف عبد من عبيده أعطاه في خوفه منه ما لا يعطي الله وهو في كل خوف خوف الله ورجايه وكذلك من عظمت الدنيا ف يصدره وكثر موقعها عنده أثرها على الله ، ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ما يدل على خراب الدنيا وعيبها ، إذ عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها ، علم أن الله عز وجل بغض شيئا فأبغضه ، وحظر شيئا فحظره ، وصغَّر شيئا فصغره ، فلو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبعض ، وتعظيمنا لما صغَّر لكفانا ، ولقد أمر عائشة بإخراج شيء وقال: إذا رأيته ذكرت الدنيا »[٥] ، محبة منها ألا تتخذ منها رياشا ، فأمالها من القلب ، وأخرجها من النفس.

---

(١) في المخطوطات: بعد المن رجا. ولعلها مصحفة ، ولعل ما أثبت هو الصواب ، أو قريبا منه.

(٢) الكلمة مهملة في المخطوطات.

(٣) في (أ) و(ج): علمه.

(٤) في (أ) و(ب): رحاله. مصحفة.

(٥) لم أقف عليه.

وكذلك من أبغض شيئا أبغض أن ينظر أو ينكر عنده ، فوفق الله عبدا تأسى بنبيه عليه السلام ، وكذلك بأنبياء الله عليهم السلام ، كموسى بن عمـران عليه السلام حين قـال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ [القصص:٢٤]، وكعيسى عليه السلام في زهده ورغبته في ثواب ربه ، والعمل لما عنده ، والرفض للدنيا وأهلها ، وإيثاره على من سواه ، متوكلا موقنا ، صابرا محتبسا ، فأعلى درجات المقربين عند الله وأشرفها وأسناها ما مَّنَّ به عليهم ، ممن تأييداته التي هي ثواب لأعمالهم معجلا من فضل رهم ، التي يزدادوا بهـا يقينا إلى يقينهم ، كما قال أبو بكر: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم عام أول فقال: « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهو يهدي إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهو يهدي إلى النار ، واسألوا الله الـيقين والمعافاة فإنه لم يعط عبد مع اليقين أفضل من المعافاة »[(١)].

فبدأ باليقين لأنه لا شيء أفضل من اليقين ، وهذا منه عليه السلام حض على الطاعة التي يستوجب العبد فيها من الزيادة ، ويزداد يقينا بذلك ، كما قـال الله عـز وجـل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد:١٧]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ [التغـابن:١١] ، وإنمـا حض عليه السلام على ذلك لأن معرفة الله واليقين به أخلص العمـل لـه ، وباليقين يحسن نظره لعباده ، وأنه لا يفعل بهم إلا ما فيه صلاحهم ، رضـوا عن الله في كل فعله ، وباليقين رفع الله قدر أصفيائه من أنبيائه ، والصـالحين من عباده.

وقال ابن عباس: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال له: « إن استطعت أن تعمل لله باليقين في الرضا فافعل ، وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير

---

(١) لم أقف عليه.

» (١) ، فأقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم على درجات الرضا اليقين ، لوقوع الخيرة في كل ما فعله.

وقال أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « الحاذق بتلاوة القرءان - وهو العالم بحدوده - آناء الليل والنهار ، والذي يقرأه وهو عليه شاق له ثواب القرءان مرتين ، بكل حرف عشر حسنات » (٢) ، كما قال عبد الله بن مسعود لقراء القرءان: « أما إنكم تؤجرون بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول: الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ، فذلك ثلاثون حسنة » (٣).

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد عن عائشة قالت: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأه وهو يتعتع فيه وهو شاق عليه فله أجران)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٤/ص١٨٨٣/ح٤٦٥٣ ، ومسلم في صحيحه ج١/ص٥٥٠/ح٧٩٨ ، وابن حبان في صحيحه ج٣/ص٤٥/ح٧٦٧ ، والترمذي في سننه ج٥/ص١٧١/ح٢٩٠٤ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٢٤٢/ح٣٧٧٩ ، وأبو داود في سننه ج٢/ص٧١/ح١٤٥٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٦/ص٤٨/ح٢٤٢٥٧ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢١٠/ح١٤٩٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٥/ص٢١/ح٨٠٤٥ ، وابن راهويه في مسنده ج٣/ص٧١٠/ح١٣١٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٢/ص٣٩٥/ح٣٨٦٠ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص١٥٠/ح٩٥٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٦/ص١٢٨/ح٣٠٠٣٦ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج٣/ص٣٧٥/ح٦٠١٦ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٥٣٦/ح٣٣٦٦.

(٣) عن عبد الله قال: ((تعلموا هذا القرآن فإنكم تؤجرون بتلاوته ، بكل حرف عشر حسنات ، أما أني لا أقول: بألم ، ولكن بألف ولام وميم ، بكل حرف عشر حسنات)).أخرجه الدارمي في سننه ج٢/ص٥٢١/ح٣٣٠٨.

باب تبصرة الفطنة

وتبصرة الفطنة مرشدة رسوخ اليقين في القلب ، وذلك أن القلب إذا امتلأ من نور اليقين أشرق وأضاء له كل شيء كان أظلم عليه قبل ذلك ، وأشـرقت الجوارح لشدة نور القلب ، وامتلأت سكينة ووقارا ، فنطق اللسان عن ذلك بالحكمة ، لأنه إنما يعبر عن ضمير القلب ، وأصابت الجوارح آداب الإيمان ، لأنها منتشرة من نور القلب متصرفة بتصريفه ومنادية بتعليمـه ، وذلـك أن القلب أمير البدن وهي له تبع ، فإذا صلح القلب صلحت بصلاحه ، وإذا فسد فسدت بفساده.[(١)] كما قال النعمان بن بشير: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسـدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب »[(٢)] ، فإذا أصابت الجوارح آداب الإيمان ونطق اللسان بالحكمة ، كان ذلك من شدة اشتعال القلب بنـور الـيقين ،

---

(١) في (أ) و (ب): فسدت. مصحفة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص٢٩/ح٥٢ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٢٢٠/ح١٥٩٩ ، والنسائي في سننه ج٧/ص٢٤٣/ح٤٤٥٣ ، وابن حبان في صـحيحه ج٢/ص٤٩٨/ح٧٢١ ، والترمذي في سننه ج٣/ص٥١٢/ح١٢٠٥ ، وابن ماجـه في سـنـنه ج٢/ص١٣١٩/ح٣٩٨٤ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص٢٤٣/ح٣٣٢٩ ، وابن حنبل في مسـنده ج٤/ص٢٦٧/ح١٨٣٧٣ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٠٧/ح٧٨٨ ، والحميـدي في مسـنده ج٢/ص٤٠٨/ح٩١٨ ، والطـبراني في معجمـه الكـبير ج١٠/ص٣٣٣/ح١٠٨٢٤ ، والنسـائي في سـننه الكـبرى ج٣/ص٢٣٩/ح٥٢١٩ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٤٢/ح٣٢ ، والطبراني في مسـند الشاميين ج١/ص٢٩٣/ح٥١١ ، والقضـاعي في مسـند الشـهاب ج٢/ص١٢٨/ح١٠٢٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٥/ص٢٦٤/ح١٠١٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص٢١٥/ح١٦٥٣ ، وابـن الجـارود في المنتقـى ج١/ص١٤٤/ح٥٥٥ ، وعبـد الـرزاق في مصـنفه ج٤/ص٤٤٨/ح٢٢٠٠٣ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣١٩/ح٢٥٣١ ، والطبراني في معجمـه الأوسط ج ٢/ص٢٠٤/ح١٧٣٥.

وأورثه ذلك النظر تبصرة الفطنة ، والإزكان [١] الذي يعطاه المؤمن عند الانقطاع إلى الله والإخلاص له ، وما يورثه من معرفة قدرة الله وعظيم سلطانه وسعة مكانته ، مع ما يخص به من الفطنة لأفعال الخلق والمعرفة بوجوه أفعالهم ، حتى كأنه مطلع على ضمائرهم ، لما قد اعتبروا علمه [٢] من تصرف أسبابهم ، وقد سمى الله جل وعز ذلك: توسما ، فقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر:٧٥] ، يعني: المعتبرين المتيقظين ، وسماه ابن عباس وغيره: إزكانا ، وسماه علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: تبصرة الفطنة ، وسماه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غير خبر: فراسة ، وهذه أربعة أسماء تنتظم معنى واحدا ، فطنة المؤمن ، وأدكار المؤمن ، وفراسة المؤمن ، وتوسم المؤمن.
وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « المؤمن ينظر بنور الله » [٣] ، وقال عليه السلام: « ظن المؤمن كمعاينة الجاهل » [٤] ، فأهل المعرفة بالله في ذلك طبقات.

فمنهم من يفهم بالتوسم في الرجل إذا سمع كلامه ، فهذه درجة قوم لا تجاوز بهم درجتهم.

ومنهم من يفهم ذلك بالنظر إليه ، فهؤلاء أيضا لا تجاوز بهم مترلتهم ، وهم أعلى من الطبقة الأولى.

---

(١) الزَّكَنُ: التفرس والظن. والإزكان: الفطنة والحدس الصادق. لسان العرب مادة: زكن.

(٢) في (ج): اعتبر وعلمه.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ص٢٩٩/ح٣١٢٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص١٠٢/ح٧٤٩٧ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٣٨٨/ح٦٦٣.

(٤) لم أقف عليه.

ومنهم من يفهم درجة الرجل إذا ذكر له وعرض عليه قوله ، فيعرفه ويعرف منزلته بالوصف ، وهذه الدرجة لا يتجاوز بها أهلها ، وهم أعلا من الذين ذكرنا قبلهم.

ومنهم قوم أعلا من هؤلاء درجة في التوسم ، فهم يعتبرن الأشياء وما تؤول إليه عواقبها قبل وقوعها ، قد تبطنوا من خفيات الأمور ، والعلم بعواقب الدهور ، ونتائج الأسباب ، وما يؤول به بعضها فينظرون [١] إليها كأنها رأي عين ، فلا يخطئ توسمهم ، وهم بعد ذلك مستغرقون بهذه الطبقات الثلاث التي هي دون مقامهم ، وذلك أنهم علموا أن الله مؤيد من أطاعه ، وخاذل من عصاه ، فرأوا أهل التضييع [٢] مختلفة أقوالهم وأفعالهم ، علموا عند ذلك أنهم ليسوا أعمال الله ، وإذا رأوا أمور غيرهم تجري على اتساق علموا أنهم مؤيدون ، وأنهم لله عاملون ، لأن صفة عمال الله أنهم مؤيدون ، فإذا أتاهم التأييد من الله والهداية والموعدة ثم كانوا لها قابلين ، كانوا لمثلها لقبلوهم مستحقين ، وليس من صفته جل ثناؤه قطع ذلك عنهم إذا تلقوه بالقبول والعمل به ، إلا أن يضيعوا ما يجب عليهم فيه ، ومتى أضاعوه سلبوا التأييد ، وخلوا وما احتاروه بأنفسهم ، فإذا رءاهم العاملون لله بهذه المنزلة من التقصير أو الفترة عما كانوا عليه ، علموا بذلك أنهم ممنوعون بعض كرامات الله التي لا يقطعها ، ثم حكموا عليهم فيما يرونه منهم من مباح أو محظور أو فسق أو كفر ، لعلمهم بأحكام الله على مثلهم ، إذ كانوا في مثل أحوالهم ، وبذلك بانت منازل أنبياء [٣] الله عليهم السلام ، إذ لم يطلع منهم في طول دهرهم على مناقضة في قول ولا فعل ، ولا فساد في تدبير ، ولا كذب في الأمور ،

---

(١) في (أ) و(ب): فينفرون.

(٢) في (ج): التصنيع.

(٣) في (ب): أولياء.

علم أنهم مؤدون ، وأنهم لو كانوا على الله كاذبين لظهر منهم التفاوت والاختلاف في أمورهم ، بخذلان الله لهم ، لأنه من صفة الله أن يخلي بين الكاذبين وبين الأمور التي لا تكون إلا من صفة الصادقين ، لأن الحكيم في حكمته أن يجعل بين الحق والباطل فصلا ، وبين منزلة الصادقين والكاذبين عليه فرقا ، وكذلك صفة المؤمن من العاملين المخلصين ، سيماهم مباين سيماء المموهين.

وإنما تصح تبصرة الفطنة والتوسم لأهله من طريق حسن الظن لا من طريق الحكم بالتوسم والإزكان ، لأنه أطلق للمؤمن أن يحسن الظن بأخيه ويتوسم فيه الخير ، ولا يحكم له بذلك حكما لأنه لا يجوز الأحكام بما يتوهم القلب أو يزكي. وإنما الأحكام بالإقرار والشهادات ، فهذا هو موقع الحكم بالتوسم والفطنة ، لا يجوز غير ذلك، وأن كان الأغلب سوء الظن لأن القطع بسوء الظن منهي عنه ، قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢] ، وروي عن زيد بن ثابت أن عمر بن الخطاب « ألفى رجلا يكلم امرأة في خلافته فعلاه بالدرة ، فقال: يا أمير المؤمنين هي مَحْرَمُ ، فأتى [(١)] عمر بن الخطاب زيد بن ثابت فأخبره بالذي صنع ، فقال: هل سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكر في ذلك شيئا؟ فقال زيد: نعم ، سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٨]. فقال عمر: أنت سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول هذا؟ قال: نعم ، فأعاد عليه القول فقال له زيد: سمعتها أذناي ، ووعاها قلبي ، وكتبتها يدي من النبي صلى الله

(١) في (أ) و(ب): وأتى.

عليه وآله وسلم. و لم يستأمر فيها الخطاب ولا ابنه ، فجعل عمر هيجا هيجا يبكي » [١].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « الظن أكذب الحديث » [٢] في حديث طلحة بن عبد الله ، إلا أن يرى المؤمن موضعا يرتاب به ، ويرى لذلك دليلا وشاهدا عليه ، من فعل فيتوسم ويزكن فيه ، على طريق ما رأى من الدلائل ، ولا يحكم في ذلك بالتوسم ، كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة يراها العبد الصالح أو ترى له » [٣] ، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [يونس:٦٤].

وقال غير واحد من أهل العلم: « الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له » [٤] ، وقال ابن مسعود الأنصاري: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إن

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص١٩٧٦/ح٤٨٤٩ ، وفي الأدب المفرد أيضا ج١/ص١٤٨/ح٤١٠ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص١٩٨٥/ح٢٥٦٣ ، وابن حبان في صحيحه ج١٢/ص٥٠١/ح٥٦٨٧ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٣٥٧/ح١٩٨٨ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٨٠/ح٤٩١٧ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٤٥/ح٧٣٣٣ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٩٠٨/ح١٦١٦ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٣٠/ح٢٥٣٣ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٤٦٥/ح١٠٨٦ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٩٧/ح٩٥٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٨٥/ح١١٢٣٩ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج١/ص٣٠/ح٦.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرج ابن أبي شيبة عن عروة قال: ((هي الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح)). وأخرج عن مجاهد: ((هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له)). الدر المنثور ٤/٣٣٧.

مما أدرك من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاعمل ما شئت »[1] ، فقد فسر باب تبصرة الفطنة مع ما جاء في ذلك من الأخبار ، فبذلك فليقتد أهل العلم بالله.

باب تأويل الحكمة

وهو الشعبة الثانية من اليقين.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « فمن أبصر الفطنة تأول الحكمة » ، وذلك أن تأويل الحكمة ميراث التبصرة ، فإذا استشعر القلب التبصرة وقف عند تأويل الحكمة ، ليفهم الصواب ثم وعاه فنطق به اللسان ، حتى صارت الحكمة مأوى القلب وشعاره ، وذلك أن الحكمة الإشتغال بدوام الفكر فيما يعني وترك ما لا يعني ، فيؤدي ذلك إخلاص العمل لله تعالى ، وأورثه ذلك حب دوام الذكر والإنس بالله ، أي: الإنس بطاعة الله ، فلما وصل إلى درجة المؤانسة أورثه ذلك دوام الفكر ، ودوام الفكر يورث الاعتبار ، وذلك كله لا يكون إلا بحب الخلوة ، وترك معاشرة القاطعين عن الله ، والمدخلين له في خوض ما لا يعنيه ، والقاطعين له عن الإشتغال بما يعينه ، مما خُلق له وأُمر به. وكذلك جاء الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبرنا علي بن الجعد ، قال: أخبرنا مالك بن أنس ، عن الزهري ، عن علي بن الحسين قال: قال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١٢٨٥/ح٣٢٩٦ ، وفي الأدب المفرد ١/ص٢٠٩/ح٥٩٧ ، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ج١/ص٣٧/ح٨٣ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٤٠٠/ح٤١٨٣ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٥٢/ح٤٧٩٧ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص١٢١/ح١٧١٣١ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٨٦/ح٦٢١ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص٢٣١/ح٦٤٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص١٨٧/ح١١٥٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص١٩٢/ح٢٠٥٧٦ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص١٣٠/ح٨١٩.

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » [١] ، وقال مالك بن دينار: « قيل للقمان: ألست عبد بني فلان؟! فما بلغ بك ما ترى؟! قال: تركي ما لا يعنيني » [٢] ، وكان لقمان عبدا أسود ذا مشفرين ، فرفع الله قدره بالحكمة وتركه ما لا يعنيه ، فأورثه ذلك درجـــة المؤانسة بالطاعة ، فنظر بالحكمة فسماه الله حكيما ، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ [لقمان:١٢].

وقالت عائشة: « إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان متواصل الأحزان ، دائم الفكر » [٣] ، وذلك كله من آثار المؤانسة بالله ، أي: بطاعته ، وما قرَّب منه وأورث الزلفة لديه ، وبما اختار الاشتغال بذكره ، والإيثار لمحبته على كل محبوب دونه.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أنه كان يحب الخلوة وكـــان إذا فُقِدَ إنما يُوجد في بعض الأودية والخلا بنفسه » [٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص٥٥٨/ح٢٣١٧ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣١٦/ح٣٩٧٦ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٠١/ح١٧٣٢ ، ومالك في الموطـأ ج٢/ص٩٠٣/ح١٦٠٤ ، والطـبراني في معجمـه الكـبير ج٣/ص١٢٨/ح٢٨٨٦ ، وفي معجمـه الصـغير أيضـا ج٢/ص١١٩/ح٨٨٤ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص١٤٤/ح١٩١ ، وابن الجعـد في مسنده ج١/ص٤٢٨/ح٢٩٢٥.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب (الصمت). الدر المنثور ٥١٢/٦.

(٣) عن هند بن أبي هالة قال: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم في غـير حاجـة)). أخرجـه الهـم والحـزن ج١/ص٢٧/ح١.

(٤) الحديث ورد عن عائشة بلفظ: ((أول ما ابتدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، أن لا يرى شيئا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، فمكث على ذلك

وقال رجل للأحنف: « ما بلغ بك ما أرى؟ قال: تركي من أمرك ما عناك من أمري »[(١)] ، فرأس الحكمة كله ترك ما لا يعني ، وإنما أريد بذلك ترك الدنيا وأهلها ، والإشتعال بها بالقلب وهو ما لا يعني ، لمن أيقن أنه لم يخلق لها ، وأن الوصول إليها قاطع عن مؤانسة الله والعمل لدار الآخرة ، وهو الذي يعني ومن أجله خلقت الدنيا وأهلها ، وقد قيل: شغلك بما لا يعنيك شغلك عما يعينك.

وكذلك روي عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال: « حرام على قلب يحب الدنيا أن يذوق الحكمة ، وكيف يذوق طعم الحكمة من آثر الدنيا على الآخرة ، واشتغل بزينة الدنيا عن الإستغال بما يقربه إلى الله »[(٢)].

وقال عليه السلام: « يا معشر الحواريين ارضوا بالقليل من الدنيا مع كثرة الحكمة ، كما رضي أهل الدنيا بقليل الحكمة مع كثرة الدنيا »[(٣)].

وقال الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة:٢٦٩] ، فأهل الحكمة في ذلك رجلان: أحدهما أعلا من الآخر ، وأعلاهما درجة من وهب الله له الحكمة ، فهو يعمل بها ويعبرها بلسانه ، ويعلمها أهل الحكمة الذين تواضعوا للحكمة ، وتذللوا لله في التواضع لمن أفادهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « تواضعوا لمن تعلمون منه العلم »[(٤)] ،

ما شاء الله أن يمكث ، وحبب إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو)). أخرجه الترمذي في سننه ج٥/ص٥٩٦/ح٣٦٣٢.

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه المرشد بالله ٤٦/١ ، ٦٨ ، ٦٩ ، والكافي ٣٦/١ ، وأمالي الصدوق /٣٥٩ ، وغرر الحكم /٣٤٩.

وقال للعلماء: « تواضعوا لمن تعلمونه العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقـــار والحلم ، ولا تعلم الحكمة غير أهلها فتكون ظالما لحكمة »[١] ، كما قـــال عيسى عليه السلام: « لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموها »[٢] ، وهو من رواية ابن عباس عن النبي عليه السلام قال: « ألا أن عيسى قام في بني إسرائيل خطيبا فقال: يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم »[٣] ، هذا الرجل الحكيم القلب واللسان ، فهو يعبر حكمة قلبه بلسانه ، فهذا إمام في الحكمة وقائد العلم والحجة لله في أرضه ، وسراج يضيء بنور الحكمة لأهل الجهالة ، وهو الذي قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٥].

والرجل الآخر حكيم القلب يعمل بحكمة ، لم يفلح يفتح له المنطق بالحكمة وهو يفهم الحكمة بقلبه إذا سمعها ويعمل بها ، فهذا رجل منفعته لا تعـــدى نفسه ، وإنما ينفع أهل الإرادة بإرادته وما ظهر من فعله ، وأما الداعي لهم فقد نفعهم بما قد ظهر من فعله وإرادته[٤] ، وبما أبان من حجة ربه ، ونبه عليـــه من باطن حكمته ، وهي منازل الأنبياء والصديقين عليهم الســـلام ، وأهـــل العلم بالله لا يرضون لأنفسهم دون هذه المنزلة.

باب موعظة العبرة

وهي الشعبة الثالثة من اليقين.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشـــهاب ٢/ص١٢٤/ح١٠٢١ ، والحـــارث الهيثمـــي في مســـنده (الزوائد) ج٢/ص٩٦٨/ح١٠٧٠ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٢٥/ح٦٧٥.

(٤) في (أ) و(ب): وإبادته. مصحفة.

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: « فمن تأول الحكمة عرف العبرة » ، وذلك أن ميراث تأويل الحكمة موعظة العبرة ، وأهل الحكمة اعتبروا بالأمثال ، وما ضرب الله لهم في كتابه من ذكر الأمم قبلهم ، وما حركهم على الاعتبار به ، وعلموا أن ذلك لا يتم لهم إلا بإصلاح قلوبهم وإلا فأقاموا قلوبهم مقام الماء المعين تحت الأرض ، الذي لا يظهر إلا بكشط ما فوقه من التراب والحجارة. فنزعوا عن قلوبهم عند ذلك درن الذنوب المغطي لها بالتوبة الخالعة ، وعلموا أن القلب كالنار التي إن أمدت بالوقود وإلا خمدت ، وكذلك إن أمد [1] بالفكر والاعتبار والفهم عن الله بضرب الأمثال وإلا عمى وطغى ، فأقاموا أنفسهم عند ذلك في الاعتبار والإتعاظ والتيقظ بالفكرة ، حتى كأنهم قد امتحنوا مع من امتحن من الذين نزل بهم من الله ما نزل ، من القوارع والإستيصال ، وفهموا ما أريد بهم من الأمثال ، وما ذكروا من نعم الله عليهم ولطفه بهم ، إذ وعظهم بغيرهم ، ولم يكونوا هم عظة لغيرهم ، فدام شكر نعم الله في قلوبهم ، وحَسنُ بلاؤه عندهم ، فلجأوا إليه عند كل خطرة ولحظة ، وخافوه في السر والعلانية ، فأرضوه بالقيام له في كل ما أمرهم به ، وأستخطوا مَن دونه ليرضوه بسخطهم ، إذ علموا أنه يملك ضرهم ونفعهم ، وتحببوا إليه بأداء شكر نعمه ، وما مَنَّ به عليهم ، إذ لم يجعلهم عبرة لغيرهم ، وجعلهم المعتبرين بغيرهم ، فهم أولو الأبصار ، كما قال الله في قضية بني النضير إذ أجلاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ديارهم فقال: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر:٢] ، يقول: إذ عصوني وكفروا نعمتي ، فأبحت بذلك قتلهم وخراب ديارهم ، كانوا هم القاتلين لأنفسهم ، والمخربين ديارهم لمعصيتهم ، يقول: فاعتبروا أنه

(١) في (أ) و(ب): اتمد. إلا أن الحرف الأول من الكلمة مهمل. وفي (ج): أمدوا. ولعل الصواب ما أثبت.

كل من عصاني فاستحق في حكمي عقوبتي وناري فهـو القاتـل لنفســه ، والمخرب لحسده وداره ، تعرض لما يوجب ذلك في حكمي عليه.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد:١٩]، يعــني: ذوي العقول، وقال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال تعــالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبـراهيم:٤٥]، يقول: فاحذروا أن يترل بكم عند معصيتكم ما نزل بهم.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « نزل القرءان على أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال. فخذوا الحلال ، ودعوا الحرام ، وآمنوا بالمتشابه ، واعملوا بالمحكم ، واعتبروا بالأمثال يأهل المعرفة بــالله ، وتأدبوا بآداب الله الذي أمرهم ، وأنزلوا كل أدب في موضعه ، ولم يُقصِّروا فيما أمرهم به ربهم ، فكان لهم في كل شيء معتبر ، كما قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ - وهم أولوا الأبصــار - ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١] »[١].

وروي أن رجلا أتى إلى أبي حازم الأعرج فقال: « يا أبا حازم مــا شــكر العينين؟ قال: إن رأيت بهما خيرا أعلنته ، وإن رأيت بهما شرا سترته. قــال: وما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيرا أعلنته ، وإن سمعت بهما شــرا سترته. قال: وما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع بهما

---

(١) ورد بلفظ: ((اعربوا القرآن والتمسوا غرائبه ، وغرائبه فرائضه وحدوده ، فإن القرآن نزل علــى خمسة أوجه: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ، فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعــوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتــبروا بالأمثــال)). رواه المتقــي الهنــدي في كــتر العمــال ج٠/ص٠/ح٢٧٨٢.

حقا هو لله فيهما. قال: وما شكر البطن؟ قال: أن يكون فيه العلم والصبر، العلم باطنه، والصبر ظاهره، ويكون طعامه العلم، وشرابه الصبر. قال: وما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت بهما منيبا حسدته واستعملت بهما مثل عمله، وإن رأيت ميتا [١] مقتَّه وكففتهما عن مثل عمله. قال: فما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله عز وجل: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۞ ﴾ [المؤمنون:٦-٧، المعارج:٣٠ - ٣١]» [٢]، فإذا كنت كذلك كنت فاعلا ما فعلت لله مخلصا له لا لغيره، وأنت شاكر لله حق الشاكرين.

قال: وأما مَن شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه، فإنما مثله مثل رجل أعطاه الله كساء فأخذ طرفه وترك سايره، فلم ينفعه ذلك من البرد والثلج، فأهل المعرفة بالله اعتبروا بسلفهم من الصالحين، فأخذوا [٣] على مناهجهم وطريقهم فكانوا خلفائهم من بعدهم، وأشركهم الله في أعمالهم، وقال النبي صلى الله عليه وآله وفي حديث أبي ذر، وأنس بن مالك: «جاء إعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله متى الساعة؟! فقال النبي: ما أعددت لها يا أعرابي؟! فقال: ما أعددت كثيرا، من صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال له النبي صلى الله عليه وآله: من أحب قوما فهو معهم، ومن تشبه بقوم فهو منهم» [٤]، وكذلك من اهتدى بقوم اتبع

---

(١) في (ج): بها ميتا.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في (أ) و(ب): واتخذوا.

(٤) ورد عن أبي قتادة بلفظ: ((جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الساعة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فماذا أعددت لها؟ قال: حب الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم. قال: فأنت مع من أحببت)).

طريقهم ، ومن أحب قوما أحب أن يفعل كفعلهم ، وإن لم يشهدهم وجُعل معهم.

ثم استعمل أهل المعرفة والعبرة من غيرهم فشاهدوا ما فعل بهم بقلـــوبهم ، إذ أمرهم الله بذلك في كتابه وضربهم لهم مثلا ، كأنهم شاهدوهم ونظروا إلى ما أصابهم ، لقولــه: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم:٤٥]، ثم قال: ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس:١٠٢]، يقول: إما أن يترل الإستيصال أو الموت. وقال تعـــالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحـــزاب:٦٢]، يخبر بإهلاك قوم لـــوط: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود:٨٢-٨٣].

أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١٣٤٩/ح٣٤٨٥ ، وفي الأدب المفـــرد ج١/ص١٢٩/ح٣٥٢ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٠٣٢/ح٢٦٣٩ ، وابن حبـــان في صـــحيحه ج١/ص١٨٥/ح٨ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٣/ص١٤٩/ح١٧٩٦ ، والترمذي في ســـننه ج٤/ص٥٩٥/ح٢٣٨٥ ، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص١١٠/ح١٢٠٩٦ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٨٤/ح٢١٣١ ، والحميـــدي في مســـنده ج٢/ص٥٠٢/ح١١٩٠ ، والطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ج٣/ص١٨٣/ح٣٠٦١ ، والحارث الهيثمي في مســـنده (الزوائـــد) ج٢/ص٩٩١/ح١١٠٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٢١/ح٥٦٢٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج٥/ص١٤٧/ح٢٧٥٨ ، وعبـــد بـــن حميـــد في مســـنده ج١/ص٤٠٣/ح١٣٦٦ ، وابـــن الجعـــد في مســـنده ج١/ص٤٦٣/ح٣١٨٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٤٠/ح١٠٧.

قال أبو إمامة: عن النبي عليه السلام: « يصبح قوم من هذه الأمة على معازفهم وخمورهم ولهوهم ، فيصبحون وقد مسخوا قردة وخنازير ، فقال النبي عليه السلام: والذي نفسي بيده ليكون في هذه الأمة مسخ وخسف فف وقذف ، وليرسلن عليهم الريح العقيم ، وليرسلن عليهم بقية الحجارة التي أرسلت على قوم لوط » [١] ، والأخبار في هذا كثير وفيما قلنا معتبر لأولي الألباب ، ولأولي النهى والأبصار.

فأهل المعرفة بالله والاعتبار من شدة اعتبارهم قد شاهدوا ما أصاب القوم بقلوبهم ، وهم يخافون مع شدة اجتهادهم واعتذارهم [٢] أن يصيبهم مثلما أصابهم ، من شدة خوفهم ، ولما يعلمون من سالف دنوبهم ، فلما صاروا كذلك صاروا كأنهم كانوا معهم ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وعلى آله عهد إليهم في غير خبر ، روى أبو واقد الليثي ، وأبو هريرة ، وغيرهما: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر أو ذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم معهم. قيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن إلا هم » [٣] ، فخافوا أن يكونوا الذين عن

---

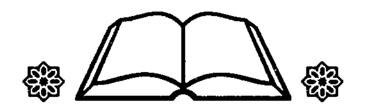
(١) ورد عن بن عباس بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ليبيتن قوم من هذه الأمة على طعام وشراب ولهو ، ويصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ص١٣٥/ح٢١٢٦٦ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٥٦١/ح٨٥٧٢ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٥٥/ح١١٣٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٢٥٦/ح٧٩٩٧ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١١٦/ح١٦٨.

(٢) في (ج): واعتبارهم.

(٣) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ستتبعون سنن من قبلكم باعا بباع ، وذراعا بذراع ، وشبرا بشبر ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم معهم. قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟! قال: فمن)).

النبي عليه السلام أن يفعلوا فعلا أو يقولوا قولا يلحقوا بهم ، فاشتد اعتبارهم وخوفهم فخلصوا أقوالهم وأفعالهم واعتقادهم ، وصفوه من الدنس والشبهة ، واستعملوا في ذلك كل اليقين والمعرفة ، فكانوا كما قال علي بن أبي طالـــب رضي الله عنه: « من عرف العبرة فكأنما كان في الأولين ».





أخرجـــه ابـــن حبـــان في صـــحيحه ج١٥/ص٩٦/ح٦٧٠٣ ، وابـــن ماجـــه في ســـننه ج٢/ص١٣٢٣/ح٣٩٩٤ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٨٩/ح٢١٧٨ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٧٥٩/ح٧٥٤.

باب العدل

وهو الدعامة الثالثة.

قال علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: « والعدل منها على أربع شعب: على غايص الفهم، وزهرة العلم، وشريعة الحكم، وروضة الحلم. فالعدل: هو القول بالحق كله على يقين أبوابه، في كل ما [كان] للعبد أو عليه، أو يقول بالعدل في جميع أحواله، ويؤثر الصدق حيث يضره على الكذب حيث ينفعه، فلا يقول إلا حقا، صابرا محتسبا ».

والعدل ينتظم جميع المعاني من القسط في العدل والحكم، والفعل من الأخذ والإعطاء، فيما للعبد [و] عليه، وأشرف درجة العبد الإنصاف من النفس في كل حال، حتى يقوم العبد بالإنصاف بنفسه، فيعطي غيره من نفسه ما يأخذه لنفسه من غيره، فإذا فعل المرء يدل ذلك قائما في درجة العدل، وكمال درجة العدل أن يرضى للناس ما يرضى لنفسه، وكما تحب أن يحسن إليك من أسأت إليه فأحسن إلى من أساء إليك، وكما يحب العبد أن يُحلم عنه إذا جهل، فكذلك يحلم هو عمن جهل عليه، وكما يحب أن ينصفه الناس في الأخذ والإعطاء فكذلك يجب عليه أن ينصف هو من نفسه، فإذا رضي للناس ما يرضى لنفسه، وأحب لهم ما يحب لنفسه، وكره لهم ما يكره لنفسه، فقد قام في درجة العدل.

وكذلك روي عن ابن مسعود، ووهب بن منبه، أنهما قالا: « التوراة والإنجيل والقرءان تدور على أن ترضى للناس ما ترضى لنفسك »[1]. وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ

(١) لم أقف عليه.

عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠]، وقال تعـــالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ [النساء:٥٨].

وروى سهل بن سعيد ، وأبو هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه: « كان يقسم غنائم بالجعرانة والذهب في حجرة بلال ، فجاءه رجل ثـــائر الرأس ، فقال له: يا محمد اعدل فوالله ما عدلت منذ اليوم!! فقال له النبي عليه السلام: ويلك إن لم أعدل عليكم فمن يعدل عليكم بعدي؟!» [1] ، وقـــال صلى الله عليه وآله وسلم: « لو أفاء الله عليكم مثل سمر تهامة نعما لقســـمته

(١) عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قفل من غزوة حنين رهقه الناس يسألونه فحاصت به الناقة فخطفت رداءه شجرة ، فقال: ((ردوا علـــي ردائـــي ، أتخشون علي البخل ، والله لو أفاء الله عليكم نعما مثل سمر تهامة لقسمتها بينكم ، ثم لا تجـــدوني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا ، ثم أخذ وبرة من وبر سنام البعير فرفعها ، وقال: ما لي ممـــا أفـــاء الله عليكم ولا مثل هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم ، فلما كان عند قسم الخمس أتاه رجـــل يستحله خياطا أو مخيطا ، فقال: ردوا الخياط والمخيط ، فإن الغلول عار ونار وشنار يوم القيامـــة)).

أخرجـــه البخـــاري في صـــحيحه ج٣/ص١٠٣٨/ح٢٦٦٦ ، وابـــن حبـــان في صـــحيحه ج١٣/ص٨٦/ح٥٧٧٢ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٨٤/ح١٦٨٢٤ ، والطبراني في معجمـــه الكبير ج٢/ص١٣٠/ح١٥٥٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص١٧/ح١٢٩٥٦ ، والطـــبراني في معجمـــه الأوســـط ج ٢/ص٢٤٢/ح١٨٦٤ ، وابـــن أبي الـــدنيا في مكـــارم الأخـــلاق ١/ص١١٥/ح٣٧٩.

بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا » [١] ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « ما لي مما أفاء الله عليكم إلا مثل هذه من الخمس ، ثم ضرب بيده إلى وبرة من بعير ، ثم قال: والخمس مردود عليكم » [٢].

قال: وروي عن الشعبي « أن عمر بن الخطاب كان بينه وبين أبي بن كعب خصومة فجعلا بينهما زيد بن ثابت فأتياه في بيته ، فقال له عمر: أتيناك في بيتك وفي بيته يؤتى الحكم ، فرفع عمر إلى صدر المجلس ، فقال له [٣] عمر: هذا أول جورك جررت [٤] في حكمك ، أجلسني أنا وخصمي مجلسا واحدا ، فقصا عليه القصة ، فقال زيد لأبي: اليمين علي أمير المؤمنين ، وإن شئت أعفيته ، فأقسم عمر ثم أقسم لزيد أنه لا يدرك مجلس العدل حتى لا تكون لي عندك على أحد من الناس فضيلة » [٥].

وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان « لو عدلت على أهل الأرض كلهم ثم جرت على رجل واحد لمال جورك بعدلك » [٦]. والأخبار في هذا تكثر.

فمن قام في درجة العدل أنصف الناس من نفسه واقتص لهم منها ، كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أقص أبا ذر من نفسه » [١]. وقال أبو

---

(١) هذا الحديث هو جزء من الحديث السابق.

(٢) أيضا هذا الحديث هو جزء من الحديث السابق.

(٣) في (أ) و(ب): فهذا له.

(٤) في (أ) و(ب): حررت.

(٥) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص١٣٦/ح٢٠٢٥٠ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٢٦٠/ح١٧٢٨.

(٦) لم أقف عليه.

هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « من كان عنده لأخيه مظلمة فليقص من نفسه ، أو ليتحللها منه ، قبل أن يقتصها منه في يوم لا دينار فيه ولا درهم »[٢] ، لا وإنما يقع القصاص حينئذ على جسده.

باب غايص الفهم

وهو أول شعب العدل. فغايص[٣] الفهم هو تأييد من الله يمن به على القابلين ينالون به غايص الفهم ، وهو تأييد ثواب الأعمال ، فقصدوا عند ذلك بفهمهم من العلم إلى ما أمرهم الله به ورسوله ، فلم يجاوزوه إلى غيره ، و لم يتكلفوا ويعتقدوا ويعنوا إلا بما صح عندهم من العلم ، و لم يتكلفوا علم ما لم يكلفوا علمه ، إذ علموا أن الله يسألهم عن تكلفهم ما لم يكلفهم ثم تكلفوا ، فخافوا عند ذلك فلم يجاوزوا محكم القرءان والسنة ، فما دلا من فروع العلم ، فواقفوا أنفسهم عند المتشابة من علمهم أنه غير ناقض للمحكم ، ثم يحثوا عن العلم الذي اختلف فيه أهل الجهل ، فأصابوا حقيقته بغايص فهمهم من محكم كتاب ربهم ، وسنة نبيهم ، وفِطَرِ عقولهم الذي احتج الله به على خلقه

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ج٩/ص٤٢/ح١٧٦٨٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص١٧٦/ح١٩٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٦/ص١٢٤/ح٣٠٠٠١ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج٣/ص٣٨٣/ح٦٠٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ص٨٦٥/ح٢٣١٧ ، وابن حبان في صحيحه ج١٦/ص٣٦٢/ح٧٣٦١ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦١٤/ح٢٤١٩ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٨٠٧/ح٢٤١٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٣٥/ح٩٦١٣ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٠٥/ح٢٣٢١ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٢١٨/ح٣٤٨ ، والطبراني في مسند الشاميين ج٢/ص٢٧٣/ح١٣٢٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٣٦٩/ح٦٣٠٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج١١/ص٤١٤/ح٦٥٣٩ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٤٠٧/ح٢٧٧١ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص١٩١.

(٣) في (أ) و(ب): بفايص.

، وما أقام به من دلالته في سماواته وأرضه ، فجلوا بذلك عن أنفسهم ظُلم العماية ، وكانوا نورا يُستضاء بهم ، وأئمة يقتدى بهم ، فخضلوا [(١)] الصعفة من حيرتهم ، وكانوا دعاة إلى ربهم ، وكانوا هم القُوام لله بقسطه في عبيده ، المعبرين عن كتابة وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن حجج الله القائمة في سماواته وأرضه ، وما بين ذلك من أصناف صنعه ، فأولئك هم الذين أمر الله بطاعتهم ، وهم العترة الطاهرين من ذرية نبيكم ، وأقامهم أئمة يهدون بأمره ، وأمر الخلق كلهم أن يسألوهم إذا جهلوا ، وأن يردوا إليهم علم ما اختلفوا فيه ، لأنهم أهل الإستنباط من أهل البحث والنظر ، الذين أمر الله بالرد إليهم ، بقوله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء:٥٩]، قال مجاهد ، وعطاء: « الفقهاء والعلماء من آل محمد » [(٢)]. وقال: ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل:٤٣، الأنبياء:٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [النساء:٨٣]، فهم الذين علموا علم الكتاب والسنة ، وعرفوا مواقع حجج الله على خلقه في سماواته وأرضه ، وكلما اختلف فيه خلقه ، فأورثهم العلمُ بذلك غايص الفهم ، وكلما نزلت نازلة من خبر شبهة ، وإحداث بدعة ، رجعوا إلى كتاب الله وسنة نبيه والحجج القائمة ، فغاصوا بالفهم فوجدوا ذلك كذلك باستنباط

---

(١) في (أ) و(ب): فحملوا الضعفة من حيرتهم. وفي (ج): فخلصوا الضعفة من أيدهم. ولفقت النص من الجميع.

(٢) أخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد قال: ((هم الفقهاء والعلماء)). وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عنه قال: ((أصحاب محمد ، أهل العلم والفقه والدين)). الدر المنثور ٢/٥٧٥.

غوصهم ، وليس ذلك لغيرهم من أهل الجهل ، الذين يضلون بغير علـــم ولا كتاب مبين ، فإذا كانوا كذلك وقاموا في درجة الفهم عن الله ثبَّت الله قلوبهم بتأييده ، وأمدهم بمعونته ، وعصمهم من الزيغ والشبهة بعصمته.

وقد أخبرنا الله عز وجل أنه قد كفى عباده ما يحتاجون إليه بقولــه: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨] ، وفيــه مبينــات كــل شــيء ، فالمدركون له علماء آل محمد عليهم السلام.

وقال في التكليف لنبيه عليه السلام قل يا محمــد: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص:٨٦]. وروي عن عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « قد ربما ضر المتكلف نفسه »[1] ، وقال: « المتكلف لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى »[2] ، ثم قال عز وجل: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

وقال عمر بن الخطاب ، وابن عباس: « لقد اتخذنا يومها عيدا ، نزلت ليلة الجمعة عشية عرفة »[3] ، وقال تعالى: فأ ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ورد عن ابن عباس بلفظ: ((أنه تلا هذه الآية ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وعنده رجل من اليهود ، فقال: لو أنزل علينا هذا لأتخذنا يومها عيدا. فقال ابن عباس: لقد أنزلت في يوم الجمعة ، يوم عرفة أو عشية عرفة)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٤/ص١٦٠٠/ح٤١٤٥ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٣١٣/ح٣٠١٧ ، والنسائي في سننه ج٥/ص٢٥١/ح٣٠٠٢ ، وابن حبان في صحيحه ج١/ص٤١٤/ح١٨٥ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٢٥٠/ح٣٠٤٤ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٥٣/ح٢٧٠٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص١٨٥/ح١٢٨٣٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٢/ص٤٢١/ح٣٩٩٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٢٥٣/ح٨٣٠.

شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] ، وقال أبو ذر: « قبض النبي عليه السلام وما ترك لنا طائرا يقلب بجناحيه في الهواء إلا أنبأنا من ذلك علما ، عَلِمَه مَن عَلِمَه ، وجهله من جهله »[١].

ومحال أن يكون أمر بترك الأمة يحتاجون إلى ذلك العلم فيه ، ولا يكون موجودا عند أهل الاستنباط المعتبرين عن الله ، بحججه القائمة على خلقه ، غير أنهم سُوَّاسُ لذلك العلم الذي فهموه عن ربهم ، ولا يخرجون منه إلا بقدر ما يحتاجون إليه ، ولا يكلمون الخلق إلا بما يفهمونه عنهم ، ولا يعنتون[٢] عقولهم فيحملون عليها من العلم ما لا تفهمه ، فتنحل قوى عقولهم عند ذلك ، ويكونوا هم سبب تحيرهم ، ولكنهم لما فهموا عن ربهم أنه فَضَّل بعض خلقه على بعض ، كلفوا كلا على قدر طاقته ، وما يحمله وسعهم ، وبهذا الأدب جاء الخبر عن نبينا صلى الله عليه وأئمة الهدى من آله.

وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: « كلموا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله »[٣] ، وكذلك روي عن زيد بن ثابت أنهم أتوه في مسألة فقال لهم: « هل وقعت؟ قالوا: لا ، قال: فلم تسألون عنها قبل وقوعها؟! قالوا: نسأل لنعلمها ، فإذا وقعت أجبنا فيها. فقال زيد: إذا علم الله الصدق من قولكم عند وقوع المسألة وفقكم للسداد ، حتى تقولوا فيها بصواب الحق »[٤]. وكان عبد الله بن مسعود إذا سؤل عن

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (أ) و(ب): يعنتوا.

(٣) قال علي: ((حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله)). أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص٥٩/ح١٢٧.

(٤) لم أقف على هذه الرواية.

مسألة قال: « أوقعت؟ فإن قالوا: لم تقع ، قال: لا أجيب فيها »[١] ، وقــد اختلف الناس إليه في تزويج ابنه واشق حتى قال: وقال عمر بن الخطاب: نعوذ بالله أن يترل بنا معضلة لا نعد لها علي بن أبي طالب.

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: « إن هاهنا لعلما جماً لو أجد له حملة »[٢]. وأهل غايص الفهم الذين لا يتكلفون بنطق ما لم يكلفوا النطق فيه ، ولا يسألون عما لم تقع ، فإذا وقع الشيء لزمهم النطق فيه بالعلم ، فوجــدوه في الكتاب والسنة والأدلة القائمة ، ولم يقولوا في دين الله وأحكامــه وشــرائعه برأيهم وقياسهم ، بل يغوصون عليه بغايص فهمهم ، حتى يخرجونــه مــن الكتاب والسنة ، كما ذكر ذكك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين أراد عمر أن يرجم امرأة أتت بولد لستة أشهر ، فقــال: « إن خاصــمتكم بكتــاب الله خصــمتكم ، قــال الله: ﴿ حَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف:١٥] ، فخلا عمر سبيلها »[٣].

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[٤] ، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: « قيمة كل أمرء ما يحسنه ، اغد عالما أو متعلما ولا تكن الثالث فتهلك »[٥] ، فهكذا صفة أهل الاستنباط والبحث والنظر بغايص الفهم ، وهو الذي عنى أمير المؤمنين علــي بــن أبي طالب رضي الله عنه ، فبذاك فليقتد أهل العلم بالله والخشية.

---

(١) لم أقف على هذه الرواية.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم /٤٩٦.

(٣) رواه المتقي الهندي في كتر العمال ج٠/ص٠/ح١٤٥٠٨.

(٤) أخرجه أبو طالب في أماليه /٢٠٢(١٣٨)،والمرشد بالله في أماليه ١/ ٥٧ ، ٦٨ ، والكلــيني في الكافي ١/٣٠ ، والطوسي في أماليه /٤٨٧.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم /٨١.

باب زهرة العلم

وهو الشعبة الثانية من العدل ، فزهرة العلم الباطن الذي قد رسخ في القلب من خشية الله ، وهو رأس العلم وزهرته ، وذلك أن العلم بالله يؤدي إلى خشية الله ، والعمل بالعلم على ما وصفناه إنما هو الاقتداء بالكتاب والسنة ، وما أقام الله من الدلالة مع إصابة الحق فيه ، وإصابته على ما شرحناه وبيناه ، ونزيد في ذلك بيانا إن شاء الله تعالى ، ، قال الله جل ذكره: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، ثم قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩]، ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: إلى محكم كتابه ، وما أقام الله من أدلته ، وإلى ﴿ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي: إلى سنته الجامعة ، إذا لم يكن من العترة من يُرد إليه ، لأن الكتاب والسنة والعترة الطاهرة أما في أهل الخشية الذين يلجئون إليه عند كل شبهة وفتنة ، بوذلك جاء الخبر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « إنها ستكون فتنة ، قلت يا: رسول الله فما المخرج منها لمن فتن؟ قال: كتاب الله في خبر ما قبلكم ، وحكم ما يأتيكم ، فمن ابتغى الهدى في غيره ، أو سأل عنه غير أهله أضله الله ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن اهتدى به هدي ، ومن دعا إليه هدوا إلى صراط مستقيم »[1].

---

(١) عن معاذ بن جبل قال: ((ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما الفتن فعظهما وشددها ، فقال علي بن أبي طالب: يا رسول الله فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله فيه حديث ما قبلكم ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن تتبع الهدى في غيره أضله

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهداية هدي محمد صلى اله عليه وآله الطيبين ، وشر الأمور محدثاتها »[1] ، وقال ابن مسعود: « إن الله شرع لنبيه عليه السلام سنن الهدى ، وأهل الخشية لله لا يجاوز عملهم الكتاب والسنة ، والأعلام القائمة الداعية إلى الله من العترة ، الذين لا يتكلفون من العلم ما لم يكلفوا ، ولا يتكلمون فيما كلفوا إلا في موضعه ، ولا يضعونه إلا في أهله ، لأنهم علماء بالعلم والسياسة للعلم ، ويعملون لله بالعلم في السر والعلانية ، فإذا كانوا كذلك أورثهم الله زهرة العلم ؛ وهو العلم الباطن الذي هو فهم القلوب لكل معتبر به وصاحب العبرة فيه ، ومن استخراجهم له من[2] البرهان ، وحشاه من الدلالة عليه فيورثهم ذلك النطق بالحكمة ، والعبادة عنها والدعاء لمن حد عنها إليها ،

الله ، هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المسقيم ، هو الذي لما سمعته الجن قالت: ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴾ ، هو الذي لا تختلف به الألسن ولا تخلقه كثرة الرد)).

أخرجه الترمذي في سننه ٥/ص١٧٣/ح٢٩٠٦ ، والطبراني في معجمه الكبير ٢٠/ص٨٥/ح١٦٠ ، والدارمي في سننه ٢/ص٥٢٨/ح٣٣٣٢.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ص٢٢٦٢/ح٥٧٤٧ ، والنسائي في سننه ج٣/ص٥٨/ح١٣١١ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٣/ص١٤٣/ح١٧٨٤ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص١٨/ح٤٦ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٠٢/ح٢٧٤٩ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص١٩٩/ح٢٧٤٤ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٤٥/ح٣٣٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٣٠٥/ح٨١٤٨ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٣٩٠/ح١٢٣٤ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٢٦٤/ح١٣٢٥ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٢١٥/ح٥٥٩٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج٩/ص١٦٨/ح٥٢٥٧ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٣٠/ح٨٨ ، والشافعي في مسنده ١/ص٦٧/ح٠ ، والدارمي في سننه ج٢/ص١٩١/ح٢٢٠٢ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص١١٢/ح١٤٢٠.

(٢) في (أ) و(ب): ومن استجزا به له من. مصحفة.

وذلك أن العلم عِلمان » (١) ، كما روى الحسن عن النبي صلى الله عليه: « العلم عِلمان ، فَعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم ، وعلم في القلب فَذلكَ العلم النافع » (٢).

وقال سليمان رحمة الله عليه لرجل من بني عبس حين صحبه: « يا أخا بني عبس انزل فاشرب من ماء دجلة ، فقال لي سليمان: كم نقص شربك؟ قال: قلت فما عسى أن ينقص شربي من ماء دجلة؟! قال: فكذلك العلم لا يفنى فعليك بما ينفعك » (٣) ، وروى أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله في

---

(١) ورد في رواية عن ابن مسعود أنه قال: ((من سره أن يلقى الله غدا مسلما فليحافظ على هذه الصلوات المكتوبات حيث ينادي بهن فإنهن من سنن الهدى وإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى ولعمري ما إخال أحدا منكم إلا قد اتخذ من بيته مسجدا ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ولو تركتم سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم لضللتم ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم أو معروف نفاقه ولقد رأيت الرجل يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف فما من رجل يتطهر فيحسن الطهور فيخطو خطوة يعمد إلى المسجد من المساجد إلا كتب الله له بها حسنة ورفعه بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى إن كنا لنقارب في الخطا)).

أخرجه مسلم في صحيحه ج١/ص٤٥٣/ح٦٥٤ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص٢٥٦/ح٧٧٧ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٨٢/ح٣٦٢٣ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٤٢/ح٣١٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٩/ص١١٦/ح٨٥٩٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٢٩٧/ح٩٢٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٥٩/ح٤٧٣١ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ١/ص٥١٦/ح١٩٧٩.

(٢) عن الحسن قال: ((العلم علمان فعلم في القلب فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على بن آدم)). أخرجه الدارمي في سننه ج١/ص١١٤/ح٣٦٤ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج٧/ص٨٢/ح٣٤٣٦١.

(٣) ورد عن رجل من بني عبس أنه قال: ((صحبت سلمان فأتى على دجلة فقال: يا أخا بني عبس انزل فاشرب ، قال: فنزلت فشربت ، ثم قال: يا أخا بني عبس انزل فاشرب ، قال: فنزلت

حديث الخضر عليه السلام حين قال لموسى صلى الله عليه وآله وسلم: « إنك لعلى علم من علم الله لم يعلمنيه ، وأنا على علم من علم الله لم يعلمكه » (١) ، فذلك قوله: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف:٨٢] ، فهو الباطن وهو العلم النافع ، وهو العلم بباطن الأمور ، خفي سرها وعلم مخزونها ، وهو المورث لخشية الله في السر والعلانية. ومصداقه ما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة:٢٧]، وقال: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١].

وقد سمى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العلم بالله رأس العلم حين سأله الأعرابي فقال: « يا رسول الله علمني من غرائب العلم؟ فقال له النبي: ما قد صنعت في رأس العلم؟ فقال: يا رسول الله ما رأس العلم؟ قال: معرفة الله حق معرفته ، ثم قال النبي عليه السلام: اذهب فتعلم رأس العلم ، ثم قال: تعال

فشربت ، ثم قال: ما أفنى شرابك من هذا الماء؟ قلت: وما عسى أن يفنى. قال: كذلك العلم فعليك منه بما ينفعك ، ثم ذكر ما فتح الله على المسلمين من كنوز كسرى ، فقال: إن الذي أعطاكموها وفتحها لكم وخولكموه للمسك خزائنه ومحمد حي ، لقد كانوا يصبحون وما عندهم دينار ولا درهم ولا مد من طعام ، فبم ذاك يا أخا بني عبس ، ثم مر ببيادر تذرى فقال: إن الذي أعطاكموه وخولكموه وفتحه لكم لمسك خزائنه ومحمد حي ، لقد كانوا يصبحون وما عندهم دينار ولا درهم ولا مد من طعام فبما ذاك)).

أخرجه الطيالسي في مسنده ١/ص٩١/ح٦٥٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٦/ص٢٦٥/ح٦١٧٣ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص ٩٩٥/ح ١١١١ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٣٦/ح١٢٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص١٢٢/ح٣٤٦٧٣.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ص١٧٥٦/ح٤٤٤٩ ، والحميدي في مسنده ج١/ص١٨٤/ح٣٧١ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٣٩١/ح١١٣٠٨.

فتعلم من غرائب العلم ، فرأس العلم معرفة الله »[١] ، وهي خشيته لأن من خشي الله عرف الله خشيى على قدر معرفته ، وهو العلم النافع ، وهو أول علم الباطن ، لأن الله جل ذكره ليس مما يُخيَّل وإنما يُعلم بالأدلة والنظر فيما ذرأ من خلقه ، وبث من آياته ، وذلك كله علم ويقين بباطن وغيب ، يقوم عند أهل اليقين مقام المعاينة ، بما قد سخوا فيه من العلم بما دلت عليه الحجة القاهرة ، والأعلام الظاهرة.

ثم المترلة الثانية من علم الباطن: العلم الباطن لذات باطنه ، فمن كان من أهل الباطن وحصلت له هذه المترلة كان عمله عمل السر ، لأن أهل السر لا يعبدون بعمل ظاهر ، لعلمهم بما يدخل فيه من الآفات المفسدة له ، والمصرفة له[٢] عن جهة الإعلان به ، فإن كان فرضىً ، ولهم أيضا في ذلك من تضاعف الأعمال كما روي[٣] الفضل ، وذلك أن « أعمال السر تضاعف على عمال العلانية بسبعين ضعفا »[٤] ، كما جاء في الخبر ، وقال الله جل ثناؤه وقال الله جل ثناؤه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [البقرة:٢٦٥]، فهذا التثبيت هو إسرار العمل وإرادة الله به مخلصا. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٧١] ، فأخبر جل ثناؤه أن إخفاء العمل خير لهم ، لعلمه بما في إظهاره عليهم من الفتنة والفساد ، وما

---

(١) أخرجه السيد أبو طالب في أماليه /٢٠٩(١٤٩) ، والإمام الموفق بالله في الاعتبار وسلوة العارفين /٢٤٨ (٣١٦).

(٢) سقط من (أ) و(ب): له.

(٣) في (أ) و(ب): فرضى ، فلما أيضا في ذلك من تضاعف الفضل وذلك.

(٤) عن عائشة قالت: ((الذكر الخفي الذي لا يكتبه الحفظة ، يضاعف على ما سواه من الذكر سبعين ضعفا)). أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ج٦/ص٨٥/ح٢٩٦٦٤.

يلحق الأعمال من الرياء والعجب وحب السمعة والإمتنان ، الذي يحبطهـا ويبطل أجورها ، وكـذلك قـال تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:٢٦٤] ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « حسبي الذكر الخفي »[١]. وعن أبي هريرة رواه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، رجل تصدق بصدقة فأخفى عن شماله مـا تنفـق بيمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله ... »[٢].

---

(١) عن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((خير الـذكر الخفـي ، وخير الرزق أو العيش ، ما يكفي)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج٣/ص٩٢/ح٨٠٩ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص١٧٢/ح١٤٧٧ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٢١٧/ح١٢١٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٨٢/ح٧٣١ ، وعبـد بـن حميـد في مسـنده ج١/ص٧٦/ح١٣٧ ، وعبـد الـرزاق في مصـنفه ج٧/ص٨٤/ح٣٤٣٧٧.

(٢) عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظـل إلا ظله ، إمام عدل وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابـا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقـال: إني أخـاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضـت عيناه)).

أخرجه مسلم في صحيحه ج٢/ص٧١٦/ح١٠٣١ ، والبخاري في صحيحه ج١/ص٢٣٥/ح٦٢٩ ، والنسائي في سننه ج٨/ص٢٢٣/ح٥٣٨٠ ، وابن حبان في صحيحه ج١٠/ص٣٣٩/ح٤٤٨٦ ، وابن خزيمة في صحيحه ج١/ص١٨٦/ح٣٥٨ ، والترمذي في سـنه ج٤/ص٥٩٩/ح٢٣٩١ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٣٩/ح٩٦٦٣ ، ومالـك في الموطـأ ج٢/ص٩٥٣/ح١٧٠٩ ، والطيالسـي في مسـنده ج١/ص٣٢٣/ح٢٤٦٢ ، والطـبراني في معجمـه الكـبير ج٨/ص٢٤٠/ح٧٩٣٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٤٦١/ح٥٩٢١ ، والبيهقي في سننه

فمن كان عمله سرا كان ذلك دليلا منه على الإيقان بالغيب ، ويقينا منه لخالقه ، وما ندبه إليه من دار كرامته علم باطن وهو محض اليقين ورأس الخشية ، قال الله جل ثناؤه: و ﴿ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [لقمان:٤-٥].

وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة » [١] ، والأخبار في ذلك تكثر ، فذلك زهرة العلم علم الخشية ، وهو علم الباطن لعمل الباطن لدار باطنة وهي الآخرة ، ولا توصل إلى اليقين بها إلا بما ذكرناه من العلم بخالقها ، واليقين بقدرة مُوعِدِها [٢] ، والعمل الذي يراد به ظاهر الدنيا ، فهو علم ظاهر على اللسان ، يرا بأعمال [٣] تعمل ظاهرة وهو التصنع للمخلوقين لدار ظاهرة وهي الدنيا ، فهذا العلم هو مثل العلم بالكلام والنحو والعتب والأحكام ، ليعلو بها العبد ويرتفع بها في الدنيا عند الناس والسلاطين ، وغيرهم من أبناء الدنيا ، وكذلك يعلم أهل هذه الطبقة بسائر العلوم ، وإنما أرادوا به العلو والكثرة في العاجلة ، دون التقرب إلى الله والعمل له لدار الآخرة ، فهم العلماء السوء ، كما قال عيسى بن مريم: « ويلكم يا علماء السوء قعدتم على باب الجنة فلم تدخلوها و لم يَدَعوا غيرهم يدخلها » [٤] ، وقال النبي صلى الله

الكبرى ج٣/ص٦٦/ح٤٧٦٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص١٢١/ح٣٤٦٦٦،والطبراني في معجمه الأوسط ج ٦/ص٢٥١/ح٦٣٢٤.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ص٢٣٥٧/ح٦٠٥١ ، وابن حنبل في فضائل الصحابة ٢/ص٧٩٨/ح١٤٢٩ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص١٧٣/ح١١١٦.

(٢) في (ج): موعودها والعمل.

(٣) كذا في المخطوطات.

(٤) لم أقف على هذا النص في الإنجيل.

عليه وآله وسلم: « يا علماء السوء لا تأخذوا مما تعلمون أكثر مما أعطيتموه ، ويا ملح الأرض لا تفسدوا ، فإن كل شيء إذا فسد دُوي بالملح وإن الملح إذا فسد لم يكن له دواء »[1] ، وقال عيسى عليه السلام: « ويلكم يـا علمـاء السوء مثلكم مثل الدِّفلى[2] زهرها حسن ويقتل ضرها من يأكلها »[3].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة:١٥٩]، وقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة:١٦٠]، فجعل توبتهم على شريطة ألا تقبل منهم إلا بالبيان لما كتموا، وقال تعالى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [المائدة:٦٣]، وقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٧].

---

(١) قال عيسى عليه السلام: انتم ـملحـ الارض. ولكن ان فسد الملح فبماذا يملح. لا يصلح بعد لشيء الا لان يطرح خارجا ويداس من الناس. إنجيل متى ٥:١٣.

وقال عليه السلام: الملح جيد. ولكن اذا صار الملح بلا ملوحة فبماذا تصلحونه. ليكن لكم في انفسكم ـملحـ وسالموا بعضكم بعضا. إنجيل مرقس ٩:٥٠.

(٢) الدفلى: شجر من أخضر حسن المنظر وهي من السموم.

(٣) لم أقف على هذه الرواية في الإنجيل.

وقال غير واحد من أهل العلم: « إنهم أخذوا به الدنيا » [١] ، وقال أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمعته يقول: « أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان » [٢].

وقال الحسن: قرأ القرءان ثلاثة وتعلم العلم ثلاثة ، رجل قرأ القرءان وتعلم العلم فاتخذه بضاعة ينقله من مصر إلى مصر ، يستأكل به الناس.

وقوم قرأوا القرءان وتعلموا فاستدروا به الولاية ، واستطالوا به على أهل بلادهم. قد كثر هذا الضرب في حملة القران. لا كثّر الله أهل هذا الضرب.

وقوم قرأوا القرءان وتعلموا العلم فهم كما قال الله بعد استعمالهم لما تعلموا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢] ، فهؤلاء في حملة القرءان ، والعلم أعز وأقل من الكبريت الأحمر. أحيا الله بهم الدين وأطفأ بهم جور الظالمين.

وقد روي أن ابن عجلان قال: قوم قرأوا القرءان وتعلموا العلم حتى إذا أحكموهما جميعا عمد أحدهم إلى الدنيا فجعلها على رأسه وضمها إلى نحره ، فرءاه ثلاثة من الناس: رجل أعمى ، وامرأة ضعيفة ، وأعرابي جاهل ، فقالوا: فلان أقرأ لكتاب الله منا ، وأعلم بسنة نبيه منا ، لو لا أنه رأى في الدنيا ذخيرةَ خيرٍ ما جمع منها ما جمع ، ولا ادخر منها ما ادخر ، فاجمعوا كما جمع ، وادخروا كما ادخر ، فمثله كما قال الله: ﴿ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت:١٣] ، وقال عز وجل: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه ابن حنبل في مسنده ١/ص٢٢/ح١٤٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٨/ص٢٣٧/ح٥٩٣.

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل:٢٥] ، وقال جل ثناؤه: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [النجم:٢٩ - ٣٠].

وقال أبو حازم للزهري حين دخل على عبد الملك: « كانت الأمراء تأتي العلماء إلى بيوتهم ، ويقتبسون من علمهم ، وكان في ذلك صلاح للراعي والرعية ، فلما رأى ذلك سفلة الناس وأنذالهم ، تعلموا العلم للدنيا ، فصارت العلماء تأتي الأمراء إلى بيوتهم ، وكان في ذلك هلاك الراعي والرعية » [١].

---

(١) عن الضحاك بن موسى قال: ((مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة فأقام بها أياما فقال هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له أبو حازم فأرسل إليه فلما دخل عليه قال له يا أبا حازم ما هذا الجفاء قال أبو حازم يا أمير المؤمنين وأي جفاء رأيت مني قال أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني قال يا أمير المؤمنين أعيذك بالله ان تقول ما لم يكن ما عرفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك قال فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب الزهري فقال أصاب الشيخ وأخطأت قال سليمان يا أبا حازم مالنا نكره الموت قال لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكرهتم ان تنتقلوا من العمران إلى الخراب قال أصبت يا أبا حازم فكيف القدوم غدا على الله قال أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله واما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه فبكى سليمان وقال ليت شعري مالنا عند الله قال اعرض عملك على كتاب الله قال وأي مكان أجده قال إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم قال سليمان فأين رحمة الله يا أبا حازم قال أبو حازم رحمة الله قريب من المحسنين قال له سليمان يا أبا حازم فأي عباد الله أكرم قال أو لو المروءة والنهى قال له سليمان فأي الأعمال أفضل قال أبو حازم أداء الفرائض مع اجتناب المحارم قال سليمان فأي الدعاء أسمع قال أبو حازم دعاء المحسن إليه للمحسن قال فأي الصدقة أفضل قال للسائل البائس وجهد المقل ليس فيها من ولا أذى قال فأي القول أعدل قال قول الحق عند من تخافه أو ترجوه قال فأي المؤمنين أكيس قال رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها قال فأي المؤمنين أحمق قال رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه غيره قال له سليمان أصبت فما تقول فيما نحن فيه قال يا أمير المؤمنين أو تعفني قال له سليمان لا ولكن نصيحة تلقيها

إلي قال يا أمير المؤمنين ان آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشـورة من المسلمين ولا رضا لهم حتى قتلوا منهم مقتله عظيمة فقد ارتحلوا عنها فلو شعرت ما قالوه وما قيل لهم فقال له رجل من جلسائه بئس ما قلت يا أبا حازم قال أبو حازم كـذبت ان الله أخـذ ميثاق العلماء ليبينه للناس ولا يكتمونه قال له سليمان فكيف لنا ان نصلح قال تدعون التصـلف وتمسكون بالمروءة وتقسمون بالسوية قال له سليمان كيف لنا بالمأخذ به قال أبو حازم تأخذه من حله وتضعه في أهله قال له سليمان هل لك يا أبا حازم ان تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك قال أعوذ بالله قال له سليمان و لم ذاك قال أخشى أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات قال له سليمان أرفع إلينا حوائجك قال تنجيني من النار وتـدخلني الجنـة قـال سليمان ليس ذاك إلي قال أبو حازم فمالي إليك حاجة غيرها قال فادع لي قال أبو حازم اللهم ان كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة وان كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى قال له سليمان قط قال أبو حازم قد أوجزت وأكثرت ان كنت من أهله وان لم تكن من أهله فما ينفعني ان أرمي عن قوس ليس لها وتر قال سليمان أوصي قال سأوصيك وأوجز عظم ربك ونزهه ان يراك حيث نهاك ويفقدك حيث أمرك فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار وكتب إليـه ان أنفقها ولك عندي مثلها كثير قال فردها عليه وكتب إليه يا أمير المؤمنين أعيذك بالله ان يكـون سؤالك إياي هزلا أو ردي عليك بذل وما أرضاها لك فكيف أرضاها لنفسي وكـتـب إليـه ان موسى بن عمران لما ورد ماء مدين وجد عليها رعاء يسقون ووجد من دونهم اريـتين تـزودان فسألهما فقالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير وذلك انه كان جائعا خائفا لا يأمن فسأل ربه و لم يسأل الناس فلم يفطن الرعاء وفطنت الجاريتان فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله فقال أبوهمـا وهـو شعيب هذا رجل جائع فقال لإحداهما فادعيه فلما أتته عظمته وغطت وجههـا وقالـت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فشق على موسى حين ذكرت أجر ما سقيت لنا و لم يجد بـدا من ان يتبعها انه كان بين الجبال جائعا مستوحشا فلما تبعها هبت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها فتصف له عجيزتها وكانت ذات عجز وجعل موسى يعرض مرة ويغض أخرى فلما عيـل صبره ناداها يا أمة الله كوني خلفي وأريني السمت بقولك ذا فلما دخل علـى شـعيب إذ هـو بالعشاء مهيأ فقال له شعيب اجلس يا شاب فتعش فقال له موسى أعوذ بالله فقال له شعيب لم أما

وقال وهب بن منبه: « كان أهل العلم ممن كان قبلكم استغنوا بعلمهم عـــن دنيا غيرهم فزهد أهل العلم في دنياهم رغبة في علمهم ، وأهل العلـــم اليـــوم بذلوا علمهم رغبة في دنيا غيرهم فزهد أهل الدنيا في علمهم ، لسوء موقعـــه عندهم »[١]. وذكر أن الحسن مر على باب من أبواب الملوك الجبابرة فـــرأى أقواما عليهم زي النسك فقال لهم: ما لي أراكم شمرتم ثيـــابكم ، وجـــززتم شعوركم ، وقصرتم أكمامكم ، فضحتم القرءان فضحكم الله ، ثم قال: أمـــا والله لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم ، قوموا فتفرقوا فرّق الله بـــين أجسادكم وأرواحكم.

وروي أن عيسى بن مريم عليه السلام عاب علماء عدلوا عن الحق ، فقال: « علماء السوء يصفون البعوض من شراركم ويزدردون الجمـــال بأحمالهـــا ، يصلون الصلاة في زوايا المساجد ، ويأكلون من ذخائر الأرامل[٢] ، ويوقدون في قبور الأنبياء ، مراتب اليتامى تكرمة لهم ويحمل أحدكم العشر على ظهـــر أخيه ولا يمسه بيده ، يا أشباه القبور المجصصة ، أعلاها حسن ، وفيها النتن »[٣]. وقال أيضا في حديث آخر: « يلبسون مسوك الضأن في قلوب الذياب ، ألسنتكم أحلى من السكر ، وقلوبكم أَمَرُّ من الصبر »[٤] ، والأخبار في هذا

أنت جائع قال بلى ولكني أخاف ان يكون هذا عوضا لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبيـــع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا فقال له شعيب لا يا شاب ولكنها عادتي وعادة آبـــائي نقـــريء الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى فأكل ان كانت هذه المائة دينار عوضا لما حـــدثت فالميتـــة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحل من هذه وان كان لحق في بيت المال فلي فيها نظـــراء فإن ساويت بيننا وإلا فليس لي فيها حاجة)). أخرجه الدارمي في سننه ج١/ص١٦٣/ح٦٤٧.

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (ب): الأنامل. مصحفة.

(٣) لم أقف على هذا النص في الإنجيل.

(٤) لم أقف على هذا النص في الإنجيل.

تكثر ، فهذا دليل على الظاهرة ، وهو العلم الذي قال النبي عليه السلام: « علم في اللسان وميراثه النفاق »[١] ، كما قال أيضا: « أكثر منافقي أمتي قراؤها »[٢] ، في حديث حذيفة. فهذا ميراث أهل العلم الظاهر ، الطالبين به الرياء والسعة ، إذ أعمالهم للدنيا ظاهرة والتصنع لأهلها ، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٤] ، وكما قال: ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٧] ، وقال: و ﴿ مَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة:٣٨] ، ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء:٧٧] ، وقال المسوردي أخو بني فهر: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « والذي نفسي بيده ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يبل أحدكم إصبعه السبابة في اليم فلينظر بم ترجع إليه »[٣]. وقد فسرنا زهرة العلم والله محمود. وعلم الباطن

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه ابن حنبل في مسنده ٢/ص١٧٥/ح٦٦٣٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص١٧٩/ح٤٧١.

(٣) ورد عن المستورد الفهري بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في البحر فلينظر بم يرجع)).

أخرجه مسلم في صحيحه ج٤/ص٢١٩٤/ح٢٨٥٨ ، وابن حبان في صحيحه ج١٠/ص١٧٤/ح٤٣٣٠ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٥٦٢/ح٢٣٢٣ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٧٦/ح٤١٠٨ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٢٢٩/ح١٨٠٣٧ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٦٨٤/ح٦٥١٠ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٧٨/ح٨٥٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٠/ص٣٠١/ح٧١٣ ، وفي معجمه الصغير ج١/ص٣٢٩/ح٥٤٥ ، والقضاعي

وفرقنا بين علم الباطن وعلم الظاهر ، فذلك معنى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « فمن فهم » فسر جمل العلم ، وأهل الفهم هم أهل زهرة العلم ، وهم الخلفاء من أهل بيته ، المعبرون عن آياته وبيناته.

باب شريعة الحكم

وهي الشعبة الثالثة من العدل.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « ومن علم عرف شريعة الحكم » ، يريد بذلك: من علم زهرة العلم دلّه ذلك على شرائع الحكم ، وكان حاكما بالعدل لغيره ، مثل حكمه لنفسه ، وهو إصابة الحق في الحكم ، فلا يجاوز به حكم الله وحكم رسوله.

وقال: « إن شريعة الحكم لها أول وآخر ، أولها إنصاف الخلق في الحكم ، وهو التسوية بينهم في الغضب والرضا ، وآخرها الاجتهاد في إعطاء صواب الحق من نفسه » ، يريد بذلك: الحكم لله ولرسوله ، فلا يجاور من ذلك ما أُمر به بعد يقين منه للزوم ما حكم به ، وأنه حكم الله وحكم رسوله ، فإذا أصاب ذلك وأقامه في حدوده لم يتجاوز قدره بميل إلى هوى ولا إيثار لدنيا ، وكان من الصفوة صفوة الرسول وذريته ، وكان من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة:٤٢] ، وكان من الذين قال الله: ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء:١٣٥] ، وقال لداود عليه السلام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [ص:٢٦] ، وقوله تعالى: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا

في مسند الشهاب ج٢/ص٢٩١/ح١٣٨٥ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٢/ص١٢٥/ح٨٣٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٥١٦/ح٣٧٦٦٨.

لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٨] ، فَفَهَّم الله سليمان الحكم في ذلك ، و لم يكن أخطأ داود الحكم في ذلك ، إلا أن سليمان كان أعلى حكما في ذلك بعينه ، لأن الله فهمه إياه.

وقال النبي عليه السلام في حديث مختصر: « إن ناقة النبي عليه السلام أفسدت على قوم حرثا لهم ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن على أهل الأموال حفظ أموالهم بالنهار ، وأن على أهل المواشي حفظ مواشيهم بالليل ، فما أصاب المواشي بالليل ضمن أهلها »[(١)] ، فكان هذا حكم رسول الله عليه السلام في مثل ذلك الحكم ، ثم أخبر الله تعالى أنه آتا داود الحكمة وفصل الخطاب.

وقال قتادة: « اليمين على المدعى عليه والبيان على المدعي »[(٢)]. وقال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله: « لو يعطى الناس بدعواهم لأدعى قوم دماء قوم وأموالهم لهم ، ولكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر »[(٣)] ،

---

(١) لم أقف على هذا الحديث.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) عن ابن أبي مليكة: أن امرأتين كانتا تخرزان في بيت أو في الحجرة ، فخرجت إحداهما وقد أنفذ بإشفى في كفها فادعت على الأخرى ، فرفع أمرهما إلى ابن عباس ، فقال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لو يعطى الناس بدعواهم لذهب دماء قوم وأموالهم ، ذكروها بالله ، وأقرؤوا عليها ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله ﴾ فذكروها فاعترفت ، فقال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اليمين على المدعى عليه)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/ص ١٦٥٦/ح ٤٢٧٧ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٣٣٦/ح١٧١١ ، والنسائي في سننه ج٨/ص٢٤٩/ح٥٤٢٥ ، وابن حبان في صحيحه ج١١/ص٤٧٧/ح٥٠٨٢ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٧٧٨/ح٢٣٢١ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٤٣/ح٣١٨٨ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ج٣/ص١٩٢/ح٠ ، والطبراني في

فهذا مثل ما حكم به داود عليه السلام ، وكان هذا الحكم من طريق زهـرة العلم ، وهو التفهم عن الله لأهل شريعة الحكم والتأييد لهم ، الذين آتاهم الله الحكمة كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة:٢٦٩] ، فهذا الخير الكثير من الله لأهل زهرة العلم ، والـدليل علـى أن شرائع الحكم وإصابة حدودها من مواهب الله تعالى وتبيينه ، على الحجة فيها وتوقيفـه لـذلك: ﴿ فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء:٣٥] ، فمن قصد إلى الله بحكمه ، وطلـب الوسيلة إليه ، بصَّره وهداه لرشده ، ونبهه على دلائله ، وهداه للتي هي أقوم من أمره ، لأنه قـال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] ، يقول تعالى – وعز عن معاني المخلـوقين –: من جاهد عدوه ونفسه في أن لا يقول على الله إلا الحق ، ويتحرى محبتي في أموري ، هديته لرشده ، وقيضت له التوفيق في أمره ، وهو مثل ما قال زيـد بن ثابت حين « سؤل عن شيء لم يقع؟ فقال: قد وقع ذلك؟ قالوا: لا ، إلا أنا نريد أن نعلم الشيء قبل أن يقع ، فإذا وقع قلنا بذلك فيه. فقال زيد: إن الله إذا علم الصدق من قلوبكم وفقكم لسداد الحق حتى تقولوا فيه بالصواب »[(١)].

وقال جابر بن عبد الله: « لما نزل بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ بعـث النبي صلى الله عليه وآله إليه فجيء به من المدينة ، فكأني أنظر إليه على أتان تحته قطيفة حمراء والناس يكلمونه ، ويقولون: يا سعد رضـي القـوم بـك

معجمه الكبير ج١١/ص١١٧/ح١١٢٢٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٥/ص٣٣٢/ح١٠٥٨٥ ، والشافعي في مسنده ١/ص١٥٣/ح٠ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٨/ص٢٧٣/ح١٥١٩٣.

(١) لم أقف عليه.

فأحسن إليهم ، إذ نزلوا على حكمك ، وهو ساكت لا يرد على أحد منهم شيئا ، حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه فطرح له النبي قطيفة وأجلسه إلى جنبه ، ثم قال: يا سعد قد نزل القوم على حكمك فاحكم فيهم ، فقال: يا رسول الله أرى أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، ويقسم فيئهم ، وتخرب ديارهم ، وتحرق نخيلهم. فقال له النبي عليه السلام: حكمت فيهم بحكم الله » [1].

وفعل النبي عليه السلام ذلك بهم ، فكان حكمه موافقا لحكم الله فيهم ، وذلك من زهرة العلم ، فعرف بزهرة العلم شريعة الحكم ، فوفقه الله لذلك ، وكان سبب ذلك دعوة سعد حين رموه فأصابوا أكحله ، فقال: « اللهم لا تخرج نفسي من الدنيا حتى تشف قلبي من بني قريظة ، فسكن الدم ، قال

(١) عن أبي سعيد ، أنه سمعه لما نزل أهل قريظة على حكم سعد ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال: ((إن هؤلاء نزلوا على حكمك ، قال: فإني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم. قال: حكمت فيهم بحكم الملك)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١١٠٧/ح٢٨٧٨ ، وفي الأدب المفرد ١/ص٣٢٦/ح٩٤٥ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٣٨٩/ح١٧٦٨ ، وابن حبان في صحيحه ج١٥/ص٤٩٧/ح٧٠٢٦ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٣٥٥/ح٥٢١٥ ، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص٢٢/ح١١١٨٤ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٩٧/ح٢٢٤٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٤٦٥/ح٥٩٣٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٥٨/ح١١٠٩٦ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٤٠٦/ح١١٨٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٨٠/ح١٤٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٣٧٩/ح٣٦٨٣٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٨٩/ح١٣٤١.

جابر بن عبد الله: كأني أنظر وقد كاد يلتحم ، فلما حكم النبي صلى الله عليه وآله فيهم بحكم سعد انبعث الدم فمات » [١].

وقال عبد الله بن عمير: سمعت عطية القرظي يقول: « إن مما أنعم الله عليَّ أن كنت يوم بني قريظة ممن حكم سعد فشكوا في أمري فكشفوا عني فوجدوني لم أنبت فخلوا سبيلي فها أنا بين أظهركم » [٢] ، والأخبار في ذلك تكثر.

باب روضة الحلم

وهو الشعبة الرابعة من العدل.

---

(١) عن عائشة أن سعد بن معاذ رمي في أكحله فضرب له النبي صلى الله عليه وسلم خباء في المسجد ليعوده من قريب ، فقال سعد: ((اللهم إنك تعلم أن أحب الناس إلي قتالا قوم كذبوا نبيك وأخرجوه ، وفعلوا وفعلوا ، وإني أظن أن قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، اللهم إن كنت أبقيت بيننا وبينهم حربا فأبقني لهم ، وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فافجر هذا الكلم ، واجعل موتي فيه ، فبينما هو ذات ليلة إذ انفجر كلمه من لبته وإلى جنبه أهل خباء ، فسال الدم حتى دخل الخباء ، فنادوهم: يا أهل الخباء ما هذا الذي يجيئنا من قبلكم فنظروا ، فإذا سعد بن معاذ قد انفجر كلمه من لبته ، وإذا لدمه هدير ودوي ، قال: فمات عنه)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص١٧٧/ح٤٥١ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٣٨٩/ح١٧٦٩ ، والنسائي في سننه ج٢/ص٤٥/ح٧١٠ ، وابن حبان في صحيحه ج١٥/ص٤٩٨/ح٧٠٢٧ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٢/ص٢٨٨/ح١٣٣٣ ، وأبي داود في سننه ج٣/ص١٨٦/ح٣١٠١ ، وابن حنبل في مسنده ج٦/ص٥٦/ح٢٤٣٣٩،

و الطبراني في معجمه الكبير ج٦/ص٧/ح٥٣٢٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٢٦١/ح٧٨٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٣٨١/ح٦٣٧٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج٧/ص٤٥٢/ح٤٤٧٧.

(٢) عن عطية القرظي قال: كنت فيمن حكم عليه سعد ، فشكوا في أمن المقاتلة أنا أم من الذرية ، فنظروا إلى عانتي فوجدوها لم تطلع فألقوني في الذرية. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج١٧/ص١٦٤/ح٤٣٤.

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: « من حلم لم يفرط في أمره ، وعاش في الناس حميدا ». فروضة الحلم هو جماع الحلم ، وذلك أن الحلم شطر البر كله ، وهو ملك النفس عند الغضب ، فكيف يملكها عند الرضا؟! فإذا ملك العبد نفسه عند الغضب كان أشد الناس قهرا لهواه ، فلم يكاف بالسيئة السيئة ، ولكن يكافي بالسيئة الحسنة ، وكيف بمكأفاة الحسنة؟! وذلك أن العبد إذا قام مقام روضة الحلم ، كان دليله الصفح والعفو عمن أساء إليه ، والتجاوز عن جميع الخلق إذا أعتذروا إليه من إساءتهم ، وتابوا إلى ربهم ، فأما وهم مصرون فلا محل للعفو عنهم ، كما أنه ليس من حلم الله ذلك إلا بالتوبة ، وإنما يكون العفو عند التوبة بإن يكون العبد له أن يقبض فيعفو وأن يكون [1] له أخذ ظلامته فيصفح عند ما يظهر من توبته وبدعِّها لله سرورا منه بتوبة عبده إليه ، فأما من عفا عن المصرين المقيمين على المعاصي فقد خالف الله في أدبه وحكمه ، لأنه تعالى هكذا قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف:١٩٩] بقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران:١٣٥ - ١٣٦] ، فجعل المغفرة على شريطة التروع عن الإصرار بترك الذنوب والرجوع إلى الندم والإستغفار ، وكذلك ينبغي للعالم بأحكام الله أن يستعمل في ذلك أدب الله مع [2] تَحَرُّزه عندما يترل به من الظلامة أن يتعدى في المكافأة بها ، إن آثر من ذلك عليه أن يأخذ الحق من نفسه لهم على قدر طلبه لنفسه منهم ، فإذا كان العبد كذلك رأى أن حق الخلق كلهم يلزمه[3] ، ولا يرى له حقا قِبَل أحد من الناس إلا قام لله بالقسط فيه ، فأورثه

---

(١) في (أ) و(ب): أو يكون.

(٢) في (ب): ما. مصحفة.

(٣) العبارة قلقة ، أما المعنى فواضح. لعله فيها تصحيفا.

ذلك النظر فيما للخلق قِبَله ، فلم ير لنفسه شيئا دونهم ، ولم يحكم لنفسه إلا بما يحكم لهم ، فكان ذلك روضة الحلم.

وقال أيوب السجستاني: « لا يحلم الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس ، والتجاوز عما يكون منهم وانتظار الإنابة لهم » [١]. وقـــال بعض أهل العلم: « وبذل معروفه لهم » [٢]. فمن ذلك ما أخبر الله عز وجـــل في كتابه ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خبره ، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... إلى قوله: ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥] ، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤] ، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ... إلى قوله: ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الشورى:٣٩-٤٠] ، فـــأخبر أن التعدي في المكافأة ظلم ، وأن أشرف العفو وأصل العدل أن [٣] يكـــون إذا عصى الله عبد ألا تعصي الله فيه ، ولا ترآده بكلام يخرجك إلى ذلك ، بـــل تكظم غيظك ، وتكف لسانك ، وتستعمل حلمك ، وتخاف إن أضعت ذلك إسخاط ربك ، وإن آثرت الإقتياد [٤] على العفو كنت كما قال الله: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١٩٤] (٥) ، اتقوه أن تجاوزوا من ذلك

---

(١) عن أيوب السختياني: ((لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان ، العفة عما في أيدي النـــاس ، والتجاوز عما يكون منهم)). مكارم الأخلاق ج١/ص٢٨/ح٤٢.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في (أ) و(ب): بأن.

(٤) الكلمة غير واضحة في (أ) و(ب). وفي (ج): الإيثار.

(٥) في المخطوط: ﴿ ... واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾.

إلى ما ليس لكم في قول ولا فعل ولا نية ، ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾ [البقرة:٢٣٧].

وقد روى عن بعض الحكماء أن رجلا سأله فقال: « ما الأعمال؟ فقال: التخلق بالحلم ، فإن الله حليم عن الخاطين فمن حلم عن الخاطئين ، وافق الله في محبته » [(١)]. ولما نزلت هذه الآية على النبي: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩] ، قال النبي صلى الله عليه وآله: « يا جبريل ما هذا؟ قال: إن الله يأمرك أن تعطي من حرمك ، وتصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك » [(٢)] ، ومعنى قوله: « تعطي من حرمك » ، يقول: إن عصى الله عاص في تضييع ما يجب من حقك ، أو منعك حقا لك ، فلا تعارضه بمثله ، بل تصله بأن تؤدي إليه ما له قبلك من حقه ، وترعى له من ذلك ما قد أضاعه لذلك. فأما العفو فهو ما شرحناه آنفا.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، فذاك مكافأة ، ولكن الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » [(٣)] ، وقيل في صفة النبي صلى الله عليه وآله: « ما غضب لنفسه قط ، ولا انتصر لها ، ولا رأى حرمة الله

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) عن سهل بن معاذ بن أنس ، عن أبيه ، عن رسول الله قال: ((أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتصفح عمن شتمك)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج٣/ص٤٣٨/ح١٥٦٥٦ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص١٧٨/ح٧٢٨٥ ، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ١/ص٢٣/ح١٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٧/ص٢٧٠/ح٧٣٩ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٢٤٩/ح١٢٨٩.

(٣) لم أقف عليه.

منتكهة إلا كان أبعد الناس من الإثم حتى ينتصر لله »[(١)] ، وكذلك يجب على المؤمن أن يقتدي في ذلك بنبيه صلى الله عليه ، فلا يدع لله حرمة منتكهـة يمكنه في ذلك دفع بنفسه وماله إلا أمضاه ، غضبا لله ولدنيه ، واقتداء برسول الله وعترته ، وقد وصف الله نبيه عليه السلام فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ...﴾ [آل عمـــران:١٥٩] الآية ، وإنما عنى بالاستغفار ، أي: للمؤمنين خاصة ، فجمع له تعالى جميـع مكارم الأخلاق وأمره بها ، وبالندبة إليها ، والـدليل علـى أن الاسـتغفار للمؤمنين خاصة قول الله عز ذكــره: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشـعراء:٢١٥] ، وقد أدب النبي عليه السلام أبا بكر عند ما تناوله رجل والنبي جالس قال أبو بكر: « فذهبت أكافيه وأرد عليه ، فقـام النبي عليه السلام ، قال: فقلت: يا رسول الله كنت جالسا فلما قمـت أرد عليه قمت!! فقال النبي عليه السلام: لما كان الملك يرد عليه وهـو جـالس جلست ، فلما قمتَ ترد عليه قام الملك فقمت »[(٢)].

وقيل لقيس بن عاصم: بم نلت السؤدد؟ قال: بتركي الأذى وبذلي القِـرى ، ونصري للمولى.

وروي عن عمير بن حبيب وكان له صحبة ، أنه أوصى بنيه فقال: « إيـاكم ومجالسة السفهاء ، فإن مجالستهم داء ، مَن تَحلّم عن السفيه فسد حلمه[(٣)] ، ومن أحب السفيه ندم على حبه ، ومن لا يقر لقليل ما يأتي به السفيه يقـر

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في (أ) و (ب): تحلُمه.

بالكثير[١] ، ومن يصبر على ما يكره يدرك ما يحب ، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى ، وليثق بالثواب من الله ، فإنه من يثق بالثواب من الله لا يجد من الأذى »[٢].

وقال رجل للأحنف بن قيس: « ما بلغ بك ما أرى؟ قال: تركي من أمرك ما عناك من أمري »[٣]. وقال الأحنف: « تعلمت الحلم من عمومتي تعلما »[٤].

ويروى عن صفوان بن الأهيم أنه قال له أبو جعفر: « لم سادكم الأحنف ولم يكن بأكثركم مالا ، ولا أجملكم وجها ، ولا أشرفكم بيتا؟! فقال له صفوان: إن شئت أخبرتك في ثلاث وإن شئت في ثنتين وإن شئت في واحدة. فقال له أبو جعفرك هاتها في ثلاث وهاتها في ثنتين وهاتها في واحدة. فقال: أما الثلاث فإني لم أر هذه الأخلاق المذمومة في أحد أغمض منها فيه: البغي والحسد والكبر. قال: هاتها في ثنتين. قال: كان موفقا ملقا ، يلقى بالخير ويوقى الشر. قال: هاتها في واحدة. قال: ما رأيت أحدا أغلب لهواه منه ، وإنما نال من[٥]

---

(١) العبارة قلقة ولعلها مصحفة أو ناقصة.

(٢) ورد عن عمير بن حبيب بلفظ: وكان قد بايع النبي صلى الله عليه وسلم وصي بنية قال لهم: ((أي بني إياكم ومخالطة السفهاء فإن مجالستهم داء ، وإنه من يحلم عن السفيه يسر بحمله ، ومن يجبه يندم ، ومن لا يقر بقليل ما يأتي به السفيه يقر بالكثير ، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فليوطن نفسه قبل ذلك على الأذى ، وليوقن بالثواب من الله ، فإنه من يوقن بالثواب من الله لا يجد مس الأذى)).

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ١٧/ص٥١/ح١٠٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٩٥/ح١٩٩٩٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٢٣٤/ح٢٥٥٩٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٣٧٠/ح.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) في (ب): قال ما. مصحفة.

نال روضة الحلم بقهر غلبة الهوى ، فإذا ضعفت [١] دواعي الهوى ، وضعفت منازعته ذلعت [٢] النفس و لم يطعها إلى التغرر [٣] بهواها ، فحينئذ تعتق القلب من أسر الهوى وغلبة النفس » [٤].

وكذلك روي عن النبي صلى الله عليه في حديث أبي هريرة: « أنه مر بقـــوم يتعاطون حجرا ، فقال لأصحابة: من الشديد عندكم؟ قالوا: يا رســـول الله الصراعة للرجال ، فقال لهم: ليس الشديد الذي يشغل الحجارة ولا الصرعة للرجال ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » [٥] ، والأخبـــار في ذلك تكثر.

فمن وصل إلى روضة الحلم طابت له الحياة الدنيا ، وكان الناس منه في راحة وسرور ، ونفسه منه في تعب ومشقة ، ومجاهدة شديدة ، وذلك أنه يأخذ من نفسه لغيره ، ولا يأخذ لها بحقها من غيره ، إلى من الوجه الذي يقيم الحكم لله

---

(١) في المخطوطات: ضعف. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في (أ): ذلفت.

(٣) في (ج): التعزز.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشـــديد الذي يملك نفسه عند الغضب)).

أخرجه البخاري في صـــحيحه ج٥/ص٢٢٦٧/ح٥٧٦٣ ، وفي الأدب المفـــرد ١/ص٦٦/ح١٥٥ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٠١٤/ح٢٦٠٩ ، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص٤٩٤/ح٧١٧ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٤٨/ح٤٧٧٩ ، وابن حنبل في مســـنده ج٢/ص٢٣٦/ح٧٢١٨ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٩٠٦/ح١٦١٣ ، والطيالســـي في مســـنده ج١/ص٣٢٩/ح٢٥٢٥ ، والنســـائي في ســـننه الكـــبرى ج٦/ص١٠٥/ح١٠٢٢٦ ، وابـــن راهويـــه في مســـنده ج١/ص٤٤٧/ح٥١٦ ، والقضاعي في مسند الشـــهاب ج٢/ص٢١٤/ح١٢١٢ ، والبيهقـــي في سننه الكبرى ج١٠/ص٢٣٥/ح٢٠٨٧٤ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٢١٦/ح٢٥٣٨٥.

على من فعل ذلك به ، وعلى قدر ما أخرجه وأبانه ، فأما ما كان لنفسه وهبه متقربا به ، ثم عليه أن يزمها عن المزاح وكثرة الكلام ، وترك ما لا يعنيها ، فإذا فعل ذلك أورثه ذلك [(١)] روضة الحلم وطول الحزن فيما يعنيه ، وكذلك روي عن علي عليه السلام أنه قال: « من كثر ضحكه قلّت هيبته ، ومن مزح استحق به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » [(٢)].

وقد فسرنا روضة الحلم وهو أعلى درجات الحلم.

وإذا وصل العبد إلى ذلك رضي الخلق كلهم عنه ، لأنه يأخذ لهم بحقهم من نفسه ، ولا يطالبهم بحق نفسه إلا من جهة قيامه بحكم الله عليهم ، على حد

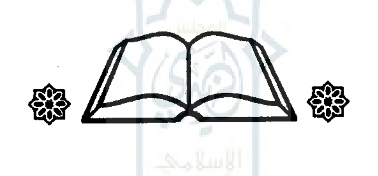
(١) في المخطوطات: أورثه الله ذلك. ولعلها زيادة سهو.

(٢) ورد عن علي عليه السلام بلفظ: ((من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ، ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاته ، ومن سل سيف البغي قتل به ، ومن كابد الأمور عطب ، ومن اقتحم اللجج غرق ، ومن دخل مداخل السوء اُتّهم. ومن كثر كلامه كثر خطؤُهُ ، ومن كثر خطؤُهُ قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار ، ومن نظر في عيوب الناس فأنكرها ، ثم رضيها لنفسه ، فذلك الأحمق بعينه ، والقناعة مال لا ينفد ، ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه)). نهج البلاغة ، قصار الحكم /٣٤٩.

وورد أيضا عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر كذبه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كان النار أولى به)).

وعن الأحنف بن قيس قال: قال لي عمر: ((يا أحنف من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن فرح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه)). أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٢٣٧/ح٣٧٤.

ما شرحنا ، فذلك كمال الإحسان إليهم عامة وإلى نفسه خاصة ، وقد طُبع الخلق على حب من أحسن إليهم ، وبغض من أساء إليهم ، كما قال الـــنبي صلى الله عليه وآله وسلم: « جبلت القلوب على حب مـــن أحســـن إليهـــا وبغض من أساء إليها » [١] ، فإذا كان ذلك يجب للخلق لما يكون منهم ، فهو لله جل ثناؤه أوجب ، إذ كان هو المبتدئ للإحسان ، وهو الآمر بالإحسان ، فبه عرف الإحسان ، ولولا تعريفه فيه وفوائده وهدايته وكثرة خـــواطره لم يُعقل الإحسان. فهذا قول علي بن أبي طالب عليه السلام: « ومن حلـــم لم يفرط في أمره ، وعاش في الناس حميدا » ، نسأل الله البر الرحيم ، أن يمـــن علينا بسلامة الصدور ، والاجتناب لجميع الشرور.



(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٣٥٠/ح٥٩٩.

باب الجهاد

وهو أول الدعامة الرابعة من الإيمان.

فالجهاد على أربع شعب على: الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصدق في المواطن ، وشنآن الفاسقين.

فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه من شنئ الفاسقين ، و[من] غضب لله غضب الله له.

باب الجهاد

فالجهاد فرض على جميع المسلمين.

والجهاد على معينين:

معنى يجزي بعضهم عن بعض في مواضع الجهاد.

ومعنى لا يجزي بعضهم عن بعض وهو جهاد النفس الأمارة بالسوء.

فجهاد النفس أن يكون العبد يجاهد نفسه بمخالفة الهوى وهو فرض ، عليه أن يخالف هواه المخالف لطاعة ربه في كل ما أمر به ونهى عنه ، وذلك أن النفس طبعت على محبة المحبوب وكراهة المكروه ، وهي أعدى عدو للمؤمنين ، ومجاهدتها فرض على المؤمنين ، وهو مخالفة هواها في الطاعة والمعصية ، فأما مخالفة هواها في الطاعة والمعصية ، فإنها تكره الطاعة فإذا خولف هواها أجابت إلى الدخول في الطاعة ، ثم دعت التصنع بالطاعة ، لأن هوى النفس بالطاعة أن تمدح بها وتذكر بها ، ويثنى عليها من أجلها لما كان من غيرها ، فإذا خولف هواها بدفع التصنع ، وعرف القلب بما أفيد من فوائد العلم أن التصنع يحبط الأعمال ويبطلها ، أخلص العمل لله بمخالفة الهوى ، فكان ذلك من مخالفة النفس في المعصية ، فإنه فرض على المؤمن أن يجاهد نفسه ألا يقبل ما

يلقي الشيطان من وسوسة المعصية وذلك أن النفس مائلة لغلبة الهوى عليها إلى حب المعصية ، ومائلة إلى ما يلقي من ذلك إليها الشيطان ، ففرض على المؤمنين فخالفوا عن ذلك هواهم ، ويكبحوها عن جماحها وطماحها ، وما يسوقها إلى المنهي عنه من فعلها ، وأن يذكروا مقام الله عليهم في ذلك ، وثوابه ونعمه عليهم ، فيراقبوه بالخشية له ، والحياء منه ، والإحلال لمقامه ، ويتذكروا ما أوعد على ذلك من انتقامه ، فيخالفوا الهوى مخافة الوقوف بين يديه ، والسؤال لهم عن الاستخفاف بأمره ، والجرأة عليه.

وإذا قام العبد بذلك على نفسه ، كان من أهل الثواب الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ [النازعات:٤٠-٤١] ، ولم يكن من الذين قال: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ [النازعات:٣٧-٣٩] ، وقد قال جل ثناؤه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [البقرة:٢٦٥] ، التثبيت هاهنا هو: مجاهدة النفس بإخلاص العمل ، وطلب الزلفة لديه دون من سواه من جميع خلقه ، وقال: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝ ﴾ [القيامة:١٤-١٥] ، يقول: وهو الرقيب على نفسه مما يكون منه ، والشاهد عليها غدا بما كان منها ، وهو قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم... ﴾ [يس:٦٥] الآية ، وقال تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ ... إلى قوله: فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ ...﴾ [البلد:١١-١٣] إلى آخرها. وهو مجاهدة النفس عن هواها في طاعته ، واتباع محبته.

وقد ذكر ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أخباره ، قال عليه السلام حين رجعوا من غزوهم: « رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

، وهو مجاهدة النفس ومخالفة الهوى » [1] ، وعن النبي عليه السلام أنه قال: « ليس عدوك الذي إن قتلته آجرك الله في قتله ، وإن قتلك أدخلك الجنة ، ولكن أعدى عدو لك هي نفسك التي بين جنبيك ، وامرأتك التي تضاجعك على فراشك ، وأولادك الذين من صلبك » [2] ، فهؤلاء أعدى عدو لك ، وفي مصداق ذلك يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ...﴾ [التغابن:١٤] الآية.

وكيف لا يجب حذر النفس وهي تدعو [3] إلى ما في إتيانه خسران الدنيا والآخرة ، ولا أحد وإن بلغت عداوته ما بلغت يقدر أن يحمل على ما فيه خسران ذلك ، إن لم يكن له معين من هوى النفس ومساعدة من الهوى ، فهي على هذا أعدى الأعدا ، فليكن مقدار حذر الفهم عن الله على حسب عظيم جناها ، وعلى كبر تصرف معاصيها ، فيما تدعو إليه من عجبها ، وكثرتها وزيادتها وبذخها.

ومن أقوى الأعوان له على ذلك التفكر ، هل يعجب بمثله عاقل؟! وذلك أن الفَهِم عن الله عز وجل إذا علم أن جميع ما كان منه من برد إحسان إنما كان بمعونته عليه ، وهدايته إليه ، كان الحمد له في ذلك دون غيره واجبا.

---

(١) عن جابر قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قوم غزاة فقال: ((قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه)). أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال ج٠/ص٠/ح١١٧٧٩.

(٢) ورد بلفظ: ((ليس عدوك الذي إن قتلك أدخلك الله الجنة ، وإن قتلته كان لك نورا ، ولكن عدوك نفسك التي بين جنبيك ، وامرأتك التي تضاجعك على فراشك ، وولدك الذي من صلبك ، فهؤلاء أعدى عدو هو لك)). أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال ج٠/ص٠/ح١١٢٦٤.

(٣) في (أ) و (ب): ترحوا. مصحفة.

ثم إذا علم أنه قد سلف له ذنوب قدرهن بإغفاله ، ووجب بحكم الله الوعيد عليه بها ، وقد راجع عنها ولا عِلْمَ له هل ناصح في المراجعة أم لا؟ فإن كان ناصحا في المراجعة فلا عِلْمَ له هل ما أتى من العمل على جهة ما يتقبل مثله أم لا؟ وإن كان قد أتى به على حد ما أمر فلا علم له أيضا لعله أن يـأتي بما يحبطه. فإذا كان العالم بالله وبأحكامه على حد ما وصفنا ما باله بالعجب بما كان منه من البر ، وهو لا يحيط في أي من المنازل مما وصفنا هو ، وهل رأى حكيما يعجب من أمر من أمور الدنيا يريد به ابتياع شيء لا يعلم أنه لا يقبل مثله في ثمن ما يتبايعه أو لا؟ دون أن يقف على علم ذلك ويتحققه؟! فمـن أنزل نفسه بالمنازل التي شرحنا ، وفهم أمره على حد ما وصفنا ، لم يعجـب بشيء مما يكون من طاعته ، ومتى خلص من العجب بها خلص من الرياء بها ، لأن من لم يكن منه عند نفسه من يعجب أهل الفَهم عن الله بمثله لم يراءهم به ، لأن حكيما لو رأى أمررا من الأمور يحضره حكماء هـو يعلـم أنهـم لا يعجبون بمثله ، ويعلم أيضا أنهم يحكمون على من أعجب به مـن الـنقص والعيب ، لم يكن شيء أكره عنده من اطلاعهم على ذلك من أمره ، وإذا نجا العبد من العجب والرياء ، نجا من الكبر ، لأن الكبر إنما هو نتاج وَرِثَه مـن العجب والرياء ، وذلك أن العبد إذا توهم أنه قد أتى أمرا يعجب بمثله ، أنـه قد بان بفضيلة على غيره ، فيدخله التكبر على من توهم عليه أن قد عـلاه وباينه في مترلته ، فإذا كبح نفسه ووقفها ، وفهم ما كان منها وحاسبها ، لم يجد للعجب والكبر والرياء مشاغا ، ولا وجها بوجه من الوجوه ، ومع ذلك إنه لو علم أن عمله مقبول ، وأنه قد أتى جدود ما أُوجب عليه وبعاقبة مـا يختم له ، وعلم بنجاته ، ثم خطر من وجه النظر لعلم واستيقن أنه لا مسـاغ ولا وجه للعجب والرياء والتكبر من أحد من الحكماء. وذلك أنه لو كـان للعجب وجه لما كان الإيمان يعجب لما أوصله إلى ذلك وتفضل به عليه ، مما لا يصل نفع ذلك إليه ، وإن كان أعلى المنازل في ذلك ترك المدح والتكـبر

والعجب به ، وأما أن يكون إذا عمل عملا إنما يرجع بالنفع على نفسه دون غيره ، والمعجب به إلا في أقل المنازل أهل السخف ، فكيف تكون منازل الحكماء؟!

فمن عرف نفسه وعرف ما لله عليه من تواتر نعمه ، ودفع السوء عنه ، وعرف قدر عظمة الله ، وعرف قدر نفسه ، وعرف ضعفها ، وعرف ما يكون منها وإلى ما تدعوه ، لم يداخله العجب ولا الكبر ولا الرياء بشيء يكون منها ، وإن كبر وبلغ غايته أبدا ، ونجا من الكبر فيه والمرايات به ، وحذر نفسه في ذلك حَذَرَ مَن يعلم أنها تبخل عليه بالعمل في نجاتها ، وتميل به إلى كل ما يضرها [1] ويهلكها ويفضحها في عاقبتها على رءوس الأشهاد.

فمن أقام نفسه هذا المقام ، أمده الله بنصرته ، وأيده بمعونته وقوته ، وعصمته وبتأييده. وقد قال النبي صلى الله عليه لأصحابه: « ما تقولون في نفس إن تبعها صاحبها فذل لها ذَمَّته غدا بين يدي الله ، وإن أتعبها وأنصبها مَدَحَتْهُ غدا بين يدي الله؟! ثم قال: تلك أنفسكم التي بين أجنبكم» [2].

قال وهب بن منبه: « أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود عاد نفسك في محبتي ، ودِنّي بذلك ، واستعن بي على ذلك ، فنعم العون ونعم المستعان » [3].

ويروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه ينسي الآخرة » [4] ، فمن اتبع هواه لم يجاهد نفسه ، وفي ذلك صد له عن الحق ، كما قال الله تعالى لداود عليه

---

(١) في المخطوطتين: ما سرها. لعلها مصحفة.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) سبق تخريجه.

الســـــلام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ [ص:٢٦] الآية ، فوكد الوعيد على المؤمنين في اتبـــاع الهـــوى في الحكم ، وكذلك وجوبه في سائر النهي عنه.

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: « إنكم في زمان كثير علماؤه ، قليل خطباؤه ، الصلاة فيه طويلة ، والخطبة فيه قصيرة ، الهوى فيه تابع للعمـــل ، وخير العمل مجاهدة النفس في الإخلاص بالعمل ، ومخالفة الهوى في ذلك بالميل إلى ترك التصنع ، وسيأتي عليكم زمان كثير خطباؤه ، قليل علماؤه ، الخطبة فيه طويلة ، والصلاة فيه قصيرة ، والعمل فيه تابع للهوى » [(١)] ، يعني: عمل الطاعة باتباع الهوى ، وترك المجاهدة بالإخلاص والنصفة للعمل.

وقال أبو ثعلبه الجنشي: عن النبي صلى الله عليه وآله: « إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثَّرة ، وإعجاب كل أمرئ بنفسه ورأيه ، فعليـــك بخاصة نفسك ، ودع عنك العوام » [(٢)]. ومعنى قوله عليه الســـلام: « شـــح

---

(١) ورد عن عبد الله بلفظ: ((إنكم في زمان الصلاة فيه طويلة ، والخطبة فيه قصيرة ، وعلماؤه كثير وخطباؤه قليل ، وسيأتي عليك زمان الصلاة فيه قصيرة ، والخطبة فيه طويلة ، خطبـــاؤه كـــثير وعلماؤه قليل ، يؤرخون الصلاة صلاة العشاء إلى شرق الموتى ، فمن أدرك ذلك منكم فليصـــل الصلاة لوقتها ، وليجعلها معهم تطوعا ، إنكم في زمان يغبط الرجل فيه علي كثرة ماله وكثـــرة عياله ، وسيأتي عليكم زمان يغبط الرجل فيه على قلة عياله وخفة حاده ، ما أدع بعدي في أهلي أحب إلي موتا منهم ، ولا أهل بيت من الجعلان ، وإني لأحبهم كما يحبون أهليكم)). أخرجـــه الطبراني في المعجم الكبير ج٩/ص١٠٨/ح٨٥٦٧.

(٢)عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية ، قال: آية آية. قلت: قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ ، قال: أمـــا والله لقد سألت عنها خبيرا ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((بل ائتمـــروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعـــا ، ودنيـــا مـــؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ، فإن من ورائكم أياما الصـــبر

مطاع » له ظاهر وباطن ، فظاهره شح الإنسان بماله على نفسه ، وهو على يقين من فراقه ، وباطنه شحه في الحقيقة بمال غيره على نفسه وقد خوَّله ، وذلك أن ماله عارية لله في يده ، وإن كان في حكمه قد ملكه بتخويله ، وهذا فيما يتعارفه الناس فيما بينهم النذالة ، لأن فيما يتعارف أن من بخل على محتاج بماله فمقصر عن الفضيلة في نفسه ، ومن بخل عليه بمال غيره فذلك غاية النقص والنذالة عندهم ، كيف به عندهم إذا كان حكمه في نفسه بمال غيره؟!
والباطن من الشح المطاع الذي له أيضا باطن وظاهر ، شح العبد بنفسه على ربه وهو مالكه ، وفيما يتعارفة الناس بينهم أن من شح على رب مالك بملكه فقد بلغ غاية النقص والشح ، ولا سيما وللمالك عليه من الأيادي على المخوَّل له ماله ، لا ما يسوغ له معه البخل عليه بما كان لو كان له ، فكيف بما هو له دونه؟!

وباطن الشح أن العبد لم يشح في الحقيقة على ربه ، لأنه غير محتاج إليه ، ولا منتفع بطاعته ، وإنما أمره بطاعته لينفع نفسه ، فكأنه في حقيقة شحة إنما شح

فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا ، يعملون مثل عملكم)). وفي لفظ: ((أجر خمسين منا أو منهم ، قال: بل أجر خمسين منكم)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١/ص٥٤٠/ح٣٠٤ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٤٦٨/ح٢١٦٨ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٢٧/ح٤٠٠٥ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٢٢/ح٤٣٣٨ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢/ح١ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٣٥٨/ح٧٩١٢ ، والحميدي في مسنده ج١/ص٤/ح٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٢/ص٢٢١/ح٥٨٧ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٣٣٩/ح١١١٥٧ ، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص٤٢٩/ح٧٥٣ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج١/ص٩٣/ح٦٢ ، ١/ص٩٤/ح٦٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٩١/ح١٩٩٧٧ ، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص١١٨/ح١٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٠/ح١ ، والبخاري في خلق أفعال العباد ١/ص٦٤/ح٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٥٠٤/ح٣٧٥٨٣.

بنفسه عن نفسه ، وبخل بنفسه على نفسه ، وعير [١] نفسه في نفسه ، فذلك على الخسران والأسف لمن فهم عن ربه ، وعلم لماذا خلقه؟ ولأي علة تعبَّده؟ وعلى أي سبيل أمره؟ ولأي نعمة عرَّضه؟ وذلك ما قال جل ثنـــاؤه: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن:١٦] ، فعلى حد مـــا شرحنا تفسير قوله: « وهوى متبع وإعجاب كل ذا رأي برأيه » ، في آفـــات العجب والرياء ، وقد قدمنا ذلك بما فيه كفاية إن شاء الله.

ثم ليعلم الفَهِم عن الله أنه قد خلف في زمان الذي عمل البر فيه قد غلبه اتباع الهوى ، فليس يرى رجلا يعمل بشيء من الطاعة إلا رأيته متبعـــا لهـــواه ، متطاولا بها على غيره ، فمتى خولف هواه فيه رأيته قد خـــرج إلى العـــداوة والبغضاء!! غضبا لهواه متغضبا [٢] له ، لا يرجع إلى حلم في دين ، ولا فيـــه لمروة وذلك معنى قول ابن مسعود: « العمل فيه تابع للهوى ». ويروى عـــن عامر بن عبد الله العنبري أنه كان يقول لنفسه إذا قام بها من الليل فملَّـــت في القيام: « قومي يا مأوى كل سوء ، فوالله لا زدتك رحـــف الـــبعير » [٣] ، والأخبار في ذلك تكثر.

فمن مَنَّ الله عليه بمحاسبة نفسه ، وقام لله عليها بقسطه ، أعطاه الله القهر لها ، وأعلاه بالظفر على هواها ، فمده بالعلم المؤيِّد له في جهادها وجهاد عدوها ، وعلم أنها له أعدى من عدوها ، لأن عدوها لا يقدر على اضطهادها ، فإنما بليته منها في اتباعها لما زيَّن لها عدوها ، فأقام نفسه مقام المحارب لها ، وتفرغ من كل شيء إلا من مجاهدتها ، شدةَ حذرٍ منها ، ولعلمه وشـــدة مطالبتـــه لانتهاك حريمها ، والوقوع في غيها ، فإذا كان العبد كذلك ، كان عبدا كيســـا

---

(١) الكلمة مهملة في المخطوطات.

(٢) الكلمة مهملة فلعلها كما أثبت ، أو: متعصبا.

(٣) لم أقف عليه.

بصيرا محاسبا. كما روي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه أنه قال: « سأله رجل فقال: يا رسول الله أي المؤمنين أكيس؟ فقال صلى الله عليه: أكثرهم للموت ذكرا ، وأشدهم له استعدادا ، أولئك الأكياس »[(١)] ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه قال: « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتأهبوا للعرض الأكبر على الملك الأكبر »[(٢)].

ومن لم يكن كذلك غلبه هواه بتركه الإعتصام. يريد: الانقطاع إليه ، فلا يلوم إلا نفسه ، فإنه لم يقع في عمائه وتَكَمُّهه وصممه إلا من قبلها. كما روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه أنه قال: « حبك للشيء يعمي ويصم »[(٣)]. وقال عطاء السلمي: بلغنا أن الهوى والشهوة يغلبان العقل والعلم والبيان.



(١) ورد عن ابن عمر أنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فجاء رجل من الأنصار فقال: يا نبي الله من أكيس الناس وأحزم الناس؟ قال: ((أكثرهم ذكرا للموت ، وأشدهم استعدادا للموت قبل نزول الموت ، أولئك هم الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة)).
أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ١/ص١٨/ح٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٤١٧/ح١٣٥٣٦ ، وفي معجمه الصغير ج٢/ص١٩٠/ح١٠٠٨ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٩٩٨/ح١١١٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٦/ص٣٠٨/ح٠.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) كنز العمال ٠/٠(٤٤١٠٤).

باب الفرق بين العقل والهوى

فالعقل على معنيين:

عقل مخلوق وهو عقل الحجة الذي احتج الله به على خلقه ، يكون مع العبد عندما يعرف النفع من الضر ، والخير من الشر ، وغير ذلك ، فهذا هو العقل الذي يحتج الله به على عباده ، عند تركيبه وقت بلوغه وإيجاب التكليف به ، وقد جعل الله هذا العقل متصرفا في الوجوه ، ومكن به صاحبه درك ما كُلِّف ، والحذر مما خُوِّف ، وقد فهم بعقله المضار والمنافع ، وحبب إليـــه اجتـــرار منافعها ، والهرب من مضارها ، وجعل نافعها لا يوصل إليـــه إلا بتحمـــل مؤونه وضارها [١] ، لا تنصرف عليه إلا بتكلف مشقة ، وجعل مـــع ذلـــك نافعها وإن كان مرغوبا فيه وإن كان لا ثبات له بعد حله له [٢] ، ثم نبه على دار غير داره التي خلق فيها ودعا إليها ورغب فيها ، وزجر عن التخلف عنها بدار مؤلمة مضرة لمن حلها ، وضرب له من المثل على قدر ما شاهده ، وقدَّر الأمر عنده على قدر ما طُبع عليه ، لأنه لا يصل إلا من رغـــب فيـــه ، إلا بالحمل على نفسه ، ولا ينجو مما حذره إلا بالحمل على نفسه ، ولا ينجو من كراهة ما طُبع على كراهته إلا بالحمل على بدنه ، وإنما فعل به ذلـــك كلـــه ليسهل به عليه سبيل ما دعا إليه ، وما أجرى بخلقه له ، ولتكن مسارعته إلى ذلك ، ومنافسته فيه ، على تفاضله في محبوبه ومكروهه ، لأنه قد طبع اعتقاد البعث على قدر ما يعلم من منتفع به والمهروب منه ، فيكون ذلك له أساسا يعمل عليه ، فيما رغب فيه ورهب منه ، فمن فهم عن ربه ، وعقـــل عـــن خالقه ، وتيقن حقيقة أمره ، سهل عليه مضارّة نفسه في طاعة ربه ، واستغل

---

(١) الوضر: الدرن.

(٢) العبارة غير واضحة المعنى.

كل غاية عمل فيها لخالقه ، وأسف على كل خطرة ولمحة فاتته من أجله ، وفوّت العمل فيها لما خلق له ، فخفت عليه المكابدة ، وسكنت عنه المجاهدة ، وصار إلى درجة أهل اليقين والطمأنينة ، بما قد أيده الله به من نور حكمته ، وحرسه بما مكّنه ، وصرف عنه كيد عدوه ، وجعل له واعظا من نفسه ، يراقب [١] به سر نجواه حال ذكره ، وخطرات عدوه ، فيكون عند ذلك كما جاء الخبر عن ابن عمر أنه قال: « لن يحب العبد حقيقة التقوى حتى يكون له واعظ من نفسه » [٢] ، والواعظ كما قال النبي صلى الله عليه في حديث وابصة بن معبد ، والنواس بن سمعان ، وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وغيرهم ، قالوا كلهم: « عن النبي صلى الله عليه أنه قال لوابصة حين سأله عن البر والإثم؟ فقال: يا وابصة استد لقلبك ، يا وابصة استعد لنفسك ، البر ما سكن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في صدرك فدعه وإن افتاك فيه المفتون » [٣]. فهذا دليل الواعظ في القلب ، وهو الذي يعرف

---

(١) في المخطوط: يواقب. لعل الصواب ما أثبت.

(٢) لم أقف عيه.

(٣) عن وابصة بن معبد الأسدي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لوابصة ئت تسأل عن البر والأثم قال قلت نعم قال فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال استفت نفسك استفت قلبك يا وابصة ثلاثا البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وان أفتاك الناس وأفتوك

أخرجه مسلم في صحيحه ج٤/ص١٩٨٠/ح٢٥٥٣ ، والبخاري في الأدب المفرد ١/ص١١١/ح٢٩٥ ، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص١٢٤/ح٣٩٧ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٥٩٧/ح٢٣٨٩ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص١٨٢/ح١٧٦٦٨ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص١٧/ح٢١٧١ ، ٢/ص١٧/ح٢١٧٢ ، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ١/ص٢٢٥/ح١٧٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص١١٧/ح٧٥٣٩ ، والطبراني في مسند الشاميين ج٢/ص٩٦/ح٩٨٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٦٦/ح٥٣ ، والبيهقي في

به البر من الإثم ، فليل [١] في القلب البر ويدع الإثم وما تشابه منـــه ، كمـــا روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « لا يجد العبد طعم الإيمان حـــتى يدع الإثم وما تشابه منه » [٢] ، ومعنى « يدع الإثم » أي: يدع الحرام ، « وما تشابه » يعني: المتشابه وبعض ما أطلق له ليجعله حاجزا بينه وبين الحرام ، فإذا نزل العبد بهذه المترلة كان ممن له واعظ من نفسه.

وكذا روي عن النعمان بن بشير ، عن النبي عليه السلام أنه قال: « حلال بَيِّن ، وحرام بَيِّن ، وشبهات بين ذلك ، فمن ترك الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ، وكان لما سواه من الحرام أترَك ، ومن يواقع [٣] الشبهات يوشك أن يواقع الحرام ، كالمرتعي حول الحمى أوشك أن يواقع الحمى ، ألا وإن لكل ملـــك حما ، ألا وحما الله في الأرض المحارم » [٤]. فأهل الوعظ للأنفس هم الـــذين

سننه الكبرى ج١٠/ص١٩٢/ح٢٠٥٧٤ ، وعبد الرزاق في مصـــنفه ج٥/ص٢١٢/ح٢٥٣٣٥ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٢٠/ح٢٥٣٣.

(١) الكلمة مهملة وغير واضحة.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في المخطوطتين: موافقة. مصحفة ، ولعل الصواب ما أثبت.

(٤) عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه ((إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص٢٩/ح٥٢ ، ومسلم في صـــحيحه ج٣/ص١٢٢٠/ح١٥٩٩ ، والنسائي في سننه ج٧/ص٢٤٣/ح٤٤٥٣ ، وابن حبـــان في صـــحيحه ج٢/ص٤٩٨/ح٧٢١ ، والترمذي في سننه ج٣/ص٥١٢/ح١٢٠٥ ، وابن ماجـــه في ســـننه ج٢/ص١٣١٩/ح٣٩٨٤ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص٢٤٣/ح٣٣٢٩ ، وابن حنبل في مســـنده ج٤/ص٢٦٧/ح١٨٣٧٣ ،

يدعون الشبهات ، كما روي عن أيوب السجستاني أنهم تذكروا الورع عن ابن سيرين فقالوا: « أشد شيء علمنا تخليص الحلال من الحرام ، فجاء حسان بن أبي سيار فقال: فيما أنتم؟ فأخبروه ، فقال: لكني ليس شيء أهون علي من ذلك ، إذا حاك في صدري شيء تركته »[1]. فكان هذا ترك الشبهات ، وهو دليل الواعظ لنفسه ، والمراقب لله في معاملته ، والواهب له نفسه ، والبائع دنيا بآخرته.

والوجه الثاني من الجهاد: جهاد العدو من أهل الحرب ، والبغاة على المسلمين ، من المتبّرين لأمورهم وأحكامهم ، فهذا فرض عليهم جميعا ، إلا أنه قام به بعضهم أجزأ عن بعض ، إذا كفى ذلك بعضهم بعضا في نفورهم ، وكان بأذن إمامهم في رباطهم وحصونهم ، وسدا إذا أطرافهم فإذا استنفروهم ففرض أن يخرجوا إليهم ، ويبذلوا أموالهم وأنفسهم ليذبوا بذلك عن حريم المسلمين ، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ [الأنفال:٧٢] ، وقال الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ

والطيالسي في مسنده ج١/ص١٠٧/ح٧٨٨ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٤٠٨/ح٩١٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٠/ص٣٣٣/ح١٠٨٢٤ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٣٩/ح٥٢١٩ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٤٢/ح٣٢ ، وفي مسند الشاميين ج١/ص٢٩٣/ح٥١١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص١٢٨/ح١٠٢٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٥/ص٢٦٤/ح١٠١٨٠،

وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص٢١٥/ح١٦٥٣ ، وابن الجارود في المنتقى ج١/ص١٤٤/ح٥٥٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٤/ص٤٤٨/ح٢٢٠٠٣ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣١٩/ح٢٥٣١ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٢٠٤/ح١٧٣٥.

(١) لم أقف عليه.

يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١] ، ثم بين من يستحق هذا الفوز والثواب العظيم وبما وصفهم به ، ليعمل كل على بينة من ربه ، ولئلا يظن من لا علم له أن كل مقاتل يستحق ذلك ، فقال عز وجل: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ...﴾ [التوبة:١١٢] الآية ، فأخبر أن هؤلاء هم المؤمنون المستحقون لكامل ما وصفهم به للموعود من ثوابه ، والجزيل من كرامته.

وقال عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ ...﴾ [البقرة:٢١٦] الآية.

وقال جابر بن عبد الله ، وعبادة بن الصامت: « بايعنا رسول الله صلى الله عليه على ألا نفر » (١) ، قال جابر بن عبد الله ، وسلمة بن الأكوع ، وغيرهما: « بايعنا رسول الله صلى الله عليه على السمع والطاعة في المنشط والمكسل ، وعلى الفقه في العسر واليسر » (٢). وقد ذم الله عز وجل أقواما

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد عن عبادة بن الصامت بلفظ: ((بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا ، لا نخاف في الله لومه لائم)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٦/ص ٢٦٣٣/ح ٦٧٧٤ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٤٦٧/ح١٨٣٦ ، والنسائي في سننه ج٧/ص١٣٨/ح٤١٤٩ ، وابن حبان في صحيحه ج١٠/ص٤١٤/ح٤٥٤٧ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٩٥٧/ح٢٨٦٦ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٣٨١/ح٨٩٤٠ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٤٤٦/ح٩٦٠ ، والحميدي في مسنده

هموا بالتخلف وأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ...﴾ [التوبة:٣٨ - ٣٩] الآية.

وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه: « الجهاد ماض إلى يوم القيامة ، وآخر من يقاتل أمتي الدجال »[1] ، والجهاد الذي هو جهاد العدو فرض على المسلمين ، على حد ما وصفنا. والجهاد في مجاهدة النفس في تقوى الله ، والإخلاص له بالأعمال والتقرب إليه بها ، وطلب الزلفة لديه ، وخلاصه في تصفية[2] عمله حتى يكون لله خالصا ، أن يحمد لله على طاعته ، ويُسر بها لا من جهة العجب بها ، ولكن من جهة ما يؤمل عند الله بها ، ولا يستر بمدح

ج١/ص١٩٢/ح٣٨٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٤٢١/ح٧٧٧٠ ، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص١٤٢/ح٢٢٥ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٦٣٥/ح٦٠١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص١٤٥/ح١٦٣٢٨ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٢٦١/ح١٧٣٣ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٤٦٤/ح٣٧٢٥٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٩٢/ح٢٧٧.

(١) ورد عن أنس بن مالك بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ثلاثة من أصل الإيمان الكف عمن قال لا إله إلا الله ، ولا تكفره بذنب ، ولا تخرجه من الإسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال ، لا يبطله جور جائر ، ولا عدل عادل ، والإيمان بالأقدار)).

أخرجه أبي داود في سننه ٣/ص١٨/ح٢٥٣٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص٢٧٢/ح١٣٠٨٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٩/ص١٥٦/ح١٨٢٦١ ، وأبو يعلى في مسنده ج٧/ص٢٨٧/ح٤٣١١.

(٢) في المخطوطتين: تصفيقه. لعلها مصحفة ، ولعل الصواب ما أثبت.

الناس له عليها ، ولا يخطر بباله ذلك إلا من جهة طاعتهم لله لمدحهم بها ، إذ[1] كان الله قد أوجب عليهم أن يمدحوه ويزكوه بها ، ولا بسوء ذمهم له بها ، ولا بسوء ظنهم به فيها ، إلا من جهة معصيتهم الله فيه ، إذ كان الله قـــد زجرهم عنه ، فيكون حينئذ إنما سروره بطاعة الله في كل أحواله ، وغضبه لله في كل أحواله ، ولا يكون لنفسه في ذلك شيء ، إذ كان الذي يجب عليـــه مقيما لسوء ما يعلم منها. وكذلك إذا كان في معصيته يجب عليـــه الـــبغض لنفسه فيها ، والمحبة لكل من أبغضه من أجلها ، والبغضاء لكل من أحبه فيها ، والانقلاع عنها ، والسخط على كل من لا يزجره عنها ، وينبهه على قبيح ما كان منه في تقحمها ، بعيدا كان أو قريبا.

فإذا كان العبد كذلك كان لله في كل أمره خالصا ، إذ كان الله قد أوجـــب عليه أن يكون في كل الأمور له مؤثرا ، ولطاعته واتباع محبته راضيا ما رضيه ، وساخطا لما سخطه ، وأن لا تأخذه فيه لومة لائم في طاعتـــه ومعصـــيته ، وعلى جميع ما كان من أحواله. فإذا استعمل العبد ذلك وقام لله به ، خلص له عمله بتوفيق الله وعونه ، وهذا هو أعلا الجهادين وأشرفهما ، والذي لا يقبل الله عملا مع تضييعه ، ولا يوصل إلى مرضاته إلا برعايته وحفظه ، والاستقامة على ذلك حتى يأتيه اليقين.

والجهاد الأصغر هو الذي قال أمير المؤمنين عليه السلام: « الجهاد على أربـــع شعب: على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصدق في المـــواطن ، وشنآن الفاسقين ». وسنذكر ذلك إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ، وإياه نسأل العصمة والتوفيق ، والبلاغ إلى أفضل طاعته ومحبته ، بمنه وقدرته وفضله ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) في المخطوطتين: إذا. ولعل الصواب ما أثبت.

باب الأمر بالمعروف

وهو أول شعب الجهاد. والأمر بالمعروف حب العبد لكل طاعة وبر وأمر بذلك ، وتعليمه لكل من علمه من المريدين ، أو سأل عنه من جميع الخلق كلهم أجمعين ، على النصح لله بذلك في عباده ، وإصلاح بلاده ، والإنارة لحججه ، والذب عن دينه ، والعبارة عن كتابه وسنة نبيه ، والنصح للرسول عليه السلام في أمته ، ولأئمة الهدى بعده من ذريته ، ولجماعة المسلمين من إخوانه ، لأن الأمر بالمعروف فرض على كل مسلم بقسطه ، وحظه من القوة والضعف ، ومبلغ العلم في الكثرة والقلة ، ومخرجه من الجهاد ، وهو فرض على كل مسلم. ومخرج الجهاد من القيام لله بأمره في كل موطن ، ومخرج القيام لله بأمره في كل موطن من النصح لله في كل حال من الأحوال ، المنشط والمكسل.

فإذا وصل العبد إلى درجة النصح لله فقد بلغ أعلى درجات المطيعين له ، وهي درجة الأنبياء والصديقين من الأئمة من بعد ، وذلك فرض على العبد أن يناصح لله في خلقه وعباده وبلاده ، فإذا بلغ العبد درجة المناصحة فقد جُعل إماما يقتدى بهدايته ، ونورا يضيء في كل ظلام ، وشفاء من كل سقام ، وجلا لكل حيرة ، ومجليا عن كل شبهة ، ومفزعا في كل معضلة ، وكهفا في كل مُلمة ، وعمادا في كل مشكلة ، وفارقا عن كل مبهمة ، فهذه صفة أهل المناصحة لله ، الذين جعلهم أمناء في أرضه ، وسفراء إلى خلقه ، يعبرون لهم ما أظلم عليهم من نور حكمته ، ويكشفون عن حجب خفيات سره ، وما استجن به من البرهان في خلقه ، وبيَّنه في سماواته وأرضه ، وبره وبحره ، وما برى وذرأ من عجائب خلقه ، وتقديره وحكمته ، ويستنبطون على ذلك المحكم من كتابهن والمتجلي من واضح سنة رسوله صلى الله عليه وعلى أهل بيته ، والمبين البارز من أدلته ، فبهم أنقذ الله أهل العماية من عمايته ، وابناش أهل الجراءة من سكرتهم ، وهمودهم في بدعهم ، فهم ورثة الأنبياء ، وزهرة

الحكماء ، ومستنبطوا العذب من الماء ، وحياة العباد ، وإنارة البلاد ، والأمناء على الدين ، والقوام بأمور المسلمين ، وهم كما روى وهب بن منبه أنه قال: « أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود إنك إن استنقذت سـكرانا مـن سكرته ، كتبك عندي جهبذا »[١] ، فهؤلاء جهابذة الدين ، والنصـحاء لله في أنفسهم وفي غيرهم ، صابرين محتسبين على ما أصابهم من الأذى والمكروه في جنب الله ، كما أخبر الله عنهم وأخبر النبي عليه السلام بصفتهم وحالهم ، فقال جل ثناؤه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ ...﴾ [آل عمران:١٤٦] الآية. والربانيون: هم أصحاب الرسـل علـيهم السلام ، فكانوا أشد ما كانوا لله طاعة ، ووجلا وخوفا ، واستغفارا وإنابـة وحذرا ، ووجلا من سالف أعمالهم ، وما تقدم من دني أفعالهم ، وقال جـل ثناؤه في صفة لقمان: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ...﴾ [لقمـان:١٧] الآية ، ثم أدبه بالتقوى فقال: ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ...﴾ [لقمان:١٨ - ١٩] الآية ، فنبه أن الفاعل لما نهاه عنه يقوم في جهلـه وقبح ما يكون منه مقام الحمير فيما يكون منها ، فهكذا يكون حقيقة الآمـر بالمعروف على الحقيقة ، إنهم أهل خشية ومنافيه[٢] ، وحياء وتواضع وطاعة في السر والعلانية ، وصبروا على ما نالهم ، وأنهم ممن لا تأخذه في الله لومـة لائم.

وقال تميم الداري ، وأبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، قيل: يا رسول الله لمن؟ قال: لله ولرسوله

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) الكلمة مهملة وغير واضحة.

ولكتابه ولأئمة المسلمين ولعامتهم »[١] ، فلم يبق أحد إلا وقد وجب له النصح ، لأن ذلك كله من النصح لله. وقال جابر بن عبد الله: « بايعنا رسول الله صلى الله عليه على السمع والطاعة ، ولم يبايعنا حتى اشترط علينا النصح لكل مسلم »[٢] ، فهذه درجة المناصحة لله في خلقه التي افترضها عليهم ، والأمر بالمعروف فرض على كل مسلم ، أن يُعلِّم الخير كل من سأله وقصد

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج١/ص٧٥/ح٥٥ ، والنسائي في سننه ج٧/ص١٥٦/ح٤١٩٧ ، وابن حبان في صحيحه ج١٠/ص٤٣٥/ح٤٥٧٤ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٣٢٥/ح١٩٢٦ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٨٦/ح٤٩٤٤ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٣٥١/ح٣٢٨١ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٧٠/ح٨٣٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص٥٢/ح١٢٦٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٤٣٢/ح٧٨٢٠ ، والطبراني في معجمه الصغير ج٢/ص١٣١/ح٩٠٧ ، وفي مسند الشاميين ج١/ص٧٥/ح٩٢ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٤٥/ح١٧ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص١٦٣/ح١٦٤٣٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج٤/ص٢٦١/ح٢٣٧٢ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٣٩٢/ح٢٦٨١ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٤٠٢/ح٢٧٥٤ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٤٢/ح١١٨٤.

(٢) عن جرير بن عبد الله قال: ((بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم)).
أخرجه البخاري في صحيحه ج٦/ص٢٦٣٤/ح٦٧٧٦ ، مسلم في صحيحه ج١/ص٧٥/ح٥٦ ، والنسائي في سننه ج٧/ص١٤٠/ح٤١٥٧ ، وابن حبان في صحيحه ج١٠/ص٤١٢/ح٤٥٤٦ ، والترمذي في سننه ج٤/ص١٥٠/ح١٥٩٣ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٩٥٨/ح٢٨٦٨ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص١٣٣/ح٢٩٤٠ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٩/ح٤٥٦٥ ، ومالك في الموطأ ج٢/ص٩٨٢/ح١٧٧٤ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٧١٩/ح٦٦٠٢ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٥٦/ح١٨٨٠ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٢٨٥/ح٦٤٠ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص٢٩٩/ح٢٢٥٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٤٢٣/ح٧٧٧٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٥/ص٢٧١/ح١٠٢٣١ ، وأبو يعلى في مسنده ج٧/ص٢٩٥/ح٤٣٢٧ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٢٢٢/ح١٤٨١ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج٦/ص٦/ح٩٨٢٢ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٣٢/ح١١٤٣.

إليه ، وذلك أن الله افترضه عليهم وأخذ عليهم المواثيق به ، فقال عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ ...﴾ [آل عمران:١٨٧] الآية ، فأخبر بسوء منقلبهم بكتمانهم النصيحة ، وأوجب عليهم بذلك اللعنة والسخطة.

وقال أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « من سئل عن علم وهو يعلمه وكتمه جاء يوم القيامة وهو ملجم بلجام من نار »[1].

وقال أبو هريرة ، وجابر بن عبد الله ، وغيرهما: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إنما بعثتكم معلمين ، ولم أبعثكم منفرين ، فعلموا الجاهل »[2] ، قال أبو ذر رحمه الله: « مر النبي عليه السلام على المسلمين بمجلسين ، أحدهما يتعلمون العلم ويعلمونه ، والآخر يقرون القرءان ويدعون إليه ويرغبون فيه[3]

---

(١) ورد عن عبد الله بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أيما رجل أتاه الله علما فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١/ص٢٩٨/ح٩٥ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٣٠/ح٢٦٤٩ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص٩٧/ح٢٦١ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص٣٢١/ح٣٦٥٨ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٦٣/ح٧٥٦١ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص١٨٢/ح٣٤٥ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٣٠/ح٢٥٣٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٣٣٤/ح٨٢٥١ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١١٢/ح١٦٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٢٦٧/ح٤٣٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج٤/ص٤٥٩/ح٢٥٨٥ ، وأبو خيثمة في العلم ١/ص٣٣/ح١٤٢ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٣١٥/ح٢٦٤٥٣ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص٣٨٢/ح٠.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في المخطوط: إليه. لعل الصواب ما أثبت.

، فقال: كلا المجلسين على خير وإنما بعثت معلما ، فجلس مع الذين يعلمون العلم» [١].

وقال أبو هريرة وغيره: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] أنه قال: « العالم والمتعلم في الأجر سواء » [٢] ، وقال جابر بن عبد الله وغيره: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] أنه قال: « كل معروف صدقة » [٣] ، وقال عليه

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: ((دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد فرأى مجلسين ، أحد المجلسين يذكرون الله عز وجل ويرغبون اليه ، والاخرون يتعلمون الفقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا المجلسين على خير ، أحدهما يذكرون الله عز وجل ويرغبون اليه ، فان شاء اعطاهم ، وان شاء منعهم ، وأما هؤلاء يتعلمون ويعلمون الجاهل ، وإنما بعثت معلما ، وهؤلاء أفضل فجلس معهم)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ج١/ص٨٤/ح٢٢٩ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٩٨/ح٢٢٥١ ، والحارث / الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج١/ص١٨٦/ح٤٠ ، والدارمي في سننه ج١/ص١١٢/ح٣٤٩.

(٢) عن أبي الدرداء قال: ((معلم الخير والمتعلم في الأجر سواء ، وليس لسائر الناس بعد خير)).

أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ج١/ص١٨٩/ح٢٧٩ ، وأبو خيثمة في العلم ١/ص١٥/ح٥١ ، والدارمي في سننه ج١/ص٩١/ح٢٤٧.

(٣) عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢٢٤١/ح٥٦٧٥، وفي الأدب المفرد ١/ص٨٨/ح٢٢٤ ، ومسلم في صحيحه ج٢/ص٦٩٧/ح١٠٠٥ ، وابن حبان في صحيحه ج٨/ص١٧٢/ح٣٣٧٨ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٣٤٧/ح١٩٧٠ ، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص٣٦٠/ح١٤٩٢٠ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص٥٨/ح٢٣١١ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص٣٦٧/ح١١٢٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٥٢٣/ح١١٧٠١ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٦٠/ح٦٤ ، والدارقطني في سننه ج٣/ص٢٨/ح١٠١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٨٧/ح٨٨ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني

السلام: « ما تصدق عبد بصدقة أعظم عند الله من موعظة يعظ بهـــا قومـــا فيقوم أحدهم وقد نفعه الله بها » [(١)] ، وقال ابن عمر ، وجابر بن عبـــد الله ، وأنس بن مالك: عن النبي عليه السلام أنه قال: « طلب العلم فريضة على كل مسلم » [(٢)] ، وقال صفوان بن مسكان المرادي: عن النبي [صلى الله عليه وآله وسلم]: « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصـــنع » [(٣)] ،

ج٤/ص١٣٨/ح٢١١٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٨٨/ح١١٢٤٧ ، وأبـــو يعلـــى في مسنده ج٤/ص٣٧/ح٢٠٤٠ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٢٧/ح١٠٨٣.

(١) لم أقف عليه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) عن زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي فقال: ما جاء بك يا أصـــلع ، فقلـــت: ابتغاء العلم. فقال: لقد بلغني ((أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بمـــا يصـــنع)) ، فقلت: إنه حاك أو حال في نفسي المسح على الخفين ، فهل حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيئا؟ قال: نعم ، كنا إذا كنا سفرا أو مسافرين أمرنا أن لا نخلع خفافنا ثلاثا إلا مـــن جنابة ، لكن من غائط وبول ونوم ، قلت: فهل حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وســـلم في الهوى شيئا؟ قال: نعم ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كذا وكذا فنـــاداه رجـــل في أخريات القوم بصوت له جهوري أعرابي جلف جاف ، فقال: يا محمد يا محمد ، فقال له القوم: مه فإنك قد نهيت عن هذا ، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو من صوته ، فقـــال: هاؤم ، قال: المرء يحب القوم و لم يلحق بهم ، قال: المرء مع من أحب ، قال: فما بـــرح يحـــدثني حتى حدثني أن الله عز وجل جعل بالمغرب بابا مسيرة ، عرضه سبعون عاما للتوبة ، لا يغلق حتى تطلع الشمس من قبله ، وذلك قول الله عز وجل: ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفـــع نفســـا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ﴾.

أخرجه النسائي في سننه ١/ص٩٨/ح١٥٨ ، وابن حبـــان في صـــحيحه ج٣/ص٣٨٣/ح١١٠٠ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٥٤٦/ح٣٥٣٥ ، وابن حنبل في مســـنده ج٤/ص٢٤٠/ح١٨١١٨ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص١٨١/ح٣٤١ ، والطحاوي في شرح معاني آثار ١/ص٨٢/ح٠ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٩٠/ح٨٨١ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٨/ص٥٤/ح٧٣٤٧ ،

وذلك أن طلب العلم للعمل بالعلم هو الذي يزول عنه الجهل ، فيصبح عمله بالعلم ، لأن كل عمل يعمله صاحبه بعلم وإن قلَّ ، هو أكثر عند الله وأزكى من كثير العمل مع الجهل ، كما جاء الخبر: « قليل العلم مع العلم كثير ، وكثير العمل مع الجهل قليل »[1] ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ ﴾ [الحشر:٨] ، يقول: هذا من فعلهم هو على التصديق لهم ، والإيقان بخالقهم ، فاستوجبوا بذلك صدق موعده ، وجزيل ثوابه ، وتتابع نصره ، وعموم نعمه ، في عاجل دنياهم وآجل أخراهم ، وهؤلاء هم أهل العلم الباطن ، الذين نظروا إلى دناءة الدنيا بقلوبهم ، ورفعة الآخرة ، فلم يلفتوا إلى الدنيا فهانت في صدورهم ،

والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٩٣/ح١٣٢ ، والدارقطني في سننه ج١/ص١٩٧/ح١٥ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١/ص١١٤/ح٥٥٧ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٣٧٩/ح٢٥٨٧ ، والشافعي في مسنده ١/ص١٨/ح٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج١/ص١٦٢/ح١٨٦٧ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ١/ص٢٠٥/ح٧٩٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص١١/ح١٩.

(١) عن هشام صاحب الاستواء قال: ((قرأت في كتاب بلغني انه من كلام عيسى تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل وإنكم علماء السوء الأجر تأخذون والعمل تضيعون يوشك رب العمل ان يطلب عمله وتوشكون ان تخرجوا من الدنيا العريضة إلى ظلمة القبر وضيقه الله ينهاكم عن الخطايا كما أمركم بالصلاة والصيام كيف يكون من أهل العلم من سخط رزقه واحتقر مترلته وقد علم ان ذلك من علم الله وقدرته كيف يكون من أهل العلم من اتهم الله فيما قضى له فليس يرضى شيئا أصابه كيف يكون من أهل العلم من دنياه آثر عنده من آخرته وهو في الدنيا أفضل رغبة كيف يكون من أهل العلم من مصيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه وما يضره أشهى إليه أو قال أحب إليه مما ينفعه كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به ولا يطلبه ليعمل به)). أخرجه الدارمي في سننه ج١/ص١١٥/ح٣٦٨.

وقلّت في أعينهم ، فربحوا وأنجحوا ، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة:٢٢].

فأما من خالفهم من الذين ذمهم الله من أهل العلم الظاهر ، المحجوبة قلـــوبهم عن اليقين بالآخرة إلا من جهة الإقرار والتصديق ، فمنهم كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّـا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ ...﴾ [العنكبوت:١٠] الآية ، وقال النبي صـــلى الله عليه [وآله وسلم]: « أكثر منافقي أمتي قراؤها »[١] ، وهذا ميراث أعمالهم الظاهرة.

وقال عمر بن الخطاب: سمعت النبي صلى الله عليه [وآله وســلم] يقـــول: « أخوف ما أخاف على أمتي منافقوا اللسان »[٢] ، وبه قال كعب بن عجرة ، وأبو سعيد الخدريك عن النبي عليه السلام أنه قال: « سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم وصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ، ولم يرد علي الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه ، وإنه يرد على الحوض »[٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ورد عن قيس بن جابر الصدفي ، عن أبيه ، عن جده ، بلفظ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((سيكون من بعدي خلفاء ، ومن بعد الخلفاء أمراء ، ومن بعد الأمراء ملوك ، ومن بعـــد الملوك جبابرة ، ثم يخرج رجل من أهل بيتي يملأ الأرض عدلا كمـــا ملئـــت جـــورا ، ثم يـــؤمر القحطاني ، فوالذي بعثني بالحق ما هو دونه من يكنى أبا العلاء)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٣/ص٢٧/ح١١٢٢٨ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٥١٢/ح٨٤٣٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٠/ص١٣٦/ح١٠٢٢٧ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائـــد)

قال النعمان ، وأنس: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « لان بين الساعة فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا ، ويمســي مؤمنا ويصبح كافرا ، يتبع أقواما في خلافتهم لغرض من الدنيا يســير »[1] ،

٢/ص٧٨٤/ح٧٨٨ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٥١٢/ح٣٧٦٣٨ ، والطبراني في معجمــه الأوسط ج ٨/ص١٧٨/ح٨٣٢٥.

(١) عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته : ((ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومى هذا كل مال نحلته عبدا حلال وإني خلقــت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللــت لهــم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله المــاء تقرؤه نائما ويقظان وإن الله أمرني أن أحرق قريشا فقلت رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة قال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم وعفيف متعفف ذو عيال قال وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعا لا يتبعون أهلا ولا مالا والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخــل أو الكــذب والشنظير الفحاش و لم يذكر أبو غسان في حديثه وأنفق فسننفق عليك)).

أخرجــه البخـــاري في صــــحيحه ج٤/ص١٨٨٩/ح٤٦٥٨ ، ومســلم في صــــحيحه ج٤/ص٢١٩١/ح٢٨٥٥ ، وابن حبان في صحيحه ج٢/ص٤٢٥/ح٦٥٣ ، والترمذي في ســننه ج٥/ص٤٤١/ح٣٣٤٣ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص٦٣٨/ح١٩٨٣ ، وابن حنبل في مســنده ج٤/ص١٧/ح١٦٢٦٦ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٤٦/ح١٠٧٩ ، والطبراني في معجمــه الكبير ج١٧/ص٣٥٩/ح٩٨٧ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٥/ص٢٦/ح٨٠٧٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٣٠٥/ح١٤٥٥٧ ، والدارمي في سننه ج٢/ص١٩٨/ح٢٢٢٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٣/ص٢٠٦/ح٢٩٣٣.

قال الحسن: « قد والله رأيتهم فراش نار ، وذباب طمع ، يغدون بدرهمين ويروحون بدرهمين ، يبيع أحدهم دينه شراء العبيد » (١).

وقال ابن مسعود: « يدخل أحدهم على الرجل ومعه دينه ويخرج من عنده وما معه من دينه لا قليل ولا كثير » (٢) ، فهذه صفة أهل العلم الظاهر ، الذين نظروا بظاهر أبصارهم إلى ظاهر الدنيا ، وحجبوا قلوبهم عن أمور الآخرة الباطنة ، وتركوا أمر الله من أجلهم فيهم.

وأما أهل المعرفة بالله واليقين به ، والفَهِمون عنه ، فهم القائلون لله بالصدق في مواطن المحن ، وهم الذين يؤثرون أمر الله على كل حال ، من شدة أو رخاء ، أو عافية أو بلاء ، لا تأخذهم فيه لومة لائم ، كما قال أبو ذر رحمة الله عليه: « إني لأرجو أن لا تأخذني في الله لومة لائم » (٣) ، وقال الله سبحانه: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ ﴾ [المائدة:٥٤].

وقال جابر بن عبد الله: « بايعنا رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] بيعة العقبة ، وقلنا: يا نبي الله على ما نبايعك؟ فقال: على السمع والطاعة في المنشط والمكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ، وأن تمنعوني إذا قدمتُ عليكم بما تمنعون منه أنفسكم وأهاليكم ، ولكم الجنة. فقام سعيد بن زرارة فقال: يا معشر الأنصار كفوا أيديكم ، فإنا والله لم نضرب إليه من يثرب إلا ونحن نعلم أنه رسول الله حقا،وإن إخراجه اليوم قبل إخراجكم ، ومفارقة العرب كافة ، وإن كنتم على عض السيوف إذا أخذلكم وقتْل أخياركم ،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

وفارقتكم العرب كافة ، فخذوه على ذلك ، وإن كنتم تخافون من أنفسكم خيفة فدعوه فهو عذر لكم عند الله ، فقالوا: امض عنا يا سعيد بن زرارة ، فوالله لا نستقيل هذه البيعة ولا نقيلها أبدا ، فقاموا إليه رجل رجل فبايعوه ويعطيهم على ذلك الجنة »[(١)].

---

(١) عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، ((أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنة وعكاظ ومنازلهم من مني من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة فلا يجد أحدا ينصره ولا يؤويه حتى أن الرجل ليرحل من مصر أو من اليمن إلى ذي رحمه فيأتيه قومه فيقولون له أحذر غلام قريش لا يفتننك ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله من يثرب فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام وبعثنا الله إليه فائتمرنا واجتمعنا وقلنا حتى متى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم فواعدنا بيعة العقبة فقال له عمه العباس يا بن أخي لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاءوك أني ذو معرفة بأهل يثرب فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين فلما نظر العباس في وجوهنا قال هؤلاء قوم لا نعرفهم هؤلاء أحداث فقلنا يا رسول الله على ما نبايعك قال تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومه لائم وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون عنه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة فقمنا نبايعه وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين إلا أنه قال رويدا يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن يعضكم السيف فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم وعلى قتل خياركم ومفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر عند الله عز وجل فقالوا يا أسعد إمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها قال فقمنا إليه رجلا رجلا فأخذ علينا ليعطينا بذلك الجنة)).

وقال عبادة بن الصامت لأبي هريرة في قصة معاوية حين كلمه أبو هريــرة: « يأُخي ما شأن معاوية يشكوك فدعه وما يقول! فقال عبادة بــن الصــامت: اسكت لم يكن معنا حين بايعنا رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] بيعــة العقبة على أن نقول في الله ، لا تأخذنا فيه لومة لائم » [1] ، فذكر عبادة نحو حديث جابر بن عبد الله.

فمن كان من أهل القيام له بالصدق في مواطن المحن والشدة ، كانت هــذه صفته و لم يخف غير الله ، وكيف يخاف غيره ويقوم مقامه عنده أهيب مــن مقام ربه؟! مع فهمه عــن الله قولــه: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبــة:١٣] ، فأضاف بكامل [2] الخشية له جل ثنــاؤه دون غيره إلى الإيمان به واليقين بواجب حقه ، وأنه لا أحد أحق بالخشية منه تعالى وعز ، وكان أيضا كما قال بعضهم: « إنا لنستحيي من الله أن نخــاف شيئا سواه » [3] ، قال أبو ذر رحمة الله عليه: « بما تهددني قريش هل هــو إلا القتل فوالله للموت أحب إلي من الحياة ، ولبطن الأرض أحب إلي من ظهرها ، وللفقراء أحب إلي من الغنى ، فبما تهددني قريش؟! » [4] ، فإذا قام العبــد بدرجة الصدق في المواطن كان على معنيين:

إما أن يصدق في المواطن فيرجع بأفضل الجهاد والسلامة.

أخرجــه ابــن حبــان في صــحيحه ج١٤/ص١٧٥/ح٦٢٧٤ ، وابــن حنبــل في مســنده ج٣/ص١٥١/ح١٢٥٥١ ، والحاكم في مستدركه ج٢/ص٦٨٢/ح٤٢٥١ ، والبيهقي في ســننه الكبرى ج٨/ص١٤٦/ح١٦٣٣٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج٦/ص٢٦٩/ح٣٥٧٢.

(١) لم أقف عليه.

(٢) الكلمة غير واضحة المعنى.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

وإما أن يصدق في المواطن فيحكم الله بأفضل الجهاد والشهادة.

وقال الحسن: « يجزي من العمل مع العلم مثل ما يجزي الطعام من الملح »[(١)]، وروي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله: « أنتم اليوم في زمان العمل، وسيأتي على الناس زمان يكون العمل فيه خيرا يفتح من العلم، وإن زحف العالم في علمه زحفا »[(٢)]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:٧]، ثم بين أهل العلم منهم فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]، فهم أهل الخشية والمراقبة، والحياء والسكينة، كما قال سبحانه: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح:٢٦]. فقاموا بعلمهم، وبما حكم به لهم وعليهم في أرض الله تعالى، وأدوا إلى عباده الأمر من عنده، فهم النصحاء القائمون بقسطه في عباده وبلاده، كما أمرهم الله في كتابه، وأوجب عليهم في سنة نبيه، وهم الأئمة الهداة بعده من عترته، وأتباعهم من أهل ولايته، فهذا الأمر بالمعروف الذي افترضه الله على المؤمنين، من حب كل طاعة وبر وفعلهما، فذلك التعاون على البر والتقوى، الذي ندب الله إليه عباده بقوله: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ... ﴾ [المائدة:٢] الآية، وهو التعلم للخير والتعليم له.

وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ... ﴾ [آل عمران:١١٠] الآية، فلم يوجب لهم الرحمة مع

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

الأمر والنهي إلا باجتماع الطاعة بكمالها ، لأنه قد يكون آمر ونـــاهي غــير مؤتمر ولا منتهي ، كما أنبأنا في كتابه قصة من كانت هذه صفته ، فقال: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ...﴾ [البقرة:٤٤] الآية ، وقال تعـــالى يمدح آخرين ويـــثني علـــيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف:١٥٧] ، وقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ...﴾ [النحل:٩٠] الآية ، وقال: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ ...﴾ [الأنعام:١٥٢] الآية.

والوفاء بعهد الله فرض واجب ، وكذلك التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو الأمر بكل طاعة والدعاء إليها بأحسن القول وأعدله ، كما قال: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ ﴾ [الأنعام:١٥٢] ، وكذلك التعلم لكل بر والتعليم له ، كما قال النبي عليه السلام في حديث أبي ذر قال: « يا رسول الله أخبرني بالإيمان؟ فتلا الـــنبي عليـــه الســـلام: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ ...﴾ [البقرة:١٧٧] إلى آخرها ، وقال: يا رسول الله أقلل لي. فقال عليه السلام: المؤمن الذي تسره حسنته وتسوءه ســيئته ، فهو مؤمن »[1]. وقد فسرنا معنى السرور بالحسنة وبيناه آنفا.

قال النعمان بن بشير: عن النبي صلى الله عليه السلام: « مثل الإيمان من المؤمن مثل الرأس من الجسد ، يألم الرأس فيألم له الجسد »[2] ، وقال النبي عليـــه

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد عن بشير بن سعد بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((منزلة المؤمن من المـــؤمن منزلة الرأس من الجسد ، متى ما اشتكى الجسد اشتكى له الرأس ، ومتى ما اشتكى الرأس اشتكى سائر الجسد)). أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج٢/ص٤٠/ح١٢٢٣.

السلام: « مثل المؤمنين بعضهم من بعض مثل البنيان يشد بعضه بعضا » [1].
وقال النعمان بن بشير ، وأبو هريرة: عن النبي عليه السلام: « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد ، إذا اشتكى شيء منه تداعا سائره بالحمى والسهر » [2].
فهذه صفات أهل النصح لله في خلقه ، الذين يؤدبونهم بالمعروف ، ويعلمونهم ما افترض الله عليهم من العلم ، بالشفقة والرحمة عليهم ، مع خفض الجناح لهم ، وبذل المعروف والإحسان إليهم ، والتواضع لهم ، واحتمال جهلهم ، والصبر على تعليمهم ، محتسبين بذلك القربة من الله ، فإذا كانوا كذلك شدوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص١٨٢/ح٤٦٧ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص١٩٩٩/ح٢٥٨٥ ، والنسائي في سننه ج٥/ص٨٠/ح٢٥٦٠ ، وابن حبان في صحيحه ج١/ص٤٦٨/ح٢٣١ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٣٢٥/ح١٩٢٨ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٤٠٥/ح١٩٦٤٠ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٣١٣/ح٧٧٤٩ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٦٨/ح٥٠٣ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٤٠/ح٧٧٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٢/ص٤١/ح٢٣٤١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص١١٢/ح١٣٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٩٤/ح١١٢٩١ ، وأبو يعلى في مسنده ج١٣/ص٢٨٠/ح٧٢٩٥ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص١٩٦/ح٥٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢٢٣٩/ح٥٦٦٥ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٠٠٠/ح٢٥٨٦ ، وابن حبان في صحيحه ج١/ص٤٧٠/ح٢٣٣ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٢٦٨/ح١٨٣٨١ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٠٧/ح٧٩٠ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٤٠٩/ح٩١٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٦/ص١٣١/ح٥٧٤٣ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص٢٣٥/ح٣٨٢ ، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص٢٩٤/ح٥١٢ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص٢٨٣/ح١٣٦٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٣٥٣/ح٦٢٢٣ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص١٠٢/ح٦٠٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٨٩/ح٣٤٤١٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٥/ص٦٩/ح٤٦٩٦.

ظهورهم ، وأعانوهم على أداء فرائضهم ، وجعلوا لهم السبيل إلى رضوان ربهم ، ودلوهم على منهاج نبيهم عليه السلام ، وذلك كله من النصح له ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فذلك معنى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ». وقد فسرنا[ه] والحمد لله ، وإياه نسأل التوفيق ، وبالله نستعين ، وسنفسر باب النهي عن المنكر ولا قوة إلا بالله.

باب النهي عن المنكر

وهو الكلام عن الشعبة الثانية من الجهاد ، والنهي عن المنكر هو بغض العبد لكل معصية ، ونهيه عن كل إثم ، وذلك فرض على جميع المسلمين أن يمنعوا المعاصي وأهلها وينهوا عنها ، بطاقتهم وجهادهم ، لأن الله أبغضها ونهى عنها ، فمن وافق الله في محبته في بغض المعاصي وأهلها ، ونهى عنها وغضب على أهلها بغضب الله عليهم ، فقد أدى ما يجب عليه في كراهة ما كره الله ، وبقدر معرفة العبد بما يجب لله على خلقه ، وعظيم ما ارتكبوا من معصيته ، يكون نهيه عن المنكر ، وإذا علت درجة العبد ورسخ يقينه كان أشد إنكارا للمعاصي وما أشبهها ، وإذا ضعفت معرفته ضعف نكرانه على قدره ، والإنكار على قدر ضعف العبد وقوته ، وعلى قدر علمه وبصيرته ، وعلى قدر إجلال الله في قلبه وكبره.

فالنهي فرض على كل مسلم على قدر طاقته [1] ، واتساع علمه ، ورسوخ بصيرته في نفسه وغيره ، وقد بين الله ذلك بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ...﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية ، فقرن الأمر والنهي في الإيمان بالله تأكيدا لفرضه ، وقال تعالى فيما حكى عن

(١) في المخطوط: طاعته. ولعل الصواب ما أثبت.

لقمان عليه السلام ليجعله قدوة: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧] ، وقال: ﴿ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ [المائدة:٦٣] ، وقال عز وجل: ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٩] ، وقال: ﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود:١١٦] ، وقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٨ - ٧٩]. فهذا [1] ذكر النهي عن المنكر في الكتاب وما افترضه الله عليهم ، وأُمروا أن يأخذوا ما آتاهم به الرسول عليه السلام وينتهوا عما نهاهم عنه ، فقال جل ثناؤه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ...﴾ [الحشر:٧] الآية ، فالفرض على جميع المسلمين النهي عن المنكر والبغض لأهلها ، والفرض عليهم على قدر ضعفهم وقوتهم ، وعلمهم ونقصهم ، وهم على ثلاثة أوجه الناس فيها على طبقات ثلاث:

فأول الوجوه وهو أعلاها وأشرفها عند الله قدرا ، هي درجة المقربين من خلقه وأنبيائه وأصفيائه ، وأئمة دينه من أهل صفته ، وهو النهي عن المنكر

(١) في المخطوط: فهذه. ولعل الصواب ما أثبت.

باليد والغضب لله عند انتهاك محارمه ، كما يغضب النمر عند فريسه [١] ، فإن النمر إذا غضب لم يبال قلَّ الناس أم كثروا.

ويروى أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن: « كن محاربـا كالنمر ، وكن سريعا كالنسر ، وكن ضعيفا كالصبي » [٢] ، يقـول: كـن جَرِيًّا كالنمر على أهل معصيتي ، وكن سريعا كالنسر أي: أجهـض [٣] في طاعتي ، وكن ضعيفا كالصبي أي: اخفض جناحك للمؤمنين ، فلم يرض الله من أهل الصدق إلا بالقيام بأعلا درجات النهي والغضب عند انتهاك محارمه ، كما قال جل ثناؤه: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ... ﴾ [المائدة:٥٤] الآية ، وقال تعالى في صفة هـود عليـه السـلام: ﴿ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ ...﴾ [هود:٥٥ - ٥٦] الآية. وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: كـان النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « إذا غضب لله يتطاير من حوله كما يتطـاير الوبر عن ظهر البعير ، حتى يسكن من شدة غضبه لله » [٤]. وقال أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله: « المعروف باليد ، فباللسان ، فمن لم يستطع باللسان فبالقلب ، وذلك أضعف الإيمان » [٥] ، وإنما عنى بالمعروف:

---

(١) الفريس: الفريسة.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أجهض: أعجل.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((مـن رأى منكـرا فغيره بيده فقد برئ ومن لم يستطع أن يغيره بيده فغيره بلسانه فقد برئ ومن لم يستطع أن يغـيره بلسانه فغيره بقلبه فقد برئ وذلك أضعف الإيمان)).

تغيير المنكر ، لأن تغيير المنكر هو المعروف يأمر به ، فقد ينصرف على نهي المنكر ، وعلى الإزدياد في المعروف والترغيب فيه ، كل ذلك في اللغة جايز.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « المعروف باليد فإن لم يستطع باليد فباللسان ، فإن لم يستطع باللسان فبالقلب وذلك أضعف الإيمان ، وإذا صار العبد إلى ترك تغيير القلب نُكسَ القلب فجعل أعلاه أسفله ، فحينئذ لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا »[1] ، فقد فسره علي بن أبي طالب على ما ذكره النبي عليهما السلام ثلاثة وجوه:

فأعلاها درجة اليد وهي التي وصفنا من فعل النبي عليه السلام والأئمة من عترته ، الذين لم يرض لهم بالتقصير في أمره ، وقد ذَكَرَ أهل التقصير عن أمره فذمهم بما كان من تقصيرهم وأنزل بهم عقوبته.

وقال ابن مسعود: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « لما وقع النقص في بني إسرائيل ، كان الرجل يرى أخاه على الفاحشة فلا ينهاه عنها ، ثم لا يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، وأنزل فيهم قرءانا ، وليجعلهم معتبرا لمن بعدهم ، وتحذيرا لمن فَهِمَ عن الله خبرهم ، فقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ

أخرجه النسائي في سننه ٨/ص١١٢/ح٥٠٠٨ ، ٨/ص١١٢/ح٥٠٠٩ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٢٣/ح٤٣٤٠ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٩٢/ح٢١٩٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٥٣٢/ح١١٧٣٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٩٧/ح٥٩٩٧ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٤١٤/ح١٢٠٣.

(١) ورد عن علي بلفظ: ((إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ثم الجهاد بألسنتكم ثم الجهاد بقلوبكم ، فأي قلب لم يعرف المعروف ولا ينكر المنكر نكس ، فجعل أعلاه أسفله)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ص٣٨٦/ح٢٣٣٢٨ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٥١٤/ح٨٤٤٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٩٠/ح١٩٩٦٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٤٧٤/ح٣٧٣٤٣.

لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ... إلى قولـــه: كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [المائـــــدة:٧٨ - ٨٠].
وكان رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] متكئا فاستوى جالسا ، ثم قال: كلا والله لتأخذوا على يدي الظالم ، وتأطروهم على الحق أطرا »[١] ، يعني: تجاهدوهم عليه جهادا ، فقد ذم الله القوم مع إنكارهم علـــيهم ، ولم يـــرض الإنكار منهم إلا بالمباينة لهم ، فلما خالطوهم عاقبهم كما أخبر به في كتابه.
وقال عكرمة: أخذ المصحف ابن عباس فقرأ هذه السورة يعني: الأعـــراف ، فلما بلغ قصة اليهود: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ... ﴾ [الأعراف:١٦٣] الآية ، فقال ابن عباس: يا عكرمـــة هذه قرية بحاضر البحر يقال [لها]: أيلة ، كان فيها قوم من اليهود حـــرم الله عليهم صيد السبت ، فكان السمك إذا كان يوم السبت يجيء شرعا حتى يقع في آنيتهم وبيوتهم ، وإن كان غير السبت تحجب في البحر ، فـــلا يقـــدرون

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله: ((إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص ، جعل الرجل يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ما رأى منه ، أن يكون خليطه وأكيله وشريبه ، فضرب الله على قلوب بعضهم على بعض ، ونزل فيه القرآن ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ... الآية إلى قوله: كثيرا منهم فاسقون ﴾ ، ثم قال رسول الله: كلا والذي نفسي بيده حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق أطرا)).

أخرجه الترمذي في سننه ج٥/ص٢٥٣/ح٣٠٤٨ ، وابن ماجه في ســـننه ج٢/ص١٣٢٨/ح٤٠٠٦ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٢٢/ح٤٣٣٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٩٣/ح١٩٩٨٣ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج١/ص١٦٦/ح٥١٩.

عليها إلا بمشقة ، وقال طائفة: لو حفرنا لها الحفائر يوم الجمعة ، فإذا كان يوم السبت وقعت في الحفائر ونأخذها يوم الأحد ، ففعلوا فأثروا وكثرت أموالهم ، فحين علم بهم قومهم قالوا: يا قوم اتقوا الله ولا تستحلوا صيد السمك ، فأبوا أن يقبلوا منهم فافترقوا ثلاث فرق منهم:

فمنهم من استحل صيد السمك السبت.

ومنهم من نهاهم و لم يغير لهم وأقام معهم.

والفرقة الثالث نهت واعتزلت ، وقالوا: والله لا نناكحكم ولا نواكلكم ولا نسايركم حتى تتوبوا ، فإنا نخشى أن يترل بكم العذاب فيصيبنا معكم ، وخرجوا من قريتهم ، فقالت الفرقة التي نهت وأقامت: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٤] ، وقالوا: إما أن تتقوا وتتوبوا فيكتب لنا ثوابهم ، وإما أن يترل بهم العذاب فلا يصيبنا معهم. وقرأ ابن عباس حتى بلغ هذا الموضع: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٥ - ١٦٦] ، قال ابن عباس: فكان أهل القرية الذين استحلوا صيد السبت يصبحون على خمورهم ولهوهم ولهم ضجة في القرية ، فلما أراد الله بهم العقاب أصبحوا ذات يوم وليس لهم صوت يسمع ولا حركة ، فقال بعضهم لبعض: لعل القوم أصبحوا على خمورهم ولهووهم فناموا ، فلما تعالى النهار و لم يسمعوا لهم صوتان قال بعضهم لبعض: يا إخواننا إنا نخاف أن يكون قد نزل بهم العذاب ، فأصعدوا رجلا من فوق السور ، وكانت الأبواب مغلقة عليهم فلما أشرف عليهم نادى بأعلا صوته: يا إخوتاه هؤلاء إخوانكم قردة لها أذناب تعاووا ،

وثم نزل ففتح عليهم الباب فدخلوا عليهم فكان القرد يجيء إلى قرائبه وابـن عمه ، والقردة تجيء إلى قرائبها وابن عمها فلا يعرفه أنه الرجل حتى يجـيء ويحرك ذنبه ، فيقول له الرجل: من أنت؟ فلان؟ فيقول: برأسه ، أي: نعم ، ثم بسط يده ويقول: ذلك بما كسبت يدك وتدمع عيناه ، فلما بلغ ابن عباس هذا الموضع بكى حتى علا بكاوءه ، ثم قال: والله ما سمعت الله ذكر أنه نجـا إلا الفرقة التي نهت واعتزلت ، ولقد أهلك الفريقين جميعا التي غضبتن والتي نهت وأقامت معهم ، ثم تلا ابن عباس ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ... ﴾ [الأعراف:١٦٥] الآية ، فلم يرض الله عز وجل من أهل العلم والقيام له بالتقصير إلا بحقائق التعبير ، وهو النهي لهم والعزلة عنهم والمباينة لهم في أفعالهم وأقوالهم ومستقرهم ومقامهم.

وقال أبو ذر رحمة الله عليه: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآيـة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾ [المائدة:١٠٥] ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: « أيما قوم عُمل بينهم بالمعاصي فلم يأخذوا على يدي الظالم إلا عمهم الله على بعقاب مـن عنده »[1] ، وقال المعرور بن أسود: عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليـه

---

(١) ورد عن المنذر بن جرير ، عن أبيه ، بلفظ: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما مـن قـوم يعمل بين أظهر هم بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع ، لم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعقاب)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١/ص٥٣٧/ح٣٠٠ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٢٩/ح٤٠٠٩ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٢٣/ح٤٣٣٩ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٣٦١/ح١٩٢١٥ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٩٢/ح٦٦٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص٣٣١/ح٢٣٧٩ ، والطبراني في مسند الشاميين ج٢/ص٢٧٩/ح١٣٣٧ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائـد) ج٢/ص٧٦٥/ح٧٦٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٩١/ح١٩٩٧٨ ، وأبـو يعلـى في مسنده ج١٣/ص٤٩٨/ح٧٥٠٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٣/ص٢٤١/ح٠.

[وآله وسلم] قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: « إذا ظهرت المعاصي عمهم الله من عنده بعقاب . قالت: قلت: يا رسول الله وهل على وجه الأرض يومئذ من الصالحين أحد؟! قال: نعم ، قلت: فما بال أولئك؟ قال: يصيبهم ما أصاب القوم ثم يصيرون إلى رحمة من الله ورضوان »[(١)]. وقال ابن مسعود: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « أيما قوم عمل بينهم بالمعاصي هم أعز وأمنع لم يأخذوا على يدي الظالم إلا عمهم الله من عنده بعقاب »[(٢)]. وقالت زينب ابنة جحش زوج النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « انتبه النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] من نومه محمرا وجهه ، فقال: ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وأشار إلى إصبعه وحلق عشرا ، فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: نعم ، إذا كثر الخبث »[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن حنبل في مسنده ٦/ص٣٠٤/ح٢٦٦٣٨ ، والحميدي في مسنده ج١/ص١٢٩/ح٢٦٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٣/ص٣٢٦/ح٧٤٧ ، وابن راهويه في مسنده ج٢/ص٥٢٨/ح١١٠٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) عن زينب بنت جحش قالت: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول: ((ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها ، قالت زينب: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ، قال: نعم ، إذا كثر الخبث)).

أخرجه أبي داود في سننه ٤/ص٩٧/ح٤٢٤٩ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٣٩١/ح٩٠٦٣ ، والحاكم في مستدركه ج٤/ص٤٨٦/ح٨٣٥٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٤/ص٥١/ح١٣٥ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص١٩٧/ح٢٩٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص١٠٦/ح١٣٩٧.

وقال جابر بن عبد الله ، وبريدة الأسلمي ، أنه قال لما قدم جعفـــر بـــن أبي طالب من الحبشة رضي الله عنه قال له عليه السلام: « ما أعجب شيء رأيته بأرض الحبشة؟ قال: يا رسول الله رأيت امرأة على رأسها مكتل من طعام ، فمر بها فارس يركض فدفعها فأذراه من رأسها فقعدت تجمعه وهي تقـــول: ويل لك بأي عذر تلقى الله يوم يضع كرسيه فيأخذ للمظلوم من الظالم. فقال النبي [صلى الله عليه وآله وسلم]: لا قدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها الحق والضعيف غير متعتع »[1].

وقال مالك بن دينار: « كان حبر من بني إسرائيل يعظ كل جمعة ، فتجتمـــع إليه الرجال والنساء ، وأناله ذات يوم يفجر بامرأة من النساء ، فقال: يا بـــني مهلا جهلا ، فسقط من سريره ، واندق نخماعه ، يعني: قوته ، وأســـقطت امرأته وكانت حاملا ، وقتل ولده وكانوا في الجيش ، ثم أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: قل لفلان الحبر ما كان غضبك لي إلا أن قلت: يا بني مهلا مهلا ، لا أخرجت من صلبك خيرا أبدا »[2].

وقال مالك أيضا: « رأيت في بعض الكتب مكتوبا: من كان له جار يعمـــل بالمعاصي فلم ينهه فهو شريكه. قال: وأوحى الله إلى يوشع بن نون أني مهلك من قومك مائة ألف ، ستين ألفا من صالحيهم وأربعين ألفا مـــن طـــالحيهم. فقال: يا رب هذا مهلك الطالحين ، فما بال الصالحين؟! قال: إنهـــم كـــانوا يروهم على المعاصي فلا ينكرون ذلك عليهم »[3].

---

(١) أخرجه الحاكم في مســـتدركه ٣/ص٢٣٤/ح٤٩٤١ ، وابـــن حنبـــل في فضـــائل الصـــحابة ٢/ص٨٩١/ح١٦٩٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٩٥/ح١١٢٩٤ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٥/ص٢٥٢/ح٥٢٣٤.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

وقال وهب بن منبه: « أوحى الله إلى جبريل عليه السلام أن ائت قرية كذا وكذا فاخسف بهم ، فضجت الملائكة وقالت: يا رب فيهم عبدك فلان - وليس هذا القول من الملائكة بسخط لقضاء الله ، ولكن أرادوا بذلك الخبر عن الله ، وهو مثل قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠] - فلما ضجت الملائكة وقالوا ما قالوا ، أوحى الله إلى جبريل: أن أسمعني صيحة أولهم فإنه لم يتغير وجهه غضبا لمحارمي »[1] ، والأخبار في ذلك تكثر. فهذا أحد الوجوه قد فسرناه.

والوجه الثاني من الإنكار هو: الإنكار باللسان لمن لا يبلغ بأهل هذه الدرجة ، وهو فرض عليه أن يعين أهل هذه الدرجة من أبناء الرسول ، وأن يغضب لهم ويرد عنهم ما قيل فيهم من البهت والزور من غير ذلك ، ولا يرضى بأن يُغتابوا ولا يُطعن عليهم لله ، [إذ] كانوا قوامين لله بالقسط في عباده وبلاده ، وقد رفع الله قدرهم ودرجاتهم عنده ، بالقيام منهم بأمره ، فمن ذلك ما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ...﴾ [النساء:١٣٥] الآية ، وقال تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج:٣٠] حقا لله غير مشركين به.

وقال أبو سعيد الخدري: عن النبي عليه السلام: « فمن لم يستطع باليد فباللسان »[2] ، وقال أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « حق المسلم على أخيه المسلم خمس ، إحداهن حفظه إذا غاب - يعني: يرد عنه الغيبة - والأربع: يعوده إذا مرض.، ويشهد جنازته إذا مات ، ويشمته إذا

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) سبق تخريجه.

عطس ، ويجيبه إذا دعاه »[١] ، وقال عكاشة بن محصن: عن أم ســـلمة زوج النبي عليه السلام قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: « ســـيكون بعدي أمراء يعرفون وينكرون ، فمن أنكر فقد برئ ، ومن كره فقد سلم »[٢].

وروى محمد بن حميد الرازي ، عن جرير بن عبد الحميد ، عـــن ســـليمان الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] قال: « استقيموا لقريش ما استقاموا ، فإذا لم يستقيموا لكـــم

(١) ورد عن أبي هريرة بلفظ: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((حق المسلم على المسلم أن يسلم عليه إذا لقيه ، ويشمته أو يسمته إذا عطس ، ويجيبه إذا دعاه ، ويعوده إذا مرض ، ويشهده إذا مات ، وينصح له إذا غاب)).

أخرجه البخـــاري في صـــحيحه ج١/ص٤١٨/ح١١٨٣ ، وفي الأدب المفـــرد ١/ص٦٧/ح١٥٧ ، ١/ص٣١٩/ح٩٢٥ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص١٧٠٥/ح٢١٦٢ ، وابن حبان في صـــحيحه ج١/ص٤٧٧/ح٢٤١ ، والترمذي في ســـننه ج٥/ص٨٠/ح٢٧٣٦ ، وابـــن ماجـــه في ســـننه ج١/ص٤٦١/ح١٤٣٣ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٣٠٧/ح٥٠٣٠ ، وابن حنبل في مســـنده ج١/ص٨٩/ح٦٧٣ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص٥٠١/ح١٢٩٢ ، والطيالسي في مســـنده ج١/ص٣٠٣/ح٢٢٩٩ ، والطبراني في معجمه الكـــبير ج٩/ص٣٥٢/ح٩٧٤٨ ، والنســـائي في سننه الكبرى ج٦/ص٦٤/ح١٠٠٤٩ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٣٣٨/ح٣٢٨ ، والحارث الهيثمـــي في مســـنده (الزوائـــد) ج٢/ص٨٥٧/ح٩١٠ ، والبيهقـــي في ســـننه الكـــبرى ج٣/ص٢٢٣/ح٥٦٣٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج١/ص٣٤٢/ح٤٣٥ ، وابن الجارود في المنتقـــى ١/ص١٣٨/ح٥٢٥ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٥٧/ح٢٦٣٣.

(٢) لم أقف عليه.

فضعوا أسياقكم على عواتقكم فأبيدوا خضرائهم ، وإن لم تفعلوا فكونوا حراثين وزراعين أشقياء ، تتبعون أذناب البقر » [١].

حدثني أبو عمر ، وعثمان ، عن عمر ، عن أبي محمد ، عن الحسن ، عن ابن حميد ، وقال أبو سعيد الخدري: عن النبي صلى الله عليه وآله: « أفضل الشهادة عند الله رجل تكلم بكلمة عدل عند سلطان جائر فقتل عليها » [٢].

وقال أبو إمامة الباهلي: « قام رجل عند الجمرة الأولى فقال: يا رسول الله أخبرنا بأفضل الجهاد؟ فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] شيئا ، ثم قام عند الجمرة الثانية فقال مثلها ، فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] شيئا ، فلما كان عند جمرة العقبة وضع النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] رجله في المغرز غرز الركاب ، ثم قال: أين السائل؟ قال: ها أنا ذا يا رسول الله ، قال النبي عليه السلام: أفضل الجهاد عند الله كلمة عدل عند

---

(١) ورد عن ثوبان بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن لم يفعلوا فضعوا سيوفكم على أعناقكم فأبيدوا خضراءهم ، فإن لم تفعلوا فكونوا حراثين أشقياء ، تأكلوا كد أيديكم)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ص٢٧٧/ح٢٢٤٤٢ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١٣٤/ح٢٠١ ، وفي معجمه الأوسط ج ٨/ص١٥/ح٧٨١٥.

(٢) عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر)).

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص٤٧١/ح٢١٧٤ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٣٠/ح٤٠١١ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص١٢٤/ح٤٣٤٤ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١٠٨/ح١٥١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج٢/ص١٨١/ح١١٤١.

سلطان جائر »[١]. وقال أبو ذ رحمة الله عليه: « تركني الحق ومالي من صديق »[٢].

والوجه الثالث من الإنكار هو إنكار القلب ، وهو دون الوجوه عند الله ، لأنه أضعف الإيمان وهو فرض على أهله ، فمن لم ينكر المعصية بقلبه عند مـــن لا حيلة له في غير ذلك ، لم يؤد فرض الله في الإيمان شيئا[٣] ، لأن أضعف الإيمان الإنكار بالقلب ، كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام: « وذلك أضعف الإيمان ، فإن عدم إنكار القلب نكس القلب وجعل أعلاه أسفله ، فحينئذ لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا ».

قال أبو سعيد الخدري: عن النبي عليه السلام: « فمن لم يســـتطع باللســـان فبالقلب ، وذلك أضعف الإيمان »[٤] ، وإنما جعل الله تبارك وتعـــالى ذلـــك للضعفاء من الخلق ، الذين قـــال الله فـــيهم: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء:٩٨] ، وبقولـــه: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ... ﴾ [التوبة:٩١] الآية ، فلم يرخص الإنكار بالقلب وحده دون النصيحة.

وقال ابن مسعود: سمعت من النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] حـــديثا مـــا يسرني به حمر النعم ، سمعته يقول: « بحسب امرئ رأى منكرا لا يستطيع لـــه غير أن يعلمه الله من قلبه أنه له كاره »[٥]. فهذا مـــا يكـــون في الإنكـــار للمعصية أن ينكرها بالقلب ، إذا كان ضعيفا لا يقدر على غيره وهو أضعف

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) كذا في المخطوطتين ، ولم يتضح المعنى المراد.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج١٠/ص٢٢٣/ح١٠٥٤١.

الإيمان ، وإن أراد المعصية فهو شريك العاصين ، فقد فسرنا آيات النهي عن المنكر من جميع الوجوه ، فذلك معنى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق» لأن المنكر من أعمال المنافقين ، قال الله جل ثناؤه: و ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ ﴾ [التوبة:٦٧] ، يقول: تركوا أمر الله فتركهمن فمن غضب للمنكر وأهله فهو من حزب الشيطان. وقد قال الله عز وجل: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المجادلة:١٩].

باب الصدق في المواطن

وهو الشعبة الثالثة من الجهاد.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « ومن صدق في المواطن قضى ما عليه » ، وذلك أن الصدق في المواطن هو القيام لله بالحق في كل موطن من المواطن التي افترضها على المؤمنين ، أن يؤثروا الصدق على الكذب ، وخوف الله على خوف المخلوقين ، وذلك أن العبد إذا لزمه الكلام فيما يتكلم به ، فرض عليه أن يصدق ويحرم عليه الكذب ، ويخرج الصدق في المواطن مخرج الحق إذا لزمك الكلام أن تقول بالحق حيث كنت ، وتؤثر الصدق على الكذب ، ولا تخافن في الله لومة لائم. فهذه درجة القيام لله بقسطه في شدة المحن ، فمن قام لله بذلك أورثه درجة الرهبة ، والتعظيم له والإجلال لمقامه والحياء ، وذلك أن أهل الرغبة والتعظيم له نظروا إلى عظمة الله بباطن قلوبهم ، وإلى أمره لهم بالقيام له ، وأنه يملك من ضرهم ونفعهم ما لا يملكه غيره ، وأنه القادر على صرف الأسواء عنهم ، والحائل بينهم وبين شر عدوهم ، فيسهل عليهم أمر المخلوقين عند ذلك ، وعلموا أنه جل ذكره إن خلا بينهم وبين أعدائهم فإنما

فعل ذلك بالنظر منه لهم ، وليعرضهم الصبر على ما أصــابهم ، ليســتكملوا أبواب المطيعين في السراء والضراء والشدة والرخاء ، فثبتت عزائمهم وصــح يقينهم ، وشروا لله عند ذلك أنفسهم ، فصغر عندهم جميع الخلق ، إذ علموا أن الله ناصرهم ومؤيدهم ، كما ضمن لهم بقوله: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ [محمد:٧] ، فنهوا له عن كل معصية ، وتجرعوا فيه كل غصة ، وخاضوا فيه كل غمرة ، ولم يرهبوا عند ذلك مخلوقا ، ولم يقعــدهم عن القيام بواجب حق الله كثرة عدو ، ولا استحفال[١] جمع ، ولا تعــاظم جبروته [٢]. فهذه صفة القائمين لله بحقه ، من العالمين بباطن حكمته ، وعظيم جبروته.

وأما أهل العلم الظاهر فإنهم ينظرون بظاهر أبصارهم إلى ظاهر أهل الــدنيا ، وليس معهم معرفة الباطن من عظيم جلال الله وواجب حقه ، ولذلك عظــم عندهم شأن أهل الدنيا ، وما رأوا من سلطانهم وظاهر ســلاحهم وكثــرة جمعهم ، فيقع الظاهر من النظر على الظاهر من الدنيا فيدخله رهبة ، لضعف علم باطنه ويقينه ، فينتج له ذنب التقصير في أمر ربه ، والتفريط فيه لخــوف سطوة خلقه ، كما قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ ... ﴾ [الحج:١١] الآية ، فهذه صفة أهل الضعف والغفلة من علم أهل الظاهر ، وقــد قــال الله تعــالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾ [الروم:٧] ، وعن أنهم غفلوا مما أعد لهم من الثواب على صبرهم

---

(١) في (أ) و(ب): استحفا. مهملة ، والاستحفال: الاحتشاد.

(٢) في المخطوطات: حيرته. إلا أنه ظنن في (ج) بما أثبت. وهو الصواب.

عما نزل بهم من المخلوقين في جنب طاعته ، وما توعدهم [١] به من العقاب عن تقصيرهم في أمره ، و لم يعلموا إلا ظاهر ما شاهدوه بحواسهم ، وقد مدح الله عز وجل أهل الباطن بالقيام لله بحقه ، وذم أهل العلم الظاهر بالتقصير في أمره ، والقعود في واجب حقه ، فأما مدح أهل العلم الباطن فقد ذكره بقوله: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ...﴾ [العنكبوت:١-٣] الآية ، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ ...﴾ [آل عمران:١٧٣] الآية ، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ ﴾ [الأحزاب:٢١] ، وقال: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ﴾ [آل عمران:١٤٢] ، وقال: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم ... ﴾ [البقرة:٢١٤] الآية ، وقال لموسى عليه السلام: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا ﴾ [طه:٤٠] ، قال: اختبرناك اختبارا ، وقال ابن عباس في حديث الفتون: « وذلك من الفتون والله خبير » [٢].

وقال أنس بن مالك عن النبي عليه السلام: « لقد أوذيت في الله وما يؤذى في الله أحد ، ولقد أخفت في الله وما يخاف في الله أحد ، وإن كان ليمضي عليَّ

(١) في (أ) و(ب): وما توعدوهم.

(٢) لم أقف عليه.

ما بين ثلاثين يوما وليلة مالي طعام ولا شراب يأكله ذو كبد جائع ، إلا ما يواريه إبط بلال » [١].

وقال الحسن: « خطبنا عتبة بن غزوان بالبصرة ، فقال: لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] سابع سبعة ما لنا طعام إلا ورق الحبلة [٢] ، حتى إن كنت لأرى خضرته من وراء بطني ، وما من اليوم رجل إلا وهو أمير على مصر من الأمصار » [٣].

---

(١) عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٥١٦/ح٦٥٦٠ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٤٥/ح٢٤٧٢ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص٥٤/ح١٥١ ، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص١٢٠/ح١٢٢٣٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج٦/ص١٤٦/ح٣٤٢٣ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٣٩٢/ح١٣١٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٦/ص٣١٣/ح٣١٧٠٤.

(٢) الحَبَلة: بقلة لها ثمرة كأنها فيقر العقرب ، تسمى: شجرة العقرب. والحُبْلة: ثمر السَّلَم والسيال والسَّمُر ، وقيل: ثمر عامة العضاة. لسان العرب.

(٣) ورد عن سعد بلفظ: ((رأيتني سابع سبعة مع النبي صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الحبلة أو الحبلة حتى يضع أحدنا ما تضع الشاة ، ثم أصبحت بنو أسد تعزرني على الإسلام خسرت إذا وضل سعيي)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٥/ص٢٠٦٦/ح٥٠٩٦ ، ومسلم في صحيحه ج٤/ص٢٢٧٩/ح٢٩٦٧ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٣٩٢/ح٤١٥٦ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص١٧٤/ح١٤٩٨ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٩/ح٢١٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص٢٢/ح١١٥٨ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج١/ص٢٣٠/ح٣٠٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١/ص١٠٦/ح٥٢٠ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٨٣/ح٧٣٢ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٤٠/ح٣٤٠٣٩ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٢٧٤/ح٢٤١٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٣/ص١٠٠/ح٢٦١٣.

وقال عبد الرحمن بن عوف: « ابتلينا بعده بفتنة الضراء مع نبينا عليه السلام ، فضمرنا ، وابتلينا بعده بفتنة السراء فلم نصبر »[١]. وقال خباب بن الأرت: « هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] ابتغاء مرضات الله ، فمنا من مضى لسبيله لم تقصه الدنيا و لم تأكل من حسناته شيئا ، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد ، فالتمسنا له كفنا يسعه فلم نجد له ثوبا إلا نمرة كانت له إذا غطينا بها قدميه بدا رأسه ، وإن غطينا بها رأسه بدأ قدماه ، قلنا: يا رسول الله كيف نصنع؟ قال: غطوا رأسه ، واجعلوا على قدميه شيئا من أذخر »[٢] ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين وقف على مصعب بن عمير بين يديه فرأى النبي ما به من شدة الجهد والعري ، وعليه أطمار بالية ، فقال: « عجبت للدنيا وتقلبها بأهلها!! ثم تغرغرت عينا رسول الله صلى الله عليه

---

(١) عن عبد الرحمن بن عوف قال: ((ابتلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالضراء فصبرنا ، ثم ابتلينا بالسراء بعده فلم نصبر)). أخرجه الترمذي في سننه ج٤/ص٦٤٢/ح٢٤٦٤.

(٢) عن خباب بن الأرت قال: ((لما كان يوم أحد قتل مصعب بن عمير رحمه الله و لم يترك إلا نمرة ، وكان إذا غطى بها وجهه ورأسه بدت رجلاه ، وإذا غطى بها رجلاه بدا رأسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غطوا بها رأسه وضعوا على رجليه شيئا من الأذخر)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص٤٢٨/ح١٢١٥ ، ومسلم في صحيحه ج٢/ص٦٤٩/ح٩٤٠ ، والنسائي في سننه ج٤/ص٣٩/ح١٩٠٣ ، وابن حبان في صحيحه ج١٥/ص٤٨٦/ح٧٠١٨ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٦٩٢/ح٣٨٥٣ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص١٩٩/ح٣١٥٥ ، وابن حنبل في مسنده ج٥/ص١٠٩/ح٢١٠٩٦ ، والحميدي في مسنده ج١/ص٨٤/ح١٥٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٣/ص١٤٥/ح٢٩٤١ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٦٢٢/ح٢٠٣٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٤٠١/ح٦٤٧٤ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص١٣٨/ح٥٢٢ ، وابن المبارك في الجهاد ج١/ص٨٣/ح٩٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٢/ص٤٦٣/ح١١٠٦٨ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٣/ص٤٢٧/ح٦١٩٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٤/ص٦/ح٣٤٦٦.

[وآله وسلم] وقال: لقد رأيت هذا أجمل فتى في قريش وأعطره بين أثوابـــه ، وأخرجه من ذلك كله حب الله وحب رسوله » [١] ، وقال خباب بن الأرت: « أتيت رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] وهو متوســـد رداءه في ظـــل الكعبة ، فقلت: يا رسول الله ترى ما نحن فيه من الجهد فادع الله لنا بالنصر ، فاستوى مغضبا ثم قال: كان الرجل ممن كان قبلكم ليحفر له الحفير فيقـــاع فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فينشر حتى يسقط لشقيه ، دما يحجزه ذلك في دينــه وأن يقول الحق ، وإن كان الرجل ممن كان قبلكم ليؤتى بأمشـــاط الحديـــد فيمشط ما دون عظمه من لحم وجلد وعصب فما يحجزه ذلك عن دينــه ، وأن يقول الحق ، ولكنكم تعجلون ، والذي نفسي بيده ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب بين بصرى إلى حضرموت لا يخاف إلا الله » [٢].

وقال عمرو بن العاص: « ما رأيت قريشا همت بقتل النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] إلا يوما واحدا ، قال بعضهم لبعض في الحجر: إذا رأيتموه احملوا عليه حملة رجل واحد حتى تقتلوه فلا يُعرف من قتله ، فبيناهم كذلك إذ جاء النبي فطاف بالبيت أسبوعا ، ثم أتى المقام فقام يصلي خلفه ، فحملوا عليه حملـــة رجل واحد عقبة بن أبي معيط ، ثوبه يهزه حتى خر ساقطا لركبتيــه » [٣] ،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجـــه البخـــاري في صـــحيحه ٣/ص١٣٢٢/ح٣٤١٦ ، والنســـائي في ســـننه ج٨/ص٢٠٤/ح٥٣٢٠ ، وابن حبان في صحيحه ج٧/ص١٥٧/ح٢٨٩٧ ، وابـــن حنبـــل في مسنده ج٥/ص١١١/ح٢١١٠٧ ، والحميدي في مســـنده ج١/ص٨٦/ح١٥٧ ، والطـــبراني في معجمه الكبير ج٤/ص٦٥/ح٣٦٤٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ص٤٥٠/ح٥٨٩٣.

(٣) عن عمرو بن العاص قال: ((ما رأيت قريشا أرادوا قتل النبي صلى الله عليـــه وســـلم إلا يومـــا ائتمروا به وهم جلوس في ظل الكعبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام ، فقام إليه عقبة بن أبي معيط فجعل رداءه في عنقه ثم جذبه حتى وجب لركبتيه ساقطا ، وتصـــايح النـــاس فظنوا أنه مقتول ، فأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه

فهذا ما امتحن الله به أهل القيام له بأمره ، حتى أورثهم ذلك الصدق في جميع المواطن ، لما آثروا من طاعة الله ، وتجرعوا من الصبر في ذات الله. فإذا قام العبد بدرجة الصدق في المواطن ، كان على معنيين:

إما أن يرجع بأفضل الجهاد والسلامة.

وإما أن يحكم الله له بأفضل الجهاد والشهادة ، كما روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « إن أفضل الجهاد عند الله رجل تكلم بكلمة حق عند سلطان فقتله عليها »[1] ، هذه صفة أهل القيل في الله بالصدق في مواطن الامتحان ، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، فإذا كانوا كذلك فقد قضوا لله ما يجب عليهم عند ذلك.

وروى أبو سعيد الخدري قال خرج مروان بن الحكم في إمارته في يوم عيد إلى المصلى ، فبدأ بالخطبة قبل الصلاة ، فقال له رجل: أما أنت فقد خالفت حكم رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم ، يقول: « المعروف باليد واللسان ، فمن لم يستطع [باليد] فباللسان ، فإن لم يستطع باللسان فبالقلب وذلك أضعف الإيمان »[2]. وقال المقداد بن الأسود: « ورجل يثني على عامل لعثمان بن عفان عنده ، فجعل المقداد يحثوا في وجهه التراب ، فقال الزبير بن العوام:

ويقول أتقتلون: رجلا أن يقول ربي الله ، ثم انصرفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى ، فلما قضى صلاته مر بهم وهم جلوس في ظل الكعبة فقال: يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح ، وأشار بيده إلى حلقه ، فقال له أبو جهل: ما كنت جهولا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت منهم)).
أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال ج٠/ص٠/ح١١٧٧٦.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

أما المقداد فقد قضى ما عليه » [(١)] ، فقد فسرنا باب الصدق ، ومن يصـــدق في المواطن فقد قضى ما عليه ، كما قال علي رضي الله عنـــه ، ونســـأل الله التوفيق برحمته ، إنه حميد مجيد.

باب شنآن الفاسقين

وهو الشعبة الرابعة من الجهاد.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « من شنىء الفاسقين غضب لله ، ومن غضب لله غضب الله له » ، وشنآن الفاسقين فرض على كل مسلم ، وذلك من النصح لله ولرسوله وللمسلمين ، وذلك أن الفاسق المعلن لفسقه ، المتمرد على ربه ، قد كشف قناع الحياء ، وهتك ستر نفسه بالتعـــدي. قـــال أبـــو مسعود الأنصاري: عن النبي صلى الله عليه وآله: « إن مما أدرك النـــاس مـــن كلام النبوة الأولين إذا لم تستح فاعمل ما شئت » [(٢)]. وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « إذا نزع الحياء من العبد كـــان بغيضـــا

---

(١) عن أبي معمر قال: قام رجل فأثنى على أمير من الأمراء ، فجعل المقداد يحثو في وجهـــه التـــراب وقال: ((أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثو في وجوه المداحين التراب)).

أخرجـــه البخـــاري في الأدب المفـــرد ١/ص١٢٤/ح٣٣٩ ، ومســـلم في صـــحيحه ج٤/ص٢٢٩٧/ح٣٠٠٢ ، وابن حبان في صحيحه ج١٣/ص٨٣/ح٥٧٦٩ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٠٠/ح٢٣٩٣ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص١٢٣٢/ح٣٧٤٢ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٩٤/ح٥٦٨٤ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٥٨/ح١١٥٨ ، والطبراني في معجمـــه الكبير ج١٢/ص٤٣٥/ح١٣٥٨٩ ، والطـــبراني في مســـند الشـــاميين ج١/ص١٦٦/ح٢٧٥ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٤١٣/ح٧١١ ، وابن عمرو الشيباني في الآحـــاد والمثـــاني ج١/ص٢٢٥/ح٢٩١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٢٤٣/ح٢٠٩٢٦ ، وعبد بن حميـــد في مسنده ج١/ص٢٥٨/ح٨١٢ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٤٢/ح١٤٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٢٩٧/ح٢٦٢٦٠.

(٢) سبق تخريجه.

مبغضا »[١]. وقال ابن عباس في حديث طويل: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] أنه قال: « ألا أنبئكم بشر الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من يبغض الناس ويبغضونه »[٢]. فإذا هتك الإنسان نفسه أظهر فسقه[٣]، وتمدح به وتميق[٤] بذكره، لغلبة الهوى عليه، حتى حس عنده القبيح، وقبح عند الحسن، وتجبر في فسقه، وعتى في طغيانه، وتطاول على أولياء الله، وتجبر عليهم، ومنع مَن جانبه من إنفاذ حكم الله فيه.

ففرض على جميع المسلمين أن ينظروا إلى هذا وأشباهه بوجه يهمزونه[٥] ويبغضونه على أفعاله المردية، ويقصره على تركه، إذ كان لله مبغضا، ولفعله ساخطا، وذلك أن من هتك ستر نفسه بالإعلان لمعصيته، ولم يراقب في ذلك خالقه، ولا رعى حرمته أولياءه، فلم يستحيي منهم، ويظهر ما

---

(١) ورد الحديث بلفظ: ((إذا أبغض الله عبدا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا بغيضا مبغضا، ونزع منه الأمانة، فإذا نزع منه الأمانة نزع منه الرحمة، فإذا نزع منه الرحمة نزع منه ربقة الإسلام، فإذا نزع منه ربقة الإسلام لم تلقه إلا شيطانا مريدا)). أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ج٠/ص٠/ح٥٧٩٨.

(٢) عن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر: ((ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: فإن شراركم الذي ينزل وحده ويجلد عبده ويمنع رفده، قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلكم؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: من يبغض الناس ويبغضونه. قال: أو أنبئكم بشر من ذلكم؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: الذين لا يقيلون عثرة، ولا يقبلون معذرة، ولا يغفرون ذنبا. قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره)). أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ١٠/ص٣١٨/ح١٠٧٧٥، وأبو يعلى في مسنده ج٧/ص١٧/ح٣٩١٠.

(٣) في (أ) و(ب): هتك سره أظهره بفسقه. مصحفة.

(٤) المائق: السيء الخلق.

(٥) في جميع المخطوطات: ما يهمزونه. بَيْدَ أنه ظنن في (ج) بما أثبت، ولعله الصواب.

يكرهون رؤيته من معاصي خالقهم ، فلا حرمة له في الإسلام ، ولا حظ لـــه في الإيمان ، ولا غيبة له ، كما قال النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « ثلاثة لا حرمة لهم : إمام جائر ، وفاسق معلن بفسقه ، وصاحب بدعة يدعو إلى بدعته »[1].

وقال عمر عن النبي عليه السلام أنه قال: « أَتَرعون عن الفاجر ؟ متى يعرفـــه الناس؟ ذكروه بما فيه كي يحذر الناس »[2] ، فهؤلاء لا حرمة لهم في الإسلام ، ولا غيبة لهم ، لأن الغيبة التي قال أبو ذر عن النبي [صلى الله عليـــه وآلـــه وسلم]: « إنما هي للمسلم الأخ المستور بدين الله » ، كما قال النبي عليـــه السلام: « من قال لأخيه ما فيه فقد اغتابه ، ومن قال ما ليس فيه فقد بهته »[3] ، فهذا هو الأخ كما قال النبي صلى الله عليه وآله ، فالفاســـق المعلـــن لا

---

(١) ((ثلاثة لا حرمة لهم: فاسق معلن بفسقه ، وصاحب هوى ، وسلطان جائر)). أخرجه المتقـــي الهندي في كتر العمال ج٠/ص٠/ح٤٣٩٣٣.

(٢) عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، قال: ((خطبهم رسول الله صلى الله عليه وســـلم فقـــال: حتى متى ترعون عن ذكر الفاسق هتكوه حتى يحذره الناس)) .

أخرجه الطـــبراني في معجمـــه الكـــبير ١٩/ص٤١٨/ح١٠١٠ ، والطـــبراني في معجمـــه الصـــغير ج١/ص٣٥٧/ح٥٩٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٢١٠/ح٢٠٧٠٣ ، والطـــبراني في معجمه الأوسط ج ٤/ص٣٣٨/ح٤٣٧٢. وفي كتر العمال ٠/٠(٨٠٧٠) ((أترعون عن ذكـــر الفاجر حتى يعرفه الناس فاذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس)) .

(٣) عن أبي هريرة قال: ((قيل : يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره ، قال: أرأيت إن كان فيه ما أقول ، قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته)).

أخرجـــه مســـلم في صـــحيحه ج٤/ص٢٠٠٢/ح٢٥٨٩ ، وابـــن حبـــان في صـــحيحه ج١٣/ص٧٢/ح٥٧٥٨ ، والترمذي في ســـننه ج٤/ص٣٢٩/ح١٩٣٤ ، وأبـــو داود في ســـننه ج٤/ص٢٦٩/ح٤٨٧٤ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٢٣٠/ح٧١٤٦ ، ومالـــك في الموطـــأ ج٢/ص٩٨٧/ح١٧٨٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص٤٦٧/ح١١٥١٨ ، والقضـــاعي في

يسمى: أخاه ، ولا كرامة له ولا مسرة ، لأن المؤمن أخ المؤمن ، والمؤمن هو الولي لله المعظم لمقامه ، والمجتنب لجميع محارمه ، ما ظهر منها وما بطن ، مؤديا لجميع فرائضه ، بل يسارع إلى الله بالنوافل ، فكيف بترك الفرائض واجتناب المحارم؟ فهذا هو المبشر بالجنة ، لقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٧] ، وقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس:٦٢].

والفاسق المعلن فسقه من المردة أصحاب الزنا وآكل الربا وأموال الناس بالباطل ، وإتيان الذكران من العالمين ، والتطفيف في المكيال والميزان ، وقذف المحصنات ، وما لا يوصف من كثرته ، وهو أعظم جرما من هؤلاء ، وأهتك ستر الأئمة الجورُ وأعوانهم العتاة الجفاة ، فهؤلاء أعداء الله وأعداء رسوله وملائكته وصالحي عباده ، فلا يستحقون في مقامهم في مبارزة الله وتعدي حدوده أسماء المؤمنين من الإيمان والإسلام ، إذ كانا في الوعد والولاية ، فأسماء هؤلاء أسماء أهل الفسق والعدوان ، المستحقين لسخط الله ولعنته ، وأليم عقابه ، والخلود في عذابه ، بفحش جنايتهم ، وعظيم معصيتهم ، وإصرارهم على فجورهم.

وقد بين الله حكمه فيهم في كتابه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ... ﴾ [آل عمران:١٣٥] الآية ، فلم يوجب المغفرة إلا بشريطة [1] التوبة ، ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى

مسند الشهاب ج٢/ص٣٠٤/ح١٤١٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص٢٤٧/ح٢٠٩٥٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج١١/ص٣٧٩/ح٦٤٩٣ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٥/ص٢٣٠/ح٢٥٥٣٨ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٨٨/ح٢٧١٤.

(١) في (أ) و(ب): بالشريطة. مصحفة.

نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ... ﴾ [الانفطار:١٣-١٤] الآية ، ثم قال جل ذكره تأكيدا للبيان في وعيد أهل الصلاة من أهل الذنب والآثام ، والمتعـــدين لحدود [(١)] الله: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ... ﴾ [النساء:١٧] الآية ، فأخبر أن من حكمه أن لا يعفو إلا من بعد توبة ، ثم قال مؤكدا ومحذرا وزاجرا ومنبها ، وواعظا ومخوفا ، وراحما ونـــاظرا: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ... ﴾ [النساء:١٨] الآية ، فأخبر تعالى وعز أنه لا يقبل التوبة عند الموت من الكافرين ، ولا من الفاسقين مـــن أهل الصلاة ، فأزاح الشك في أمرهم ، أنه لا يجوز أن يغفر لهم بعد الموت بلا توبة تكون منهم ، لأنه لو كان ذلك مما يجوز في وصفه وحكمه ، لقبل منهم التوبة عند الموت ، التي بقبولها يكون الغفران ، فلما ردها عنـــد المعاينـــة و لم يقبلها ، قطع عذر عباده الفَهِمين عنه ، وحذّرهم بعقابه تحذيرا ألا يـــؤخروا التوبة إلى وقت لا ينفعهم قبولها فيه ، كما لم ينفع ذلك غيرهم من الكافرين ، ولو لا ما أحب من إعلامه مع قطع عذرهم ، والرحمة لهم ، ما قرن رد توبتهم برد توبة الكافرين ، وإنما أراد بذلك تعالى وعز إزاحة الشك عنهم ، لأنه لو جاز الشك في ذلك وقد قرنه برد توبة الكافر لجاز الشك في وعد الكافرين. وإن كان لم يقبل توبتهم عند الموت ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ ... ﴾ [الزلزلة:٦] إلى آخر الســـورة. وقـــال تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء:١٢٣] ، وأكد للقاتل الخلد في النار ، ثم أكد ذلك وبينه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ

---

(١) في (أ) و (ب): بحدود.

ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ... إلى قوله: وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان:٦٨ - ٧١] ، فأخبر أنه لا يغفر للكافرين ، ولا لغيرهم من الزناة والقتالين ، إلا بالتوبة والعمل الصالح ، فإذا كان لا يجوز ذلك في حكمه ، فأنى لهم بالغفران في القيامة؟ تعالى الله عما يدعيه أهل النقص والجهل والعمى من إخلاف وعيده علوا كبيرا.

ثم أكد ذلك بسنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله فقال عليه السلام: « إن التوبة مبسوطة دون أن يغرغر المرء بنفسه ، ودون المعاينة »[1] ، فإن قال بعض أهل النقص ممن يدعي الشفاعة لأهل الكبائر: فإن الرحمة تتغمدهم بالشفاعة ، لما قد جاء في الأثر: أن « الشفاعة لأهل الكبائر »[2] ، قيل له: إن الأحاديث في الشفاعة مختلف فيها ، وقد قال قوم بالرواية أن الشفاعة تكون قبل دخول النار ، ورغموا أنه لا وعيد في أهل الصلاة ، وكانوا بذلك قد أبطلوا ما أوجبه على العصاة من عباده ، بما ذكرناه في هذه الأبواب.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٣٨٧/ح٦٤٦٧ ، الطيالسي في مسنده ج ١/ص ٢٧٠/ح ٢٠٢٦ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٦٢٥/ح٢٤٣٥ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٣٦/ح٤٧٣٩ ، وابن حنبل في مسنده ج٣/ص٢١٣/ح١٣٢٤٥ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص١٤٠/ح٢٢٨ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٢٣٣/ح١٦٦٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص٢٥٨/ح٧٤٩ ، وفي معجمه الصغير ج١/ص٢٧٣/ح٤٤٨ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص١٦٧/ح٢٣٦ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص١٠٠٩/ح١١٣٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٨/ص١٨/ح١٥٦١٦ ، وأبو يعلى في مسنده ج٦/ص٤١/ح٣٢٨٤ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٩/ص٧٧/ح٩١٧٧.

واستوحش من ذلك آخرون من أهل الحديث ، فقالوا: الشفاعة لا تكون إلا بعد العذاب ، ورووا[١] في ذلك أحاديث ، « أنهم يخرجون من النار بعد مـــا امتحشوا ، مكتوب على وجوههم أنهم الجهنميون »[٢] ، وقـــال آخــــرون

---

(١) في المخطوطتين: ووردوا. مصحفة ، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) عن عمرو بن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إني لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة ولا فخر ، وأعطى لواء الحمد ولا فخر ، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر ، وأني آتي باب الجنة فآخذ بحلقتها فيقولون: من هذا؟ فيقول: أنا محمد ، فيفتحون لي فأدخل ، فإذا الجبار عز وجل مستقبلي فأسجد له ، فيقول: ارفع رأسك يا محمد ، وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي يا رب ، فيقول اذهب إلى أمتك فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من شعير من الإيمان فأدخله الجنة ، فأقبل فمن وجدت في قلبه ذلك فادخله الجنة ، فإذا الجبار عز وجل مستقبلي فاسجد له ، فيقول: ارفع رأسك يا محمد وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي أي رب ، فيقول: اذهب إلى أمتك فمن وجدت في قلبه نصف حبة من شعير من الإيمان فأدخلهم الجنة فادخلهم الجنة ، فاذهب فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك أدخلهم الجنة ، فإذا الجبار عز وجل مستقبلي فأسجد له فيقول: ارفع رأسك يا محمد وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي ، فيقول: اذهب إلى أمتك فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأدخله الجنة ، فاذهب فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك أدخلتهم الجنة ، وفرغ الله من حساب الناس وأدخل من بقى من أمتي النار مع أهل النار ، فيقول: أهل النار ما أغنى عنكم إنكم كنتم تعبدون الله عز وجل لا تشركون به شيئا ، فيقول الجبار عز وجل: فبعزتي لأعتقنهم من النار ، فيرسل إليهم فيخرجون وقد امتحشوا فيدخلون في نهر الحياة فينبتون فيه كما تنبت الحبة في غثاء السيل ، ويكتب بين أعينهم: هؤلاء عتقاء الله عز وجل ، فيذهب بهم فيدخلون الجنة فيقول لهم أهل الجنة: هؤلاء الجهنميون ، فيقول الجبار: بل هؤلاء عتقاء الجبار عز وجل)).

أخرجه مسلم في صحيحه ج١/ص١٨٨/ح١٩٦ ، وابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٣٩٩/ح٦٤٧٨ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٣٠٩/ح٣١٤٨ ، وابن ماجه في ســـننه ج٢/ص١٤٣٨/ح٤٣٠١ ،

بالحديث أنهم معذبون مخلدون في رواية عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « من وجأ نفسه بحديدة ، فهو يجأ نفسه بحديدة ، في النار خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تردى من جبل عمدا فقتل نفسه فهو يتردى في النار خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تحسا سما فقتل نفسه فهو يتحسا في النار خالدا خلدا فيها أبدا »[1].

فلما اختلف الرواة في ذلك لم تقم فيها حجة إلا ما وافق الكتاب والسنة فيها ، وهو إيجاب الوعيد والخلود على ما شرحناه من محكم كتابه ، وقد أبطل الله ذلك بقوله: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨] ، ومن ارتضاهم فهم أهل طاعته ، وكذلك أوجب على الملائكة - لهم في الدنيا ليجعل ذلك دليلا على الآخرة - أن يستغفروا لهم ، فقالوا: ﴿ ٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟

وأبو داود في سننه ج٤/ص٢١٨/ح٤٦٧٣ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٢٨٢/ح٢٥٤٦ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص٨٤/ح٨٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٢/ص١٦٦/ح١٢٧٧٧ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٤٠١/ح٧٦٩٠ ، وابن حنبل في فضائل الصحابة ج١/ص٣٥٢/ح٥٠٧ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٨٧١/ح٩٣١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٩/ص٤/ح١٧٤٩٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٣٠٣/ح١٠٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٢٣١/ح٦٩٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٦/ص٣٠٩/ح٣١٦٨١ ، والدارمي في سننه ج١/ص٤٠/ح٤٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج١/ص٦١/ح١٧٠.

(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من تحسى سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ص١١٤٥/ح٣٤٦٠ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٧/ح٣٨٧٢ ، وابن حنبل في مسنده ج٢/ص٤٧٨/ح١٠١٩٨.

سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر:٧] ، ولم يقولوا: اغفر للذين عصوا وصدوا عن سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، فاولاء من لم يخالف الملائكة والأنبياء صلوات الله عليهم في الشفاعة ، ثم هكذا أوجب على المؤمنين الاستغفار لإخوانهم بقولهم: اغفر لنا وللمؤمنين والمؤمنات عند الدعاء ، وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر:١٠] ، ولم يجز لهم أن يقولوا لإخوانهم الذين سبقوهم بالفسق والعصيان!! وكذلك أوجب عليهم في تشهد الصلاة المفروضة عند قولهم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ولم يقل الطالحين!!

والكتاب والسنة إنما يثبت الشفاعة للمؤمنين التائبين المحسنين ، دون الفاسقين من أهل الكبائر ، فإن قالوا وما يحتاج التائبون إلى الشفاعة؟! وقد قال الله جل ثناؤه[1]: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة:٩١] ، قيل لمن قال منهم: إنهم يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يشفع لهم: ما يصنعون بالشفاعة في تلك الحال وهم كمن لا ذنب له ، وما على المحسنين من سبيل؟! فإن قالوا هم: وإن كانوا لا ذنب لهم فإنما استحقوا دخول الجنة بشفاعة النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] ، ولا فرق بيننا وبينكم في هذا ، إلا أن ترجعوا إلى قول إخوانكم الذي هو خطأ عندكم فتردون وتبطلون حديث الجهمين في الخروج من النار ، وإن رجعوا إلى ذلك احتججنا عليهم بحديث الوعد والخلود الذي قد شرحناه في محكم الكتاب والسنة ، وما أبان الله فيهما من إيجابه الوعيد واللعنة والخلود على العصاة من عباده المصرين غير التائبين ، ولو لا أنّا لم نقصد إلى هذا الكتاب وشرحه لزدنا من حجج الله تبارك وتعالى ، وفيما قلنا بلاغ لمن

---

(١) في (أ) و(ب): قال تعالى جل ذكره.

فَهِم عن الله و لم يعاند حجة خالقه ، وإنما أردنا بما ذكرنا من الأدلة[(١)] أسماء أهل الطهارة ، وإيجاب الخلود في النار على العصاة من عباده المتهكين لمحارمه ، الصادين عن سبيله ، لما أوجب الله على خلقه من منعهم من ذلك بكل ما أمكنهم ووجدوا إليه سبيلا ، إذا أيقنوا بعداوة الله لهم وإيجاب وعيده عليهم ، ليكون أثبت ليقينهم ، وأرسخ لعداوتهم في ذات الله ، فلذلك ذكرنا هذه الجملة واقتصرنا عليها ، وبالله نستعين على أمور الدنيا والدين.

فلما ثبت ذلك بما شرحنا من حجج الله ، كان واجبا على أهل اليقين المخالفة والإعظام لله ولمقامه وحدوده ، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، أن يعادوا[(٢)] من انتهك محارم الله وعطل حدوده ، وبذر أمواله ، واتخذ عباده خولا ، وماله دولا ، ودينه مهملا ، وفيئهم نهبا ، وعهده مريجا ، دون المباينة له ، ومنعه عن ظلمه ، أو ابتزازه للإمامة المحكوم بها لغيره ، بحكم الله وحكم رسوله ، فإن راجع بهذا الإعذار والإنذار ، وتاب وأناب كفوا عنه ، وأقاموا عليه من حكم الله على قدر ما اجترحه في نفسه من قَتله إن كان قتل ، وجلده إن كان زنا ، وإقامة الحد عليه إن كان قذف ، ورد ما احتجز من الظلامات على أهلها ، وما سوى ذلك مما انتهك على ما حد الله [(٣)] عليه فيه ووقّته. فإن لم يراجع ويرعوي بالقول ونأبذ الحرب وبغى على أهل الإسلام ، وتسلط بالجبروت ، وعلا بالقهر ، يجعل حكم الله وكلمته السفلى ، وحكم الشيطان وكلمته العليا ، استعمل فيه حكم الله بقوله عز وجل: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ ... ﴾ [الحجرات:٩] الآية ، فالواجب على من فَهِم عن الله أمره ، وقام لله

---

(١) في (أ) و (ب): إدالة.

(٢) في (أ) و(ب): ألا يعادوا. مصحفة.

(٣) في (أ) و(ب): ممن انتهك على حد الله.

بالقسط في خلقه ، إذا رأى باغيا أن يمنعه من بغيه ، فإن حاربه على ذلك حاربه تقربا إلى الله بجهاده ، حتى يفيء إلى أمر ربه ، كما وجب عليه محاربة أعدائه من الكافرين ، حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.
وكيف لا يجب ذلك مع قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ... ﴾ [المائدة:٣٣] الآية ، ولا محاربة لله أشد بعد الكفر ، ولا أعظم عند الله ممن حَرَبَ أولياءه ، وأهل طاعته ، وأئمته المتولين لأحكامه ، وإقامة حدوده ، والمقسطين بين عباده ، الحاكمين فيهم بقوله ، وحكم كتابه ، وسنة رسوله ، صلى الله عليه [وآله وسلم] ليبدلوا ذلك كله ، ويحكموا فيه بخلاف ما أنزل الله وحكم به ، فحرب هؤلاء أولى وأوجب من محاربة الكافرين ، لأن مخالفة أئمة الهدى يفسد على الأمة أمر دينهم ، ويبطل بذلك جهادهم لأهل الكفر من أعدائهم ، إذا كان الله سبحانه إنما أوجب ذلك مع الهداة من أئمته القائمين فيه بحكمه ، والداعين فيه إلى دينه ، والعاقدين فيه لذمة نبيه صلى لله عليه [وآله وسلم] ، الموفون بعهدهم وذمتهم ، لا مَن نَقَضَ عهد الله في نفسه وأهل دعوته وأحكام ربه.
وكيف يعقد الذمة لمن جعلها [حربا لله ولدينه ، ويسعى في الأرض فسادا] [١] ، بل لا يراقب في المؤمنين إلا ولا ذمة ، وإذا كان أهل دار الحرب إنما أباح الله قتالهم بعد امتناعهم على من لم يف [٢] لهم بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه [وآله وسلم] ، وحرام على أهل الإيمان معاونة من يحاربهم ، لأن كل ما أخذ منهم [٣] وفعل بهم ظلما أو تعديا لحكم الله ، وبما حده[٤] في قتالهم ،

---

(١) في (أ) و(ب): لمن جعلها ان اثرها بل. وفي (ج): من حلقها الله ان اثرها. وما أثبت اجتهاد.

(٢) في (أ) و(ب): من يفي.

(٣) في (ج): يحاربهم أو يقاتلهم وفعل ...

(٤) في (أ) و(ب): حدهم.

وإنما جعل الله [١] ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولأئمة الهدى من آله الطاهرين في كل عصر وزمان ، فجاهد على حكم الله من امتنع عليه من أهل الإسلام وإعطاء الجزية ، فإذا غنم أموالهم حكم فيها بحكم الله ، وجعل خمسها حيث أمره الله ، ولم يكن كمن اغتصب المسلمين إمامتهم وأموالهم وغنائمهم وجميع فيئهم ، وصدقاتهم التي جعلها الله معونة لضعفه خلقه ، يقسم ذلك بين الأعوان من أصحابه ، والمعينين له على ظلمه من أهل الحيرة والجهل والعداوة والسفه ، ممن يدعي - بزعمه - الإسلام ، وينصر دين محمد عليه السلام ، واستعان على ذلك بما اغتصب الضعفة والمسلمين والفقراء والمساكين ، على شرب خموره ، وركوب فجوره ، ولباس حريره ، وتشييد قصوره ، ولم يدع محرما إلا انتهكه ، ولا بابا للإسلام إلا ردمه ، ولا منارا للحق إلا هدمه ، ونهض للإسلام من مأمنه ، وبدل سنته وأحكامه ، ولم يحكم بحلاله ولا حرامه ، فأفسد على عباد الله معائشهم ، وموّه على أكثرهم أمر دينهم.

فهل يشكل هذا البيان الواضح على ذي عقل إذا تدبره؟! ثم تفكّر فيه واعتبره ، ومع هذا كله أفسد عليهم جمعهم وأعيادهم ، لأن الله جل ذكره إنما جعل القُوَّام بها المهتدين من أئمته ، وحظرها على الفجرة من عباده ، يقول نبيه صلى الله عليه وآله: « يؤمكم خياركم » [٢] ، ولقوله عليه السلام: « لا يؤمنكم ذو جرأة في دينه » [٣] ، وبقوله صلى الله عليه [وآله وسلم]: « لا يؤمن فاجر برا » [٤] ، وبإجماع أمته أن العدل مستحق لها من آل محمد

---

(١) سقط من (أ) و(ب): جعل الله.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

واختلافهم في غيره ، فلا يزول عن أحد فضل صلاة أو جبوهـــا بإجمـــاع لا باختلاف ، فقد أجمعوا أن الذي يجب من الصلاة يوم الجمعة أربع ركعات ، إلا أن يكون إمام عدل من آل محمد عليهم السلام ، وجماعة مـــن المـــؤمنين ووقت [١] ، فإذا وجد ذلك زال فرض الأربع إلى الركعتين ، واختلفـــوا في الصلاة مع الإمام الجائر ، فأكثر الأمة لا يجيزها ، والذين أجازوها إنما ذهبوا في ذلك إلى رواية شاذة قد تأولها غيرهم على غير ما ذهبـــوا إليـــه ، وهـــي رواتبهم « أن الصلاة جائزة خلف كل بر وفاجر » [٢] ، فقال المخالفون لهم في ذلك: إن قول النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] لا ينقص بعضه بعضـــا ، وقد روي أن سبب هذا القول منه صلى الله عليه [وآله وسلم] إنما كان جوابا لهم عندما سألوه عن قوم كانوا يتقدموهم في الصف الأول مـــن المنـــافقين ، فقالوا: « يا رسول الله هل يضرنا ذلك شيئا؟ قال: لا ، الصلاة خلف كل بر وفاجر » [٣] ، فإذا كان قُدَّامك في [٤] الصف الأول لا يضرك بعد أن يكون الإمام برا مرضيا [٥] ، وإنما كانوا سألوه عن ذلك لأنه كان أمرهم أن « يليه ذو النهى منهم » [٦] ، وكذلك السنة في كل عصر أن أخيار أهل المحآلّ إنمـــا يجب أن يكونوا الأئمة والمؤذنين.

---

(١) في المخطوطات: ووقتا. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (أ) و(ب): كان إمامكم في.

(٥) في (أ) و(ب): برا أيضا. مصحفة.

(٦)عن أبي مسعود البدري قال: ((كان النبي صلى الله عليه وسلم يسوي مناكبنا ، يعني في الصلاة ، ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، وليليني منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)).

وهذا إنما يُورث على من كان عليه العمل في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة الهدى ، مع أن الإجماع قد ثبت من وجه الحجة لمن أنصف من نفسه أنه لا يجوز الصلاة خلف أئمة الجوز في حكم الله وحكم رسوله ، وذلك أنهم قد أجمعوا جميعا أن جماعة لو خرجوا على أبي بكر من أهل القبلة باغين عليه ، ثم غلبوا على مدينة أنه لا يحل لأهل تلك المدينة الصلاة معهم والإمام قائم ، وكذلك لو تغلبوا على عدة مدن لم يحل لهم ذلك ، وأنهم لم يضيعوا فرضا بتركهم الصلاة معهم ، ثم زعمت طائفة منهم لنقص علمها وقلة فهمها عن ربها: أنهم إذا جاءوا فقتلوا المهاجرين والأنصار وأبا بكر ، وأطفأوا نور الله ، وعطلوا أحكامه ، وهدموا دينه ، وأخافوا عباده ، وأفسدوا بلاده ، ولم يتركوا حرمة لله في أرضه نالتها أيديهم إلا انتهكوها ، أنه وجب لهم مع تكامل معصيتهم ما لم يكن يجب لهم مع نقصان معصيتهم ، لو فهمت هذه الطائفة عن نفسها مناقضتها ، لعلمت أن العلة التي منعتها من أجلها أن تُجوِّز الصلاة معهم وجود المعصية ، فهي في هذا الحال أعظم ، وإن كان

أخرجه مسلم في صحيحه ج١/ص٣٢٣/ح٤٣٢ ، والنسائي في سننه ج٢/ص٨٨/ح٨٠٧ ، وابن حبان في صحيحه ج٥/ص٥٣٥/ح٢١٦١ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٣/ص٢١/ح١٥٤٢ ، والترمذي في سننه ج١/ص٤٤٣/ح٢٢٨ ، وابن ماجه في سننه ج١/ص٣١٣/ح٩٧٦ ، وأبو داود في سننه ج١/ص١٨١/ح٦٧٥ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٤٥٧/ح٤٣٧٣ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص٧٦٥/ح٢١١٢ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٨٥/ح٦١٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١٠/ص٨٨/ح١٠٠٤١ ، والنسائي في سننه الكبرى ج١/ص٢٨٧/ح٨٨١ ، والطبراني في معجمه الصغير ج٢/ص١٨٠/ح٩٨٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٩٧/ح٤٩٤١ ، وأبو يعلى في مسنده ج٩/ص٤٨/ح٥١١١ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٨٧/ح٣١٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج١/ص٣٠٨/ح٣٥٢٧ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ص٤٥/ح٢٤٣٠ ، والدارمي في سننه ج١/ص٣٢٥/ح١٢٦٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٢٢٥/ح٧٣٩.

منعها القيام الإمام فلا إمام اليوم وإذ ذاك قائم في حكم الله ، لو لا منع البغاة وأعوانهما العتاة من إقامته ، ولكن هذه الفرقة من النابتة وأصحاب الحـديث ليس معها علم بما تقول ، ولا يوقف منها على عقد محصول.

فإن قال منهم قائل: أو ليس قد قال الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة:٩] ، فقد أوجب الله السعي؟! فقيل لهم: إن الله قد أوجب السعي إلى ذكره ، و لم يوجب السـعي إلى الفرية عليه وعلى أوليائه ، لأن البغاة العتاة المبتزين لأمره إذا قالوا: اللـهم أصلح عبدك وخليفتك كذبوا على الله وافتروا عليه ، لأن خلفـاءه الهـداة المهتدون من عباده ، كما قال لخليله صلى الله عليـه: ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقـرة:١٢٤] ، وكذلك إذا دعا الجائرون[1] لهم على أعدائهم ، فإنما يدعون لينصروا [2] على أولياء الله من أنبيائه ورسله وملائكته ، والمهتدين من أئمته الصالحين من خلقه من الجن والإنس ، بأن هؤلاء كلهم أعداؤه المفسدون في أرضه ، والمنتهكون لمحارمه ، إذ كان الله لهم عدوا ، فإذا كان حكم الله المنع مـن معصـية الله ، وأقل ما يجب لله على أهل المعرفة به ، إن لم يقم له بالنهي عنه مـع قلتـهم وضعفهم ، أن لا يحضر موضع الإعلان بها طائعا غير مكره.

وتفسير الآية دالة لمن فهم عن الله أنه لا يحل لهم السعي إلى البغاة الظلمة من عباده ، لأنها إنما ندبت إلى ذكره لا إلى الصد عن ذكر الله ، إنما هو الصلاة ، فإذا كان قد حضر الصلاة خلف من يدعو إليها بما قد أجمعوا على عدد مـن

---

(١) سقط من (أ) و(ب): وكذلك إذا دعا الجائرون.

(٢) في (أ) و(ب): ينصروا.

سمع النداء من هذا الظالم قبل تغلُّبِه على الدار ، فبان لهم فيه بهذا [1] أن الصلاة لم تجب بالنداء للنداء ، وإنما تجب بما أجمعوا عليه: من مصر وإمــام عــادل وجماعة من المسلمين ووقت ، أولا فلا جمعة بلا جماعة ، وإنما تجب الصــلاة أربع ركعات كما أوجبوا على من سمع نداء هذا الظالم قبل تغلُّبِه على الــدار وأهلها ، فهذا مع ما يدخل الباغي من الضرر على الدين وأهله ، وكثرة مــا يظهر فيه منهم ممن يبغي عليهم ، فيحتير ضعيفهم ويشــككهم في صــحته ، فبلاؤهم على أهله ومضرتهم عليه تكاد أن تكون أكثر من بلاء كل عدو له ، لأنه نهض بالإسلام من مأمنه ، وهدَّه [2] من قواعده ، أشغل أهله بغير دينه ، وسب[3] جميع الناصرين له والقائمين بحفظه وحياطته ، فوجب علــى أهــل التقوى والمحامين عن دين ربهم ، والقائمين له بقسطه لعنه ، والــبراءة منــهم والعدواة لهم ، والإرصاد والإنتهاز لغرتهم ، والتربص بهم الدوائر ، عسى الله أن يمنحهم أكتافهم ، ويفرق على أيديهم جموعهم ، ويكبت عدوهم ، وينصر وليهم بسببهم وعلى أيديهم ، فهم والله لذلك مجزيــون ، وإلى الله بتبشــيره راغبون ، وعليهم مُجلِبُون ، ولأعدائه مباينون وإلى دينه داعون ، وعلى أعدائه متعاونون ، ولا يعتريهم في ذلك سئامة ، ولا تلحقهم فيه فتــرة ، لعلمهــم بعظيم موقع ذلك من المنفعة للإسلام وأهله ، لا تأخذهم في الله لومه لائــم ، مع ما قد أكد لهم ذلك من الروايات عن نبيهم صلى الله عليه [وآله وســلم] وفعل أئمتهم ، كمن فعل ذلك بعد النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] في قتال أهل الصلاة ، الذين منعوا الزكاة ، قالوا: نحن نفرقها ، فقال لهم: لو منعوني عقالا مما كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] لقاتلتهم ، فقال

---

(١) في (أ) و(ب): فبان وبان لهم فيهم.

(٢) في جميع المخطوطات: وهذه. والصواب ما أثبت.

(٣) في (أ) و(ب): سلب.

له أصحاب النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: أليس قد قال النبي عليه السلام: « من قال لا إله إلا الله فقد حقن بها دمه وماله »[(١)] ، وقال بعضهم: إن فيها « إلا بحقها » ، وهو من حقها ، فلم يرض منهم إلا بالإعطاء أو المحاربة ، ولو كانت المحاربة لا تكون إلا لأهل الصلاة لمنعه أصحاب النبي عليه الســلام!!

---

(١) عن أوس بن أبي أوس الثقفي قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيف قال: وكنت في أسفل القبة ليس فيها أحد إلا النبي صلى الله عليه وسلم نائم إذ أتاه رجل فساره فقال: اذهب فاقتله ، ثم قال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله ، قال شعبة: وأشك أن محمدا رسول الله. قال: بلى ، قال: ((إني أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها حرمت علي دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ص١٨/ح٢٥ ، ومسلم في صحيحه ج١/ص٥٢/ح٢٠ ، وابن أبي الدنيا في الورع ج١/ص٤٨/ح١٨ ، والنسائي في سننه ج٥/ص١٥/ح٢٤٤٣ ، وابن حبــان في صحيحه ج١/ص٤٠١/ح١٧٤ ، وابن خزيمة في صحيحه ج٤/ص٧/ح٢٢٤٧ ، والترمــذي في سننه ج٥/ص٣/ح٢٦٠٦ ، وابــن ماجــه في ســننه ج١/ص٢٨/ح٧١ ، وأبي داود في ســننه ج٢/ص٥٦/ح١٣٩٣ ، وابن حنبل في مســنده ج١/ص١١/ح٦٧ ، والحــاكم في مســتدركه ج١/ص٥٤٤/ح١٤٢٧ ، والطحاوي في شرح معاني آثار ج٣/ص٢١٥/ح٠ ، والطيالســي في مسنده ج١/ص١٥١/ح١١٠٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص٢١٨/ح٥٩٢ ، والنســائي في سننه الكبرى ج٢/ص٨/ح٢٢٢٣ ، والدارقطني في ســننه ج١/ص٢٣٢/ح٧ ، والطــبراني في مسند الشاميين ج١/ص٩٠/ح١٢٩ ، وابن راهويه في مســنده ج١/ص٢٩٦/ح٢٧٢ ، وابــن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٣/ص١٨٨/ح١٥٢٣ ، وابن حنبــل في فضــائل الصــحابة ج١/ص٣٨٤/ح٥٧٧ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٢/ص٤/ح٢٠٣١ ، وأبو يعلى في مســنده ج١/ص٧١/ح٦٨ ، وابن الجارود في المنتقى ج١/ص٢٥٨/ح١٠٣٢ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج١/ص٤٠/ح٥٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٢/ص٢٤٢/ح٨٥٨٣ ، وابن أبي شــيبة في مصنفه ج١٠/ص١٧٢/ح١٨٧١٨ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٢٨٨/ح٢٤٤٦ ، والطــبراني في معجمه الأوسط ج١/ص٢٥٥/ح٨٣٤.

فلما أجمعوا على التسليم وهم لا يجمعون [١] على خطأ ، ثم بدا لهم قبلُ قتال الكفار ، لعلمه بعظيم حذر ذلك على الإسلام إن فتحه عليهم ، وإن كان مَن منع الزكاة يجب قتاله ، فكيف بمن لم يَدَعْ منع الزكاة ولا غيرها مما [٢] هو أعظم منها إلا أتاه.

وعلى مثل ذلك وكان حرب علي بن أبي طالب عليه السلام للناكثين والقاسطين والمارقين ، وهم من أهل الصلاة ، وليس أحد من أولئك إلا وقد كان أقل معصية لله من معاوية حين ابتز الإمامة من المسلمين ، لأنه لم يكن في وقت من الأوقات أعظم إثما منه حين استبد بالأمر دون الفضلاء بالقهر والسيف ، ثم تخطئ إلى قتل حجر بن عدي وأصحابه على ليلة من دمشق ، فكاتبهم عنده الأمر بالمعروف والنهي عن النكر ، وألحق زيادا بأبي سفيان ، خلافا على الله وعلى رسوله ، في تركه للسنة المشهورة عن رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] « أن الولد للفراش وللعاهر الحجر » [٣]. فسن قتل الصالحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، وسن الفتك بالمؤمنين ،

(١) في (أ) و(ب): ما منعه أصحاب النبي عليه السلام ، فلم يجمعوا على التسليم لا يجمعون.

(٢) في (أ) و(ب): ممن.

(٣) أخرجه النسائي في سننه ٦/ص٢٤٧/ح٣٦٤١ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٤٣٤/ح٢١٢٠ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٩٠٥/ح٢٧١٢ ، وأبو داود في سننه ج٣/ص١١٤/ح٢٨٧٠ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص١٨٦/ح١٧٧٠٠ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٥٤/ح١١٢٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٤/ص٥٤/ح٣٦٠٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص١٠٧/ح٦٤٦٨ ، والدارقطني في سننه ج٣/ص٤١/ح١٦٦ ، والطبراني في مسند الشاميين ج١/ص٣١٠/ح٥٤١ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج٢/ص٩٠/ح٧٨٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ص٢١٢/ح١١٩٨٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص٧٩/ح١٥٠٨ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢٣٩/ح٩٤٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٢/ص٩/ح٥٨٥٩ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٤/ص١٤٨/ح٧٢٧٧ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣١٧/ح٢٥٢٩.

واتخاذ عباد الله خولا ، وماله دولا ، وأعداء الإسلام كسرى وقيصر أولياء ، فهو ثابت على تأسيسه إلى يومنا هذا ، بل يزداد كل يوم شرا وفسادا ، والحق اندراسا واضمحلالا ، وعلى أهله شدة ومحنة ووبالا وصغارا ، إلى أن يبعـــث الله أنصاره والذابين عنه ، والدافعين عن حريمه ، فيمدهم بمعونته عندما يعلم من حسن أنياهم في إعزاز دينه ، ونصر حريمه.

فمن لم يوجب مع ما شرحنا قتال الفئة الباغية كان رادا على الله وعلى رسوله بما أوجب في كتابه ، وأكده الرسول عليه السلام بقوله: « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن أبوا فخذوا سيوفكم على عواتقكم وأبيدوا خضراءهم » [١] ، مع روايات في ذلك كثيرة قد ذكرناها قبل في كتابنا هذا.

ثم إن قوله إلى الطعن على الصحابة الوافين ، كأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، الذي لم يكن يفتر ولا يغفل من قتل أهل البغي دائبا مجتهـــدا ، حتى قال: « ما وجدت إلا قتالهم أو الكفر بما أنزل الله » [٢] ، ولم يمتنع عليه إلا كل منقوص لا يهتدى به ، وكذلك فعل القراء وأصحاب الحديث والعلم في خروجهم عليه وغيره.

فإن قال القائل بذلك قولا لم يسلم عليه أحد من الأمة ، إذ الأمة في ذلـــك أربعة أصناف ، كلهم قد رأى السيف: المرجئة أصحاب أبي حنيفة.

والشيعة تراه مع أئمتها.

والمعتزلة.

والخوارج.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) نهج البلاغة خطبة/ ٤٣. البساط للناصر /٩٩ بتحقيقنا. ووقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقـــري /٤٧٤.

وقد خرج علماء أصحاب الحديث ، فإنما [يشك في هذا][1] من لا يرى ذلك ممن لا علم له ولا خشية في قلبه ، مثل ما في السنة القائمة والأخبار المأثورة عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] أنه قال: « المقتول دون ماله شهيد ودون جاره شهيد ، ودون مظلمته شهيد »[2].

الذين رأوا السيف من الأمة أكثر ممن ادع النابتة الحشوية ، مع أنه يروى عن عبد الله [بن عمر] أنه قال: « ما آساء على شيء إلا صيام الهواجر والقيام في

(١) العبارة في المخطوطات هكذا: فإنما نبعى في بدى. وهي مهملة ، وغير واضحة المعنى. وما أثبت للتقريب فقط ، والله أعلم بالصواب.

(٢) عن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج٢/ص٨٦٦/ح٢٣٢٠ ، ومسلم في صحيحه ج١/ص١٢٥/ح١٤١ ، والنسائي في سننه ج٧/ص١١٤/ح٤٠٨٤ ، وابن حبان في صحيحه ج٧/ص٤٦٨/ح٣١٩٤ ، والترمذي في سننه ج٤/ص٢٩/ح١٤١٨ ، وابن ماجه في سننه ج٢/ص٨٦١/ح٢٥٨٠ ، وأبو داود في سننه ج٤/ص٢٤٦/ح٤٧٧٢ ، وابن حنبل في مسنده ج١/ص٧٩/ح٥٩٠ ، والحاكم في مستدركه ج٣/ص٧٤٢/ح٦٦٩٧ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص٣٢/ح٢٣٣ ، والحميدي في مسنده ج١/ص٤٥/ح٨٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج١/ص١٥٣/ح٣٥٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٢/ص٣٠٩/ح٣٥٤٧ ، والطبراني في معجمه الصغير ج١/ص١٤٧/ح٢٢٣ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج١/ص٢٢٣/ح٣٤٠ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج١/ص٤٠٩/ح٥٦٧ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٦٦١/ح٦٣٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٣/ص٢٦٥/ح٥٨٥٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج٢/ص٩٠/ح٧٤٤ ، وعبد بن حميد في مسنده ج١/ص٦٦/ح١٠٥ ، وابن الجعد في مسنده ج١/ص٢٥٦/ح١٦٩٨ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص٢٥٤/ح١٠١٩ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ص١١٥/ح١٨٥٦٨ ، والدارمي في سننه ج٢/ص٣٤٧/ح٢٦٠٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص٢٤١/ح٧٨٩.

آخر الليل وألا أكون قاتلت الفئة الباغية مع علي بن أبي طالب عليه السلام » [(١)] ، وهذا بابن عمر أشبه ، فبهذا وأشباهة من الحجة ما أوجب أهل العلم بالله والإجلال لمقامه والغضب له قتال أهل البغي لما في إزالتهم من ظهور الإسلام وعلو أهله ، ولما في نيائهم من فساد جميع الإسلام وقتل الدائنين به ، والمحامين عليه ، والناصرين له ، والذين بذلوا مهجهم وأموالهم ، والمهاجرين عن أوطانهم في إحيائه وتأميل إعزازه ، أو تأتيهم آجالهم وهم على ذلك من حالهم ، ويكونون قد أبلغوا المعذرة فيما بينهم وبين خالقهم ، ولما خافوا من عقوبة التضييع لذلك ، وأخذوا بالإستطهار على أنفسهم ، لما سمعوا الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء:١٠٧] ، ولا يجادل أحد عن أعداء الله ممن اقتطع بجداله عن محاربه من ابتز أمر المسلمين. وعمر بن الخطاب يقول: « من ابتز إمرة المسلمين عن غير مشورة فاقتلوه » [(٢)].

---

(١) عن سعيد بن جبير قال: ((لما أصيب ابن عمر قال: ما تركت خلفي شيئا من الدنيا آسى عليه غير ظمأ الهواجر وغير مشي إلى الصلاة)). أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ج٧/ص٢٣٠/ح٣٥٥٧٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج٨/ص١٨/ح٧٨٢٣.

(٢) عن عبد الرحمن بن عوف قال: حج عمر فأراد أن يخطب الناس خطبته فقال له عبد الرحمن بن عوف: أنه قد اجتمع عندك رعاع الناس وسفلتهم فأخر ذلك حتى تأتي المدينة ، قال: فلما قدم المدينة دنوت قريبا من المنبر فسمعته يقول: إني قد عرفت أن ناسا يقولون: إن خلافة أبي بكر كانت فلتة وإن الله وقى شرها ، إنه لا خلافة إلا عن مشورة ، ولا يؤمر واحد منهما تغرة أن يقتلا ، وإن ناسا يقولون: ما بال الرجم ، وإنما في كتاب الله الجلد ، وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقولوا: أثبت في كتاب الله ما ليس فيه ، لأثبتها كما أنزلت)). أخرجه ابن حنبل في مسنده ١/ص٥٠/ح٣٥٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٤/ص٢٧٢/ح٧١٥١ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج٧/ص٤٣١/ح٣٧٠٤٢.

وقال الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ... ﴾ [هود:١١٣] الآية ، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ... ﴾ [الممتحنة:١] الآية ، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ... ﴾ [آل عمران:١١٨] الآية ، فنهى تعالى وعز أن نحبهم ولا يحبوننا بقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:٥١] ، قال النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « أَتَرْعَوْنَّ عن ذكر الفاسق؟ فمتى يعرفه الناس؟! أذكروه بما فيه » (١).

أخبرنا يزيد بن محمد بن مقاتل أن النسيابورى قال: أخبرنا الجارود بن يزيد بن طريف بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: « أَتَرْعَوْنَّ عن ذكر الفاسق متى يعرفه الناس؟! » (٢) ، قال الحسن: « لم يبق من فضل عبادة إلا الوقيعة في أهل الريب » (٣) ، فشنئان الفاسقين أن يذكروا بما فيهم نصحا للمسلمين ، أن يعرفوا (٤) بمعايبهم ، ويعلموهم حكم الله فيهم ، ليعينوهم (٥) بذلك على حربهم ، والعون لهم على إزالتهم ، ويمنعوهم بإفهامهم ما يجب من ذلك عليهم ، من ترك معونتهم والدخول معهم في أمورهم ، وأن لا يخا لطوهم ولا يلابسوهم ، ولا يزوجهم (٦)

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (أ) و(ب): يعرفهم.

(٥) في (ج): ليتبعوهم.

(٦) في (أ) و(ب): ولا يزوجهم. وفي (ج): ولا يتوخوهم. ولعل الصواب ما أثبت.

فيتمنون لذلك دفع السوء عنهم ، وليكن حذرهم منهم على قدر معرفتهم ، وعلى حسب ذلك يكون عندهم كل من عصى ربهم وانتـــهك حُرَمـــه ، أن تكون مباينته له ونفوره منه وبغضه له على قدر جنايته وجراءته وتقحمـــه ، وذلك أن الرجل ربما يخطب إليه حرمته فيخطبها فاسق معاين بفســـقه [(١)] ، وهو لا يعرفه ، فيسأل عنه أهل الخبرة به ، فإن قالوا له بما فيه كانوا قد أدوا النصيحة ، لأنه فرض عليهم أن يتناصحوا ، وإن لم يقولوا له بما فيه كانوا قد خانوا ، كما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه [وآله وســـلم]: « مـــن استشاره أخوه وأشار بغير رشده فقد خانه ، ومن خانـــه فقـــد خـــان الله ورسوله » [(٢)].

وكذلك في المعاملة وجميع ما يكون فيه المشاورة ، وإن لم يستشره فواجب أن ينبهه فيه ويشير فيه عليه بالصواب ، ويهديه فيه إلى الرشد والسداد ، فـــرض عليه أن يبتديه فيه قَبِلَ أم ترك إذا أمكنه ، وإلا فقد خان الله ورســـوله ، لأن النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم قال: « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، ثلاثا ، قيل: يا رسول الله لمن؟ قال: لله ولرسوله ولدينه ولكتابـــه ولجماعـــة المسلمين » [(٣)] ، وقال: « لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى للناس ما يرضـــى

---

(١) في (أ) و(ب): معين فسقه. مصحفة.

(٢) عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((من تقول علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار ، ومن استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشد فقد خانه ، ومن أفتى فتيا بغير ثبت فإثمـــه على من أفتاه)).

أخرجـــه البخـــاري في الأدب المفـــرد ١/ص١٠٠/ح٢٥٩ ، وابـــن حنبـــل في مســـنده ج٢/ص٣٢١/ح٨٢٤٩ ، والحاكم في مستدركه ج١/ص١٨٤/ح٣٤٩ ، وابن راهويه في مسنده ج١/ص٣٤١/ح٣٣٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج١٠/ص١١٢/ح٢٠١١١.

(٣) سبق تخريجه.

لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه »[١] ، فكما أنه يكره أن يكون على خطأ في قول أو فعل في أمر الدين والدنيا ، فلا ينبهه عليه نصحاؤه ، فكذلك يجب عليه لجميع الخلق النصيحة ، على ما يمكنه ويجد إليه سـبيلا ، فكيـف إذا استشاره؟! هذا به أولى ، وعليه أوجب ، وله ألزم ، فمتى رضي الفاسق عندما يُسأل عنه ، لم يكن[٢] قد أدى النصيحة إلى أخيه ، و لم يكن للفاجر حرمـة ولا غيبة. هذا معنى قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « أترعون عـن ذكر الفاجر حتى يعرفه الناس ، أذكروه بما فيه يعرفه النـاس »[٣] ، وإنمـا الغيبة في الحقيقة المنهي عنها بقوله صلى الله عليه [وآله وسلم]: « من ذكر من أخيه ما فيه فقد اغتابه ، ومن قال فيه ما ليس فيه فقد بهته » ، فهو كما روى عنه صلى الله عليه وآله أنه رأى بعض نسائه عائشة وقد مرت مارية القطبية بها أم إبراهيم ابنه عليهما السلام ، وأشارت إليها بقدمها أنها قصيرة ، علـى وجه الهزوء منها ، والعيب لها بذلك ، فجعل النبي صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم ذلك منها غيبه لها إذ عابتها فيها لا عيب فيه عنده ، وما لـيس مـن كسبها.

وكذلك إذا غاب الرجل أخاه بقبيح مخارج كلامه لنقص خلقه ، أوَكل مـا أشبه هذا مما لا فعل له فيه ، من قبحه في المنظر وغيره ، فهو غيبة لا يحل لـه ذلك ، وعليه الاستغفار والندم لما كان منه إليه. وكذلك إن عابه بأمر قد كان فعله وتاب منه ، أو عابه بأمور تشغله عن المناجاة ، على جهة الوقيعة ، فهو

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (أ) و(ب): فمن رمى الفاسق عندما يسأل عنه كان قد أدى. وفي (ج): فمتى رضـي عـن الفاسق عندما يسأل عنه كان قد أدى النصح إلى أخيه سيما في الفاسق عندما يُسأل بأن قـد أدى النصيحة و لم يكن. ولفقت النص من الجميع.

(٣) سبق تخريجه.

غيبة لا يحل له ، فأما أن يقول فيه شيئا ليس فيه قل أو أكثر فهو هتب ، كما قال النبي عليه السلام ، فأما إذا كان فيه معصية قد أصر عليها ، أو لم يتب إلى الله منها ، فينبغي أن ينبهه على ذلك في ستر ، فإن لم يراجع فالواجب عليــه هتكه والتنبيه على سوء حالته [١] أن يكون في ذلك هتك نفسه ، وإيجاب حد عليه في ظاهر الحكم ، إذا كان الذي اطلع عليه منه مستورا في الظاهر عنــد الناس ، فأما إذا لم يكن كذلك فالذي يجب عليه من هتكه ما قاله النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « أذكروه بما فيه يعرفه الناس ».

ومن ذلك ما روت عائشة ، والحارث بن صرار الخزاعي ، وغيرهما: ، عـــن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « إن خزاعة أتت إلى النبي (ص) صلى الله عليه [وآله وسلم] فأسلموا وكان رئيسهم الحارث بن صرار الخزاعي ، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار قريش ، وإنا لا نســتطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام ، وإني صائر إلى قومي فأجمع صدقات من أســلم منهم ، فإذا كان في رأس الحول أرسل إلينا من يقبض صدقاتنا ، فقال له النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم: نعم ، ووعده ، فلما كان في رأس الحول أرسل إليه النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فلما صار في بعض الطريق خاف فرجع وقال: يا رسول الله أتيت الحارث بــن ضــرار وقومه فحددوا لي القتال وهموا بقتلي ، فوجه النبي صلى الله عليــه [وآلــه] وسلم جيشا إلى الحارث بن ضرار وإلى خزاعة ، فلما كان الجيش في بعــض الطريق لقيهم الحارث بن ضرار في سروات قومه وقد حملوا صدقاتهم ، فقال أمير الجيش: يا حارث بن ضرار أردت قتل رسولَ رسولِ الله ، ومنعت الزكاة ، وارتدت عن الإسلام! فقال الحارث: والذي بعثه بالحق مــا أخــرجني في سوات قومي إلا إبطاء خبر رسول الله عني فقدم المدينة ، فلما أتى النبي صلى

(١) في (أ) و(ب): هتكه على سوء حلقه له أن.

الله عليه [وآله وسلم] قال: هيه يا حارث أردت قتل رسولي ، ومنعت الزكاة ، وحددت له لقتال؟! فقال الحارث: والذي بعثك بالحق ما أخرجني في سروات قومي إلا إبطاء خبرك عني ، وهذه صدقات قومي ، فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات:٦] ، فسمى الله الوليد بن عقبة فاسقا ، ونهاهم أن يقبلوا ما قال لهم الفاسق » [١].

وقال ابن مسعود: قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه: أنا أندى منك لسانا ، وأحد منك سنانا ، وأشد منك في الكتيبة جنانا ، فقال له عليه السلام: « اسكت فأنت فاسق فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ۝ ﴾ [السجدة:١٨] ، فسمى الله الوليد هاهنا: فاسقا» [٢].

فلا ينبغي لعبد أن يتورع عن ذكر الفاسق المعلن بفسقه ، والإمام الجاير وصاحب بدعة يدعو إلى بدعته ، ففرض على المؤمنين إخبار الناس بما فيهم ليحذروهم ، نصحا لله ولرسوله وللمسلمين ، وذلك من عرى الإيمان ، كما قال أبو ذر رحمة الله عليه عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » [٣] ، وقال الله جل ثناؤه: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ ... ﴾ [المجادلة:٢٢] الآية ، فأهل المعرفة بالله والإجلال

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه ابن المغازلي في مناقبه /٣٢٤(٣٧٠) ، (٣٧١) ، وأحمد بن حنبل في الفضائل ، والبغدادي في تاريخه ٣٢١/١٣ ، وابن جرير الطبري ٦١/٢١ ، وابن كثير في تفسيره ٤٦٢/٣.

(٣) سبق تخريجه.

لمقامه هم الذين لا يتولون من حـــآد الله ورســـوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... ﴾ [المجادلة:٢٢] الآية.

وقد قال عبد الله بن مسعود: لا ينبغي لأولياء الله من أهـــل دار الخلـــود أن يكونوا من أولياء الشيطان ، من أهل دار الغرور في محبتهم ووهم ، فـــإذا لم يوآدوهم و لم يخالطوهم كانوا قد وافقوا الله في محتبه ، وأدوا إلى الله النصيحة فيهم بما قالوا ، أو سخطوا عليهم ولعنوهم للعنة الله لهم وســـخطه علـــيهم. فذلك هو الغضب كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام: « ومن شنئ الفاسقين غضب الله له » ، وبذلك فليقتد أهل العلم بالله والإجلال له ، ثم اعلموا أن تثبيت الله وحبله لا ينقطع عمن [١] استمسك به ، ولا يذهب بمن تمسك به إلى غـــيره ، وعن قليل تنقطع الأسباب بالظالمين (حتى يتبرأ بعضهم من بعض ، فبعـــدا للقـــوم الظالمين) [٢] ، والعاقبة للمتقين ، والحمد لله رب العالمين.

تم الكتاب والحمد الله ، وصلى الله على محمد النبي المصطفى وعلى آله وسلم تســـليما ، ورحـــم وكـــرم كـــثيرا مباركـــا طيبـــا.

---

(١) في (أ) و(ب): لمن.

(٢) سقط من (أ) و (ب): ما بين القوسين.



كتاب

الهجرة والوصية